تأليف : دانييل لوغاك

سورية في عهدة

الجنرال الأسد



تعريب

الدكتور حصيف عبدالغني

مكتبة مدبولي

القاهرة

سورية في عهدة
الجنرال الأسد

الطبعة الأولى

2006م

مكتبة مدبولي

العنوان: 6 ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون: 5756421 - فاكس: 5752854

البريد الإلكتروني

WWW.madboulybooks.com:
Info@madboulybooks.com

تأليف: دانييل لُوغاكْ(*)

1991

سورية في عهدة الجنرال الأسد

تعريب

الدكتور حصيف عبدالغني

2006

(*) دانييل لوغاك: صحفيّ مستعرب أمضى عشر سنوات في الشرق الأدنى خمس منها في لبنان، وتردّد كثيراً على سورية، وهو حالياً –عام 1991- مسؤول في القسم الخاص بالعالم العربي المسلم وأفريقيا السوداء في مؤسسة صحفيّة عالمية.

الإهداء

إلى مُــنَى

إلى هــيثم... لنصائحــه الغالية

إلى ريـــاض الـــتـرْك...
لشجاعتــه التي لا تُقْهَــر

"للحكومة ذراع طويلة وذراع قصيرة؛ الطويلة هي للأخْذ... وتصل إلى كل مكان، القصيرة هي للعطاء... ولكنها تصل فقط للقريبين جدّاً"

إغناطيوس سيلون

إلى القراء الأكارم

صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية في بروكسيل ببلجيكا في النِّصف الثاني من عام 1991، لذلك لم يتضمن السنوات التسع الأخيرة من حكم حافظ الأسد. أما مؤلف الكتاب فهو الصحفي المستعرب (دانيال لوغاك) الذي أمضى عشر سنوات في الشرق الأدنى خمس منها في لبنان، وتردد كثيرا على سورية... كما هو مبين في الصفحة الأخيرة من غلاف الكتاب الأصلي، كذلك في الإهداء: إلى منى... وهيثم ورياض الترك.

ولدى مطالعتنا الكتاب الذي حصلنا عليه من مكتبة في أوروبا... بعد عامين من صدوره لفت نظرنا موضوعية المؤلف، وهو الرجل الأوروبي المحايد الذي تابع تأريخ الرجل، موضوع الكتاب، منذ صغره، ووثّق عمله بالمراجع التي نشرت عن (الجنرال) أسد تفاصيل حياته وحلّلت خلفيته الاجتماعية والاقتصادية والبيئية والعقائدية، ذاكرا بتجرد: ما له وما عليه؛ فقرّرنا تعريب الكتاب، بعد رحيل الرجل للقاء ربه لاطّلاع قراء العربية المهتمين بالموضوع، وانتهينا من هذا العمل في أواسط عام 2004. وعندها وجهنا رسالة بالبريد العادي ثم بعد ذلك بالفاكس إلى الشركة الناشرة في (بروكسل) طالبين إعلامنا عن العنوان الجديد للمؤلف وراجين أن تسمح لنا دار النشر بطبع الكتاب المعرب لأغراض دراسية غير تجارية، ولكننا لم نلق في الحالتين إلا الصمت عن الرد... فاعتبرنا (صمتها)... قبولا —كالمخطوبة–!!

والطريف في الأمر بعد ذلك أنّ بَحْثَنا في (الإنترنيت) قادنا إلى مفاجأة مذهلة: فالسيد (دانيال لوغاك) هو اسم مستعار!! سبحان الله... حتى الأجانب خافوا من تعريض أنفسهم للهلاك، على أيدي زبانية مخابرات النظام الذي تربّع الجنرال على رأس هرمه لأكثر من ثلاثين سنة (وأزاح بعنف شرسٍ كل من ظنه عقبة في طريقه) كما يقول المؤلف (دانيال لوغاك).

والكتاب بالمناسبة، واكب الجنرال من عام 1963 (يوم حدوث الانقلاب العسكري الذي قاده العقيد –غير الحزبي– زياد الحريري... وسموه بعد ذلك (ثورة البعث)!! وعودة المقدم المسرح الأسد إلى الجيش من وظيفته المدنية بوزارة الاقتصاد... إلى أواخر عام 1991 تاريخ صدور هذا الكتاب.

وذكر المؤلف بأمانة علمية راقية مصادر كل خبر وكل حدث من شهوده أو رواته، كما ترون في لائحة المراجع آخر الكتاب، والتي تركناها بلغتها الأصلية لمن يريد الرجوع إليها.

أخيراً إذا رأى (بعض الأتباع) في (بعض) هذا الكتاب كفراً بالدكتاتورية –على حد تعبير الأستاذ رياض الترك– فالكل يعلم... أن ناقل (الكفر) ليس بكافر!!!

لجنة التعريب

تمهيد

تُمثّلُ سورية، -مع العراق بلا شك- الصورة أكثر رثاء في العالم العربي كلّه، فهي؛ مسبوقة قليلاً بالعراق، تتصدّر الأنظمة الأكثر قسْوةً في والعالم، وتعتبر منذ نهاية السبعينات -من القرن الماضي- (ديكتاتورية شرسة أو عِشّاً للإرهابيين)؛ بموازاة، ذلك، يتمتّع رئيسها الجنرال حافظ الأسد غالباً بتقدير مسبق حسن، ومن النادر أن تجد رجال دولة أو مسؤولين سياسيين -أوروبيين أو أمريكان- لم يكيلوا له المديح -حتى ولو كان بارداً- منذ عقدين من الزمان، في مَعْرَض ذِكْرِهم لطبيعة نظامه الذي لا مناص منه.

مقـــدمـــة

كلّ كبار هذا العالم من (الرئيس) ريتْشَارْدْ نكسون إلى الرئيس جورج بوش الأب إلى هنري كيسنجر إلى الرئيس ڤاليري جُسكار دِسْتان، مروراً بالرئيس فرنسوا ميتران أو جيمس بيكر، وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق. كلهم حيّوا، في مناسبة أو أخرى (حكمة)! وذكاء... أو واقعية الرجل الذي يرسم منذ عام 1970 أقدار هذا البلد بعدد سكانه الإثني عشر مليوناً، ومساحته التي تقرب من مساحة بريطانيا العظمى.

وأكثر المتأثرين بخصاله، وبالتأكيد الأكثرهم بلاغة —في الثناء- كان هنري كيسنجر، ففي موضوع محادثات فكّ الارتباط، وجد الأخير أنها أكثر صعوبة واحتاجت منه حذْقاً أكثرَ مِمّا احتاج في محادثاته مع الزعيم الفيتنامي (لو دوك تو Le Duc Tho) حيث استطاع أن ينتزع عام 1974 اتفاقاً بإطلاق سراح بِضْع عشرات من الأسرى الإسرائيليين مقابل تخلي الدولة اليهودية عن مساحة لا بأس بها من هضبة الجولان المحتل -القنيطرة-، وبعكس الإشاعات التي راجت، فقد ظهر بعد ذلك الاتفاق أنّ الجنود الإسرائيليين الشباب من جيش —تساحال- لم يُعَذّبوا، بل إنّهم عوملوا نسبياً معاملة حسنة في الأسر. وبالمقابل جاءت المفاجأة من إسرائيل التي قامت (بولدُوزِرَاتها) بتدميرٍ كاملٍ للقنيطرة عاصمة الجولان (وتسوية كل بناء فيها بالأرض) قبل تسليمها

للسوريين.

وفي عام 1976 أجمع العالم الغربي كلّه على تقدير التدخّل السوري في لبنان، وبدون إبداء اهتمام على ما بدا —بالمناورات المشرقية التي جعلت جيش الأسد يستقر في الواقع في كل أنحاء لبنان —باستثناء جنوبه بسبب الفيتو الإسرائيلي—، هنَّأ الأمريكان والأوروبيون بعضهم بعضاً مع قَدْرٍ من الصلافة والسذاجة، لوجود الجيش السوري في لبنان... الذي سيسمح أخيراً للبنان (باستعادة سيادته) و(إعادة الأمن والنظام) لمعظم أجزاء الكيان الوطني اللبناني.

بعد ذلك، وفي شباط/فبراير 1987، وبعدما طُرد الجنود السوريون من بيروت بأسلوب مُذلّ (بدون أمجاد) خلال الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، عادوا مجدداً لإنهاء المواجهات المستمرة للميليشيات اللبنانية فيما بينها، أو بينها وبين المنظمات الفلسطينية، لم يجد الغرب شيئاً يقوله أو يعيد قوله. ولم يكن عند أحد قِلّة ذوق لِتَجْعَلَهُ يذكر أنّه قبل أشهر كانت أجهزة الأمن والاستطلاع السورية تزيد النار وقوداً بتسليحها لحلفائَها الشيعة اللبنانيين في حركة أمل آملين تصفية الموالين لياسر عرفات.

كذلك نسيَ الغرب أيضاً اغتيال بشير الجميّل في أيلول 1982 على يد عميل موالٍ للسوريين، أو أكثر من ذلك، الدور الذي لعبته دمشق في وصول قوة هامّة من الباسْداران —حراس الثورة الإيرانية— وغيرهم من المتطرفين الإيرانيين إلى لبنان.

ويجب إضافة العديد من الأحداث المأساوية لبعض هذه الأمثلة التي رفض

الغربيون التَدَخُّلَ فيها، والتي طبعت الحياة السياسية الداخلية السورية.

واطّلعَتْ كل سفارات الدول الغربية الكبرى على كل هذه الأحداث بسرعة وتفصيل وكانت، كلّها، على علم دقيق بها، ولكنّها لم تبد كلّها أبداً، أقلّ احتجاج عليها وكانت كلها مواضيع تثير القلق، ولنستعرض بعضها:

من 150 إلى 200 قتيل في 9 و10 آذار 1980 في مذبحة جسر الشغور، وبين ألف وألفين قتلوا عام 1980 في حوادث حلب خلال إعادتها إلى صوابها، وستُّمائةٍ قتلوا يوم 27 حزيران 1980 في سجن تدمر، ونحو 400 قُتلوا في حماه ما بين 23-26 نيسان 1981، ولاختتام هذه السلسلة المخيفة من عمليات القتل، أذكر مذابح حماه المرعبة في شهر شباط 1982 والتي أدّت إلى مقتل ما بين عشرين إلى ثلاثين ألفاً من سكانها.

والصمت المتواطئ للدول الغربية الكبرى لا يمكن تبريره بمصالحها في اقتصاد سورية، فسورية ليست هي العراق ولا العربية السعودية، وإنتاجها البترولي لم يزد عن عشرة ملايين طن من النوع الوسط الذي يجب خلطه بمواد عديدة مستوردة أكثر خفّة منه، ولم تظهر مكتشفات بترولية جديدة حول منطقة دير الزور إلا منذ وقت قريب، ونوعه يقرب من نوع البترول العربي، واستخراج 200 ألف برميل يومياً -عام 1990- لا يؤثر على السوق العالمية للبترول.

ولدى سورية إمكانات زراعية معتبرة يمكنها أن تجعل سورية يوما ما مخزن القمح للشرق الأدنى ولكن الشروط المناخية، وعلى الأخص الإدارة التي يُرثى لها، تضطر المسؤولين السوريين إلى استيراد القمح من الخارج.

كذلك لا تملك سورية الخبرة اللبنانية في مجال الأعمال، ونظامها الموجّه يتألف من بيروقراطية خانقة، تمنع هكذا أي إرادة لمنافسة (الإخوة) اللبنانيين.

بلد متوسط الحجم، لا يُأبه له كثيراً في الأوساط البترولية، فَقَدَ نخبته من رجال الأعمال والمصارف بعد عقود من البيروقراطية (المستعصية)، هكذا بدت سورية في آخر سنوات الستينات قليلة الجهوزية لِلَعِبِ أيّ دور على مسرح الشرق الأدنى؛ ففي عام 1967 وبعد هزيمتها الصاعقة في شهر حزيران، بلغ هذا البلد الحضيض.

وبعد ثلاثة وعشرين عاماً، بعد أن قضى رئيسها أكثر من عشرين عاماً في السلطة -وهذا بالمناسبة يعني الكثير بالنسبة للطبيعة الديموقراطية للنظام- تعتبر سورية الآن، حقاً أو باطلاً محاوراً أساسياً في كلّ حلّ سلمي في الشرق الأدنى، وجيشها يعتبر أيضاً تهديداً خطيراً لأمن الدولة العبرية.

ويجب التساؤل بالتأكيد، عن حقيقة هذه القوة العسكرية، ولكن يجب التساؤل بخاصة عن الظروف التي سمحت، وتسمح دائماً، لحافظ الأسد أن يرفض بقوة ليس فقط فكرة السلام، كما يعتقد البعض استطاعتهم ذلك، بل كلّ خطط السلام التي قدّمها البيت الأبيض. وتاريخ هذا الرفض المتكرّر له جذوره في التقاليد السورية، ولو أنّ الأسد شوّه تلك التقاليد، إلا أنّه يبقى هو نفسُهُ، وبطريقته الخاصة ممثلاً لها.

وسورية، وهي مجتمع أقلُّ تماسكاً وانسجاماً من مصر، لكنها تحمل بعمق أكثر تراثها العربي كما هو الحال في كلّ البلاد العربية تقريباً، ما كان

باستطاعتها بالتأكيد (إنتاج رجل كالسادات)، ولن تستطيع ذلك الآن، وإذا اتفق الأسد على إقامة السلام مع إسرائيل لن يكون ذلك، كما هو واضح، إلاّ في إطار تسوية شاملة تقبلها غالبيّة المسؤولين العرب.

كلّ مواطن سوري مقتنع بعمق أنّ دمشق أسْهمت في عَظَمة الحضارة العربية، وكانت هذه المدينة لمدة تسعين سنة قلب إمبراطورية إسلامية أكبر من الإمبراطورية الرومانية. إمبراطورية امتدت من جبال البيرينيه غرباً إلى جبال الهملايا شرقا. وفي هذه الفترة التاريخية نفسها، كانت اللغة العربية تحّل تدريجياً محل اللغة الآرامية لتصبح اللغة الرسمية لسورية.

وبالنسبة للسوريين فأيام الأمجاد هذه تُقدّر أكثر من كل عوامل الاعتزاز الأخرى؛ وهذه العوامل مع ذلك متعدّدة، لأنّ الملايين الإثني عشر -وهم سكان سورية الآن- يبقون الوارثين لتاريخ متميّز: ماري وأوغاريت وإلبا هي في الواقع الأبجدية الأولى في العالم، إنّها اختراع الكتابة قبل خمسة آلاف عام تقريباً.

ودمشق، ذاتها، إذا اعتقدنا بلائحة بوابة الكرْنَكَ الفرعونية، خضعت للفرعون (تَحْتمسْ) الثالث قبل تسعة وثلاثين قرناً، ويتفاخر أهلها أحياناً بأنّهم ينتمون إلى أقدم حاضرة في العالم. وعلى بُعْدِ كيلومترات عدّة إلى الشمال الغربي من العاصمة السورية... عند مدخل قرية البَرْزة يوجد مقام إبراهيم الذي تقدّسه الجالية اليهودية الصغيرة في سورية. لهذا تجعل الأسطورة من قرية البرزة مسقط رأس سيدنا إبراهيم.

كذلك لعبتْ دمشق دوراً في تاريخ نشوء النصرانية، ففيها تحوّل (القديس) بولس أحد حواريّي السيد المسيح إلى النصرانية، ومنها بدأ دعوته التي كان لها أصداء وردود في العالم.

والسوريون، وغالبيتهم من المسلمين يتأثرون حتى اليوم بشخصية (الخليفة معاوية)، مؤسس أوّل مملكة عربية مسلمة هي دولة الأمويين، وكانت الأساس للإمبراطورية السالفة الذكر، وخصاله الشخصية المتميزة هي التي سمحت لدمشق باحتلال مكانة المدينة -المنوّرة- كعاصمة للعالم الإسلامي، حتى قيام دولة العباسيين في بغداد، بعدما رفضوا الخضوع لِحكْم السوريين، واستلموا القيادة عام 950م، بعدما سحقوا جيوش الأمويين في الصحراء العراقية. وبعد اثني عشر قرناً ونصف من ذلك التاريخ تبقى العلاقات السورية العراقية الآن متوترة أيضاً.

وإذا أضفنا لذلك مرور كلّ الحملات الصليبية تقريباً في الأراضي السورية، وموت صلاح الدين في دمشق عام 1193م، أقوى القادة الذين واجهوا ملوك الفرنجة، يمكننا أن نفهم كم تحمل هذه الأراضي التي تحدّها شمالاً تركيا وغرباً البحر المتوسط وسلسلة جبال لبنان الشرقية وصحراء الأردن جنوباً وصحراء العراق شرقاً، من تراث تاريخي متميّز.

ولكن إذا كان السوريون لم يطيقوا حُضور (المشركين) القادمين من أوروبا فإنّ هؤلاء -السوريين- لن يقبلوا طوعاً أو كرهاً العيش خلال أحد عشر قرناً خاضعين لممالك متعدّدة مختلفة: منهم العباسيين والقرامطة

والحمدانيين والفاطميين -وهذه أهمها وليست كلها- ثم العيش تحت حكم السلاجقة الأتراك في الإمبراطورية العثمانية.

ولم تبدأ فكرة القومية العربية في الظهور على تراب سورية إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما بدأت اليقظة السورية. والاحتلال الفرنسي لسورية بدءاً بعام 1920م أسهم في تكوين المشاعر القومية، ولكن كان على السوريين أن ينتظروا حتى عام 1941 -في 27 أيار- للحصول على استقلالهم مع بقاء القوات الفرنسية لبضعة سنين أخرى بعد ذلك -17 نيسان 1946-.

وهذه السنوات العشرون للاحتلال الفرنسي كانت هامة جداً في تاريخ سورية وفي الذاكرة الجمعية للسوريين؛ تبقى هذه الفترة التاريخية راسخة أبداً بسبب الوعود الكاذبة المتتابعة للفرنسيين والبريطانيين الذين وعدوا العرب بالاستقلال، لأنّهم -أي العَرب- حاربوا إلى جانبهم لِطرْد العثمانيين. فما كان من هؤلاء الفرنسيين والإنكليز إلا أن حلوا بكل بساطة محل العثمانيين.

وفي الثالث من تشرين أول -أكتوبر 1918- دخل الأمير فيصل بن الشريف حسين -مدعوماً بلورنس العرب الشهير- دمشق، والشريف حسين هو والد جدّ ملك الأردن حسين. وفي الشهور التي تلت اتجهت القوة الفرنسية -الصغيرة- التي رافقته إلى بيروت، وأصبحت بعد زيادة عددها «القوات الفرنسية للمشرق»، وبعد سيطرتها على كل لبنان توجّهت بعض هذه القوات إلى العلويين في جبال النصيرية -الأنصارية- وإلى الأتراك في كيليكيا.

وفي آذار عام 1920 اجتمع المؤتمر الوطني السوري في دمشق، وأعلن استقلال "سورية الكبرى" تحت التاج الشريفي. و(سورية الكبرى) هذه تضم الجزء الأكبر من سورية الحالية وأقصى جنوب تركيا وفلسطين ولبنان، ولكن فرحة العرب لم تدم طويلاً. ففي نيسان عام 1920، ثَـبَّتَ مؤتمر (سان ريمو) اتفاقات (سايكس بيكو) المصحَّحة والمنقحة، والتي أعطت لفرنسا (حق) الانتداب على سورية ولبنان، ولبريطانيا العظمى باقي أجزاء (سورية الكبرى) بالإضافة للعراق. وبعد ثلاثة أشهر أعلنت الحرب على سورية وطُرد الأمير فيصل منها؛ فذهب لبغداد حيث نُصِّب ملكاً على العراق في 21 آب 1921.

ولتثبيت سلطتها، عمدَتْ فرنسا إلى تقسيم سورية إلى أربع دول: دولة دمشق ودولة حلب ودولة الدروز، ودولة العلويين المستقلة. وفُصلَ لبنان عن مجموعة هذه (الدول)! وأُعلِنَ استقلاله في (1) أيلول –سبتمبر– عام 1920.

يضاف إلى هذه المكائد مؤامرات بريطانيا العظمى ضد فرنسا وضد العرب وبالتحديد في فلسطين، التي خلقت مناخاً مكروهاً في كلّ المنطقة، وقوَّتْ بصورة ملموسة موقف القوميين العرب، كلّ هذا يسمح أيضا، إذا عدنا نصف قرن إلى الوراء، بفهم أفضل لكيفية ترابط دول مثل سورية والعراق والأردن ولبنان ببعضها البعض وكيف كانت المسألة الفلسطينية لسكان هذه الدول شوكة مؤلمة. ومن كلّ الأراضي التي احتلّها العثمانيون قديماً، ألم تكن فلسطين في الواقع هي الوحيدة التي أفْلَتت، بجزئها الأكبر من السيادة العربية؟

ومع ذلك وبعد الإذلال الأخير – حين أقطعتْ فرنسا لتركيا بصورة غير

-مبررة سنجق الإسكندرون- حيث كان العرب الغالبية الكبرى، استفاد الوطنيون السوريون من الوضع الجديد الذي خلقته الحرب العالمية الثانية ونالوا أخيراً هدفهم بالاستقلال. وفي نيسان 1946 جلَتْ كلّ القوات الأجنبية - الفرنسية- عن سورية، ولكن، بما أنّ فرنسا دَعَمَت وفضّلت الأقليات فأثارت السوريين ضد بعضهم البعض ممّا أسْهَم في إقامة مناخ من عدم الاستقرار عاشته سورية إلى أن وصل إلى الحكم فيها بعد خمسة وعشرين سنة من الاستقلال،(*) حافظ الأسد، ومن المضجر أن أعدد هنا اللائحة الطويلة لكل من تعاقب على الحكم في دمشق بعد الاستقلال. وبعد ثلاث سنوات من حياة برلمانية طبيعية تقريباً عاشت البلاد تحت حكم ثلاثة نُظُم عسكرية مختلفة، وفي أيلول عام 1954 عاد إليها النظام البرلماني، وفي الانتخابات التشريعية لتلك الفترة برز لأول مرة بعض النواب البَعثيين أي بعد عشر سنوات من التأسيس الرسمي لحزب البعث.

وفي نفس الوقت لَفَت نظر العديد من المسؤولين السوريين عُزلة بلادهم في مواجهة المحور العراقي الأردني —حيث يحكم فرعان من العائلة الهاشمية- وخصوصاً في مواجهة إسرائيل، لذلك تسابقت دمشق للتقارب مع القاهرة. بالإضافة لذلك، وبعد تأميم قناة السويس في تموز -يوليو- 1956، وصلت شعبية جمال عبدالناصر إلى مستوى رفيع، وفي 22 شباط 1958، ظهرت للوجود الجمهورية العربية المتحدة.

(*) بعد أقل من سبعة عشر عاماً من الاستقلال التام، بالتحديد -منذ جلاء الجيش الفرنسي في 17 نيسان 1946 إلى 8 آذار 1963، تاريخ الانقلاب العسكري - الناصري - البعثي الذي سموه (ثورة)!.

إلا أنّ الرحمة لم تدم طويلاً: فالبيروقراطية المصرية ونفسيّة السوريين المختلفة جداً عن نفسية المصريين، وكراهية عبدالناصر العلنية تقريباً للطبقة السياسية السورية، بالإضافة لسنين من الجفاف الذي حدث في تلك الفترة، كلّ ذلك أدّى في النهاية إلى انفراط عقد الزواج. وفي 28 أيلول –سبتمبر– 1961 حصل الطلاق في جو من اللامبالاة العامة تقريباً.

وبعد ثمانية عشر شهراً حصل انقلاب على الحكومة الضعيفة، التي كانت في السلطة بدمشق قادته بعض الوحدات العسكرية، وحلّ محلّها مجلس وطني لقيادة الثورة! تشكّل من الناصريين والمستقلين والضباط القوميين والبعثيين، وبسرعة سيطر الأخيرون وكان تنظيمهم هو الأبرز وأزاحوا الفئات المنافسة التي شاركتهم، الواحدة تلو الأخرى. ومنذ ذلك الحين انحصرت الحياة السياسية الحزبية بالبعث فقط. ولم تبدّل الهزيمة المذلّة عام 1967 من هذا الوضع شيئاً، بل على العكس أسرعت بوصول حافظ الأسد إلى السلطة والذي كان عضواً في حزب البعث، وعمره ستة عشر عاماً سنة 1946.

حافظ الأسد، وريث إحدى أعظم الحضارات في العالم، كان شاهداً خلال فُتوّته وبداية حياته العسكرية على تقلّبات سياسية عدّة، أكثرها دموية. لذلك لم يستطع، عندما استلم أعلى منصب في الدولة، إلا الشعور بأنّه حامل رسالة معيّنة.

ومثل الكثير من العرب، أحبّ حافظ الأسد التاريخ وأساطيره، ففي قاعات الاستقبال في القصر الرئاسي المهيب بعض اللافتات التي لا تترك مجالاً

للشك في ذوقه. فالرجل مدخول بطبيعة الحال بهذا الماضي الرائع الذي يتقاسمه مع مجموع مواطنيه. لكن ليس من الممكن فَهْم الرئيس السوري وسياسته دون التطرّق بالتحديد إلى بيئته العلوية حيث نشأ وترعرع؛ ودون التذكير بالخطوات الرئيسية الهامّة، التي مرّت بها سورية من عهد الانتداب الفرنسي إلى استحواذه على السلطة. فهو إلى حدّ ما تاريخ حزب البعث الذي امتزجت به بصورة حميمة حياة الرئيس السوري. وهذا الأخير اعتقد منذ مدّة -وربما لا يزال يعتقد- بالمبادئ الكبرى التي قامت على أساسها إيديولوجية البعث: -وحدة عربية، اشتراكية وحريّة-، والتي هي على أكثر الاحتمالات فكرة السلطة السياسية المنفتحة على مختلف التفسيرات والتي يوجد فيها ابتداءً كل ما يُراد منها، وإذا كان لا يمكن الشك بإخلاص وصدقية المراهق الذي انتمى في آخر دراسته الثانوية إلى تشكيلة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، فمن الواضح بالمقابل أنّه بعد واحد وعشرين سنة فهم (البالغ) تماماً لّما كان وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للقوات الجوية كل ما يمكن أن يستفيده من البعث.

ففي بدايات هذا الحزب في الأربعينات -من القرن العشرين- أغوى الأقليات الدينية بخاصة بسبب العلمانية التي كان يدعو لها، وأصبح الكثير الكثير من العلويين أعضاء في حزب البعث، واستطاع الأسد أن يلعب بورقةِ هذا العامل بصلافة هائلة، ليس لأنّه كان مهموماً بدعم وتفضيل هذه الطائفة كما يعتقد البعض في كثير من الأحيان، ولكن بكل بساطة لأنّه كان يعلم أنّه يستطيع خدمتها بشكل أفضل مما يستطيعه المواطنون السوريون الآخرون(!) ولكن وفي آخر المطاف كلّ الذين يعرفونه جيداً، والذين راقبوا واقعه

السياسي يعلمون أنّ مصلحة الشعب العربي أو مصلحة سورية كانت لها في نظره المقام الأول قبل مصلحة العلويين.

ومن هذه الوجهة وبعكس الرأي المسبق الواسع الانتشار، دفعت هذه الطائفة العلوية الثمن مثلما دفعتْ كل الطوائف الأخرى في البلاد، ولربما دفعت ثمناً أكبر مما دفعته بعض الأحيان الطوائف الأخرى، لهذا النظام طالما أنّه من الصحيح القول أنّ الأسد كان يتوجّس من (أصدقائه). وبما أنّ العلويين لا يشكلون طائفة متجانسة، فهم منقسمون إلى قبائل وعشائر لم يُخف بعضها عداوتهم العميقة لسياسة حافظ الأسد، ففي الزمر السريّة الصغيرة لليسار المتطرف يوجد العديد من العلويين بصورة خاصة.

واستغلال (البعث) لأهداف خاصة يقودنا للحديث مطوّلاً عن ميكانيكية العمل لنظام لا يحتفظُ بالسلطة إلا بالقمع والفساد؛ فالقمع والفساد هما الكلمتان اللتان تتردّدان في أغلب الأحيان على لسان السوريين الذين يتحدثون عن بلدهم، ولهاتين الكلمتين يجب إضافة ثالثة: الصلافة –مع استخفاف واستهتار– فهي الشكل الأكثر سوقية وفظاظة، أو الشكل المنجَزْ التام للواقعية؛ وهذان مثلان من مئات الأمثلة الأخرى: ففي تموز 1990 يذهب الرئيس السوري إلى مصر، لأوّل مرة منذ حرب 1973؟ هل تحوّل فجأة لمؤيد لاتفاقيات كامب ديفيد؟ كلا بالتأكيد؛ هل نجح الرئيس المصري حسني مبارك في مصالحة الإخوة الأعداء العراقيين والسوريين؟ كلا أيضاً، في الواقع منذ انتهاء الصراع العراقي الإيراني، وأفول نجم الإمبراطورية السوفيتية والتي استوعب الأسد رأساً أهميتها، بعكس صدام حسين، واستخلص منها النتائج الواقعة،

وكان يخشى في المقام الأول قوّة بغداد، ومغازلته لمصر التي شرع فيها منذ شهور طويلة، لم يكن لها من هدف آخر إلاّ محاولة الخروج من عزلته. وبصدفة غريبة في الروزنامة التاريخية سمحت له حرب الخليج بعد عدّة أسابيع ليس فقط بإعادة التواصل مع القاهرة، بل والتصالح مع العديد من الدول الغربية.

وفي نفس الوقت تقريباً، ونتيجة مباحثات دامت قرابة ثمانية عشر شهراً تقاربت حركة أمل الشيعية، حليفة دمشق مع منظمة (فتح) لدرجة أنّها وقعت اتفاقاً مع هذه الحركة الفلسطينية التي يديرها ياسر عرفات. فما الذي حدث؟ هل سامح الأسد عدوَّه القديم؟ هل سيعمل السوريون والفلسطينيون بعد ذلك يداً بيد؟ لا أبداً، فالحقيقة أنّ الرئيس السوري قلقٌ من احتمال انهزام حركة أمل في جنوب لبنان في مواجهة حزب الله الموالي لإيران. وبما أنّ جنوده (جنود الأسد) لا يستطيعون تجاوز الخط الأحمر جنوب صيدا خوفاً من أن تهاجمهم إسرائيل، شجّع الأسد (فتح) المنظمة الفلسطينية الأكثر تجذّراً في جنوب لبنان على حفظ الأمن والنظام في تلك المنطقة وضمان بقاء حركة أمل إلى أن تستعيد هذه الحركة -أمل- أنفاسها وتُحسّن فعّاليتها.

ومع ذلك، فلهذا التقارب حدوده وجهاز المخابرات السورية لم يدخر أي جهد في تسهيل الدخول إلى المخيمات الفلسطينية في جنوب لبنان لأكبر عدد من جماعة أبو نضال، العدو اللدود لعرفات.

وهكذا يحتفظ الرئيس السوري دائماً بسيفين حامين مختلفين في آن واحد.

ولا يزعج الرئيس السوري التقاتل بين الفلسطينيين وسقوط مئات

الضحايا وتدمير القرى اللبنانية، كما لم تزعجه المذابح التي اقترفها أتباعه في حماه وحلب وتدمر وغيرها، "الأسد هو المَكْياڤيلّي الوحيد في تاريخ سورية"، كما يصرّحُ أحد المعارضين السوريين، مع أنّه يعترف له أن شعوره بنفسه كرجل دولة يقارب الجنون.

أمّا خصومة الذين لا يتأثرون بهذه الناحية من شخصيّته فيستنكرون عبادة الشخصيّة التي تُنْشَرُ في سورية، وهم محقّون في هذا الأمر، لكن يجب محاولة تقديم تفسير لسلوك لا يتناسب مع ما يُعرف عن شخصيته؛ من ميول وأذواق بسيطة ومزاج بارد جليدي، وبصورة عامّة إحساس حادّ بالأمور التي تثير السخرية ممّا مكّنه من تحاشي الانزلاق في دروبها الغريبة المضحكة التي سلكها العديد من الدكتاتوريين.

والمؤسف أنّ السخرية تُقتَل في سورية، أو إذا استعَرْنا تعبير (غْراهام غْرين) يمكن القول: إنّ "التعاسة أصبحت عادة كالتديّن، وبسهولة كبيرة اعتاد الناس على بؤس سكان الشرق الأدنى بخاصة الفلسطينيين واللبنانيين، حتى أنّهم نسوا في الغالب كم تعذّب السوريون تحت حكم القبضة الحديدية لرئيسهم الأسد. ويمكن الملاحظة من خلال هذا الكتاب أنّ القليل جداً من السوريين الذين حاورناهم قبلوا الإعلان عن أسمائهم. وهذا الخوف المرتبك –سواء كان مبرّراً أو لا– من الوقوع يوماً في يد أجهزة القمع السورية، يُبيّن الوضع أكثر بكثير من الخطب والمقالات، وهو دلالة على نوع من إفلاس النظام الحاكم.

حكوماتنا ومسؤولونا لا يستطيعون لأسباب معروفة الدخول في هذه

الاعتبارات الإنسانية، لأنّ العلاقات الدولية تُختـــزل، عندها، في قسم التوافقات. ولا يمنعنا هذا من النظر إلى طريقة حافظ الأسد في قيادته لبلاده من خلال خطّ سيره وشخصيته ورؤية كيف يرسم مجمل سياساته.. قاس على (الأقربين) لذا ليس هناك من سبب ليكون عطوفاً على (الآخرين).

في الواقع يجب أن نكون منصفين له فلقد عامل الجماعات اللبنانية والفلسطينية بنفس الشدّة التي عامل بها جماعاته السورية، ومن الواضح أنّ الرجل لا يؤمن إلا بأساليب القوة ولكن الأسد، كما يبيّنُ (توماس فريدْمان) مراسل جريدة (نيويورك تايمز) في بيروت خلال عشر سنوات، بخلاف أريل شارون، عرف دائماً —حتى الآن على الأقل- حدوده، فلقد أبدى ذلك في العديد من المناسبات سواء على مستوى الفعل، أو على مستوى التفاوض؛ ففي ربيع عام 1974 حصل على أقصى ما يمكنه من هنري كيسِنْجر، وفي آخر عام 1978، وبعد اتفاقات كامبْ ديفيد التي وقّعت قبل عدّة أسابيع وأضعفت موقفه إلى حدٍ كبير، بعد انسلاخ مصر عنه، انسحب بصورة مهينة من بيروت الشرقية حيث القوات اللبنانية والمليشيات المسيحية لم تتوقف عن مناوشة وإزعاج قواته. وفي عام 1982 رفض مواجهة إسرائيل، لأنّه يعلم جيداً أنّه لا قدرة لجيشه على الوقوف في وجهها.

وبالمقابل، ما أن بدأت إسرائيل في التورّط في أوحال لبنان، حتى وجد الأسد الوسائل لمساعدةِ أعداء الدولة اليهودية الكثر في هذا البلد —لبنان—، وفي عام واحد أجبر حتى أمين الجميّل —الرئيس اللبناني- على إلغاء اتفاقية السلام التي وقّعها بصورة متهورة، مع الإسرائيليين، في 17 أيار 1983. وفي

22 أيار 1991 بعد خمسة عشر عاماً من المناورات استطاع الأسد أخيراً فَرْضَ (معاهدة الصداقة) مع لبنان.

إذا كان في قدرة الأسد تصْفية أو تَرْك غيره لِتَصْفية كلّ من يعتقد أنّه خطر على سلطته -كمال جنبلاط عام 1977، صلاح الدين البيطار عام 1980، بشير الجميل عام 1982، -وأكتفي بذكر هؤلاء فقط- إلاّ أنّه لا يملك وحشية منافسه العراقي صدّام حسين. وأغلب أعدائه السياسيين يقبعون في السجن منذ زمن طويل، إمّا لأنّه يخاف إن أطلق سراحهم أن يسبّبوا له المتاعب، وهذه حالة "صلاح جديد" ذي الأصل العلوي، وهو في السجن منذ أكثر من عشرين عاماً، أو في أحيان كثيرة، لأنّه يقدّر أنّه في يوم ما قد يتحوّل ليصبح المعارض ورقة سياسية رابحة، فبعض الإخوان المسلمين انضمّوا هكذا لنظامه.

وهمُّ حافظ الأسد الآن -وقبل كلّ شيئ آخر- هو البقاء في السلطة، وهو الذي أظهر دائماً ميلاً ذاتياً للسياسة الخارجية، التي تدغدغ (الأنا) - The ego- فيه أكثر من (الإدارة)، وأُجبر عن كُرْهٍ إلى حدٍ ما، أن يكرّس وقته باطرادٍ للسياسة الداخلية.

ما بين 1965 و1980 تضاعف عدد أصحاب الملايين -بالليرة السورية- ستين مرّة (60) —من (60) إلى (3500) -وهذا مؤشر في ذاته، على الاتجاهات... بسبب عدم المساواة التي تزايدت باطراد نتيجة الفساد المستشري بقوّةٍ بين حاشية الرئيس؛ فزادتْ التوترات بصورة متنامية في سورية

خلال سنوات السبعينات وأوائل الثمانينات، وبعد فترة انتشاء من موقف الجيش السوري في تشرين أوّل -أكتوبر- 1973، الفترة التي اعترف زعماء الغرب والمعسكر الاشتراكي فيها للجنرال الأسد بأنّه رجل دولة حقيقي، دقّت ساعة اليقظة بعنف في (كامب ديڤيد). وبعد أن استنكر شعبه تدخّل الجيش السوري في لبنان، أصبح الأسد فجأة عقبة في طريق مشروع السلام الأمريكي، الذي قبلت به مصر وإسرائيل. وبعد تخلص إسرائيل من كل الضغوطات العسكرية على حدودها الجنوبية غزا الإسرائيليون لبنان في آذار 1978، رأساً بعد زيارة السادات للقدس، حتّى قبل التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد.

وكان الإذلال كبيراً للسوريين الذين كانوا عاجزين عن سدّ اختراق الجيش الإسرائيلي، وفيما صمَت أغلب الإخوة العرب -وأولهم السادات- فضح العراق تهاون الجيش السوري وحوصر الأسد بين اثنين من ألدّ أعدائه؛ إسرائيل في الجنوب، والعراق في الشرق، ومرّت به أوقات عصيبة. فبعدما فشلت جهوده للتقرب من بغداد، نفهم لماذا رحّب، متنفساً الصعداء، بابتداء الحرب بين صدام حسين والخميني آخر عام 1980.

الكراهية والخوف اللذان يثيرهما ديكتاتور العراق في نفس الأسد جعلتاه ينحاز علانية لإيران ممّا أثار الغضب الشديد في العديد من العرب. والواقع أنّ حسابات أخرى، ستنكشف في المدى البعيد، كان لها الثقل الأكبر في الميزان، فإذا كان الحقد الذي كان يشعر به نحو بعض الرجال يستطيع دَفْعَهُ لأن يرتكب بصورة استثنائية الأخطاء، إلا أنّ الأسد يبقى بصورة عامّة من فصيلة

الحيوانات ذات الدم البارد.

وبما أنّه تخلّص لفترة قصيرة من الخطر العراقي، تلبّس السوري الأول بصورة مطردة هاجس التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل. فحتى لو احتل العراق دائماً مركزاً خاصاً في انشغالات الأسد، وبقي المنافس الخالد، لم تتوقّف إسرائيل، ولن تتوقّف عن كونها (دخيلاً) -في المنطقة- بنظر الأسد، بل غالبية من العرب؛ دخيل يجب طرده يوماً، بطريقة أو بأخرى.

ومع ذلك وعندما صرّح الروس أواخر الثمانينات أنّ على سورية التخلّي عن موضوع التوازن الاستراتيجي مع تلّ أبيب لم يدفعوا فقط دمشق بسرعة للتقارب من الدول الغربية و(المعتدلين) العرب، بل قادوا الحاكمين السوريين نحو إعادة تحديد مضمون هذا التوازن، الذي لم يَعُد مُقتصراً فقط على التوازن العسكري، فتبنّوا مفهوم الصراع الطويل الأجل، وربما هذا هو السبب الذي جعل السوري الأول يوقّع على اتفاق عدم اعتداء، دون أن يزيل ذلك شيئاً من الكراهية العميقة التي لا يمكن عكسها، والتي يشعر بها الأسد نحو الكيان الصهيوني.

وبخلاف العديد من مماثليه العرب -كالملك الأردني حسين والملك المغربي الحسن الثاني، لم يقم الأسد بأي اتصالات، لا علنية ولا سرية مع الإسرائيليين سواء كانوا من متطرّفي اليسار أو الذين لهم مواقف إيجابية بالنسبة للعالم العربي.

كلّ هذا يجب أن يخفّف من مستوى التفاؤل عند من لا يزالون يعتقدون

أنّ السلام ممكن في الشرق الأدنى، وبينما خلقت حرب الخليج أوضاعاً جديدة، وكذلك أكّدت الولايات المتحدة في بداية عام 1991 على اقتناص هذه الفرصة التاريخية التي برزت من أجل دفع عملية السلام، صرّح موشي أريـنـــز في العشرين من آذار -دون أن يبتسم- «أنّ الكنيست الإسرائيلي صوّت عام 1981 على قانون ضمّ الجولان، وإنّ -حكومة- إسرائيل ستحترم بكلّ دقة هذا القانون»؛ وحيث أنّ الأسد الذي لم (يهضم) أبداً خسارته لهضبة الجولان، لن يتصالح أبداً في هذا الموضوع. وكل المقربين منه يعرفون، رغم قلة حديثه عنه كم هو هام في فكره موضوع استعادة هذه الأراضي.

والتناقض في الأمر هو أنّ الأسد يحلم أن يترك ربما خلفه سورية وقد استعادت كامل أراضيها، لذا رضي أخيراً أن يبدأ مفاوضات مباشرة مع الدولة اليهودية، ويعرف الأسد جيداً في الواقع أنّه لن تقدر القوة، خلال حياته، أن تصل به إلى النتائج التي يرجوها، وكما سُمع منه ومن المقربين منه، يمكن الاعتقاد بأنّ المسألة الفلسطينية شكّلت دائماً أولى أولويات الأسد.

والواقع أنّ الأسد ورث المشكلة، وفي نظره أنّ ضياع الجولان كان بسبب أنّ المسؤولين الذين سبقوه، تصرّفوا في الأمر كهواة ومغامرين في موضوع توفير الدعم للقضية الفلسطينية. والرئيس السوري يعلم بالطبع أنّ مكانة بلاده في الشرق الأدنى ومكانته شخصياً في التاريخ مرتبطة بصورة وثيقة بنوع الحلّ الذي سيتم. ومع ذلك كل سياسته في الواقع منذ استلامه السلطة كانت السعي لِلضَبْط والسيطرة عن قرب على المقاومة الفلسطينية؛ إذ حاول مرّات عدّة أن يَتَسلّم زمامها بوضع وجوه صوريّة يحرّكها، أو إن لم يستطع، فبالتأثير

على خطّ سيرها. وسواء كان الأمر بسبب إخفاق في الكياسة اللازمة أو بسبب الشراسة التي استعملها، أو بكل بساطة لعدم فهمه لحركة المقاومة، لم يصل لمبتغاه، بل أصبح بدون منازع أكثر السياسين العرب المكروهين من الشعب الفلسطيني. واليوم يبدو أنّ الأسد لا يهمه كثيراً الشكل الذي سيكون، أو يحتمل أن يكون عليه الكيان الفلسطيني المستقبلي إذا لم يتعارض مع مخطّطاته ومع طموحاته.

هذه الجردة التي عرضناها في آخر المطاف قد تبعث على الابتسام لو أنّ حافظ الأسد لم يترك وراءه العديد من الجثث. الرجل الذي نجح خلال عشرين سنة من صراع القوى، في خلق فراغ من حوله، يبغضه شعبه السوري وتكرهه غالبية الشعب اللبناني، ويحقد عليه الفلسطينيون ويزدريه العرب لمساندته المستمرة للائتلاف الغربي المتحالف ضدّ العراق، ولم يبق له أبداً إلاّ حُكّام الدول البترولية في الخليج لمساندته مع المسؤولين الغربيين باعتباره "أهون الشرين". ونجاحاته القليلة في الاستقرار الاستثنائي لنظامه، وسلامُه المسلّح في لبنان يدين بهما للإرهاب الذي فرضَتْهُ قواته المسلّحة وعملاؤه (الأمنيّون) منذ عام 1970.

والمؤكد أنّ ذكاءه الحاد وقدرته على اغتنام الفرص ساعداه كثيراً على البقاء في السلطة وبلوغ، عام 1991، الرقم القياسي لطول حكمه بالنسبة لعديد الحكام الذين تعاقبوا على حكم سورية منذ بداية التاريخ الإسلامي فيها. ففي عام 1990 كانت مدّة حكمه أطول من الخليفة الأموي المشهور معاوية بن أبي سفيان (661-680م) وأطول من حكم الخلفاء الأمويين

الآخرين مثل عبدالملك بن مروان (685-705م)، وهشام بن عبدالملك (724-744). ويجب إبراز هذه الناحية في الجمهورية السورية التي تعاقب على حكمها عشرة رؤساء ما بين عام 1946 (عام الاستقلال) وعام 1970 عام استيلاء الأسد على الحكم.

... وتبقى مسألة خلافته؛ هل يفكّر فيها؟ إنّه يؤكد عدم التفكير فيها، فَهُناك دستور يحكم هذا الأمر، ومع ذلك فلقد برَزَت هذه المشكلة في شتاء عام 1983-1984 بعد الاضطرابات الصحيّة الشديدة التي عرّضت حياته للخطر، وكانت هذه الفترة امتحاناً مميّزاً، كشف صراع القوى المدهش داخل النظام الضعيف والهشاشة النسبية للرئيس. فأخوه رفعت الذي أُبعدَ عن حلبة السباق نحو خلافته بسبب طموحه القاتل وسوء إدارته اللامتناهية، جعل حافظ الأسد يلتفت إلى ابنه البكر باسل الذي قام بتربيته ليكون فعلاً ولياً للعهد. ومنذ عدة سنوات والفتى يطّلع ويدير أمور الدولة، فهل سمحت (النومانكلاتورا) السورية لهذا السيناريو الذي لا يمت كثيراً لحزب البعث، بالنجاح؟ الأمر ليس أكيداً أبداً.

على كلّ حال، الصراعات داخل العائلة العلوية التي ترتسم في الأفق وغياب أيّ بديل ذي مصداقية، لا تُدخل الاطمئنان للشعب السوري، فهذا الشعب الذي عانى أكثر من عشرين عاماً من الدكتاتورية قد يستمر لسنوات عدّة معرّضاً لهذه التجارب المرّة، قبل أن يجد مرّة أخرى الأبّهة والأنوار التي أضاءت بعض فترات تاريخه المميّز.

بـعض... المعالم...!

هدف هذا الكتاب كما هو واضح، ليس تقديم سورية للسياح المحتملين؛ ومن جغرافية سورية نذكر بإيجاز ما كتبه بكل نيّة سليمة (جان هورو) مؤلف دليل جيد جداً عن البلاد، بعنوان "المناظر والطبيعة بصورة عامة، رغم عدم خلوّها من ميّزات لا يمكن وصفها، مع استثناءات قليلة، بالفخمة والرفيعة والمهيبة".[1]

ومع ذلك فمن أجل القيام بجولة داخل النظام السياسي السوري من المفيد على الأقل، إن لم يكن من المحتّم، تثبيت بعض المعالم؛ وهي أنّ سورية، في الواقع رغم إنّها معروفة الآن أكثر مما كان عليه الأمر قبل عشرين سنة، لا تزال صورها في العالم الغربي بائسة يُرثى لها. فهذا البلد الذي لا يملك أيّ بترول بكميات تذكر، ومساحته 185.000كم²، لم يستطع حتى الادّعاء في أواخر الستينات بتصدير بعض أمراء الصحراء الذين ملأت —قبلاً– ملياراتهم المبذّرة أعمدة صحف الإثارة. وقبل عام 1967، وقبل الهزيمة المذلة لحرب الأيام الستّة، كان بضعة آلاف من الأوروبيين يسافرون كل عام عبر سورية من بيروت إلى القدس، وكانت أردنيّة آنذاك، وما كانوا يفوّتون الفرصة ليعطفوا طريقهم نحو تدمر أو التعريج على قلعة الحصن. وإذا ما شعروا، مرتبكين، بمصلحة وأهمية هذا البلد غير الآبه لترقية ماضيه الأسطوري، لم يقوموا هم أيضاً بالدعوة والترويج له، وبقيت سورية كما كانت، غير معروفة

عالمياً، وربّما كانت سعيدة بذلك... وبعد عشرين سنة، وفي أواخر الثمانينات لم يتبدّل شيء فيها؛ أقلّ من ثلاثين ألف ألماني غربي، وأكثر قليلاً من خمسة وعشرين ألف فرنسي زاروا سورية عام 1988، وبالمقابل توجّه في نفس العام ما يقرب من مئة وعشرين ألف إيراني —ولا يحظى هؤلاء بشعبية كبيرة هناك– للحج في دمشق وضواحيها.[2]

الحياة اليومية لأهل الحضر

كلّ المسافرين إلى سورية يتّفقون في القول على أنّ الذكاء هو من ضمن خِصال السوريين؛ فبرغم القرون الطويلة من الإخضاع بقيت لهم مبادرة مدهشة كما أنّهم يتمتّعون بسهولة فائقة على الفهم والإدراك. وعندهم أهلية طبيعية للتجارة، وهناك الآن العديد من التجار السوريين المقيمين في مرسيليا وليڤربول ومانشستر، بل هم أيضاً موجودون في أمريكا واسكندنافيا.

والأسطر القليلة التي دوّنها (إليزيه ريكلو)[3] عام (1884) لم تَفقد شيئاً من واقعيّتها. وأخطاء النظام الحالي الحاكم، وكلّ التجاوزات والجرائم التي ارتكبها بعض قادة النظام، يجب أن لا تُنسينا خصال الشعب السوري؛ ودود رزين، وحاذق عنيد، وشجاع. ومع ذلك، وفي الوقت الذي يستعيدون فيه تمسّكهم العميق بماضيهم، إلا أنّ السوريين ليسوا أقلّ تعلّقاً بحاضرهم إنْ لم يتطلعوا نحو المستقبل.

ودمشق التي تضاعف عدد سكانها خمس مرات في السنوات الثلاثين الماضية ليبلغ تقريباً ثلاثة ملايين مواطن، تشبه مدينة كبيرة من مدن جنوب

أوروبا أكثر مما تشبه عاصمة شرقية خامدة وسخة. فهنا لا توجد (مدن الصفيح) كما هو الأمر في القاهرة وبيروت، والفقراء لهم حصتهم من أرصفة الإسمنت، ولا يتردّدون في إيصال الكهرباء إليهم بصورة غير قانونية من خطوط الكهرباء العامة -في الشوارع- ومهما كان الحال، يتحمل دفْع فواتير الكهرباء المستهلكة هكذا، من هم أحسن حالاً في إطار إعادة توزيع الثروة، وتُحسب هذه الطريقة رسمية تماماً لدى وزارة الطاقة.

والحال هو أنّ واحداً فقط من كل ثلاثة دمشقيين -وَيَنْسَحِبُ الأمر تقريباً على سكان المدن الأخرى الكبيرة مثل حلب وحمص- يستفيد حقيقة من البنية التحتية للعاصمة؛ الماء والكهرباء والمدارس والكليات والجامعات، والمستوصفات الطبية والمشافي...الخ. والآخرون، وهم بصورة عامّة من الريفيين الفلاحين، الذين قدموا حديثاً من قراهم وحلّوا حول المركز العصري حَسْب شبكة كثيرة الألوان.

ففي الجنوب نجد الحوارنة -أهل حوران- ليس بعيداً عن مخيم اليرموك للفلسطينيين. وفي الشمال في (عشّ الدروز) نرى الذين قدموا من اللاذقية وطرطوس وحمص، حيث استقرّ العلويون من القوات الخاصة و(الحرس الجمهوري للنظام الحاكم). وفي الشرق انغرس بقوة في القنيطرة الجديدة - وهي اسم المدينة الجولانية التي محاها الإسرائيليون تماماً بعد حزيران 1967- سبعون ألف لاجئ من الجولان. وفي الجنوب الشرقي هناك ما يقارب النصف مليون من الدروز والحوارنة وفقراء من مختلف الأصول تجمّعوا في حيّ الطبّالة.

وبطريقة غير متوقعة، يقدّر الخبراء أنّ نصف المليونين الاثنين اللذين يُشكلان مجموع هؤلاء (المهمَّشين) يمتلكون مساكنهم. والنصف الآخر – مليون نسمة– يستأجرون غرفة واحدة يعيش فيها وسطياً أربعة أشخاص ويدفعون شهرياً إيجارها ما بين 500–700 ليرة سورية أي ما يعادل 60–90 فرنك فرنسي.(4)

ويتألف غذاؤهم أساساً من الفول والحمّص والبرغل واللوبياء المجفّفة، والعدس والقليل من لحم الطيور الدواجن–كالدجاج، وكلّ ذلك يأتيهم في حالات كثيرة، من أهلهم الذين بقوا في القرى. أما البطالة فنسبتها مُرتفعة؛ والذين يعملون هم صغار الموظفين في حراسة أملاك الناس الأغنياء أو حماية هؤلاء الأغنياء أو العمل في بيوقم كخدم. والصراعات هناك كثيرة بسبب الاختلاط والتشوش، وليس من النادر أن يكون أربعون شخصاً متقاسمين استعمال بيت خلاء واحد وحمام واحد.

هذه هي أماكن المعارضة وأبرزها الإخوان المسلمون، الذين يستعيدون بحذر منذ أعوام قليلة قواهم؛ هذه الضواحي المحزنة وهذه الأحياء البعيدة في الأطراف هي أيضاً حوض سمك للسلطة التي يصطاد فيه عملاء أجهزة مخابراتها بخاصة من يأمل بالخروج من حياته البائسة. ويمكن بسهولة، تصوّر مناخ الشك والريبة والشبهات الذي يحكم المكان.

وخلال ربع القرن الأخير، ارتفعت تكاليف المعيشة رغم ثبات الليرة السورية، ففي عام 1975 كان الموظف العادي يقبض راتباً شهرياً يساوي

300 ليرة، وكان بإمكانه أن يشتري بها آنذاك 65 كيلوغراماً من لحم الضأن، وفي عام 1990 يقبض الموظف بنفس تلك الرتبة والوظيفة والقِدَم 2500 ليرة سورية شهرياً (أي ما يعادل 300 فرنك فرنسي) يستطيع أن يشتري بها فقط 20 كيلو من لحم الضأن -إذا وجدها في السوق- كذلك في بداية سنوات الستينات، كان ثمن كيلو الخبز 35 قرشاً. واليوم على الشخص أن يدفع اثني عشر ضعفاً -أي أكثر من أربع ليرات- وهنا أيضاً يلاحظ أنّ قوّته الشرائية قد ضعُفت دون أن نحسب الوقت الضائع -نصف ساعة إلى ساعة كاملة- لوقوفه في الصف -حتى يحصل على الخبز- وبذة الرجال الأنيقة الصنع كانت تكلّف الشخص 300 ليرة سورية قبل خمسة عشر عاماً، وثمنها الآن -عام 1990- 1500 ليرة سورية.

نظرياً يستفيد الموظفون والعمال من التأمينات الاجتماعية، ولكن التأخير الطويل الذي يمر لكي يحصلوا على موعد المقابلة والخدمات التي تتحكّمُ بها الصدف إلى حدٍ كبير، يجعل الكثيرين يتحولون إلى القطاع الخاص حيث ارتفع ثمن الاستشارة الطبية لدى طبيب ماهر من عشر ليرات إلى مئتي ليرة خلال السنوات العشر الأخيرة! وعلى هذا الإيقاع يتخوّف الكثيرون من أن تغيب الاستشارات كلياً بعد سنوات قليلة. وبالفعل فأزمة المساكن تجعل موضوع افتتاح عيادة خاصّة للطبيب أمراً باهظ الثمن، وبالنسبة لطبيب أخصائي شاب يحتاج افتتاح العيادة لمصاريف تبلغ، في حدّها الأدنى، مليونين من الليرات. ويلاحظ في هذا الموضوع أنّ عدد الأطباء السوريين العاملين في الخارج (آلاف في ألمانيا الاتحادية، ومئات في فرنسا) أكثر من العاملين في بلادهم ذاتها (8146

طبيباً عام 1986، وحوالي عشرة آلاف آخر عام 1989).[5]

هذا أمر صعب الاحتمال لدى الناس العاديين البسطاء، أمّا بالنسبة للصفْوَةِ المتعلّمة المثقفة فيكاد الأمر لا يُحتمل. لنأخذ مثلاً حالة (نــــزار) -29 عاماً- الذي أنهى قبل فترة قصيرة دراساته العليا في فرنسا، ونال شهادة دكتوراه دولة، راتبه الشهري (1555) ليرة سورية، وإيجار غرفة بسيطة في قلب دمشق يتراوح ما بين 1000 و 1200 ليرة شهرياً.

مثل آخر حالة (سمير)، عاد لوطنه في بداية الثمانينات بعد دراسة دامت عشر سنوات في فرنسا، ونال شهادة دكتوراه دولة في الهندسة المدنية، وعزم على العمل في وطنه، دون أن يسمح للفساد الدخول إلى عالمه الشخصي؛ والنتيجة بعد خمس سنوات وجد نفسه في ذيل القافلة يعيش عند أهله، إذ لا يملك مالاً يستأجر به استديو (غرفة صغيرة)، فضلاً عن التفكير في الزواج؛ وجاءه في أحد الأيام (ضابط كبير) إلى كليّة العلوم حيث يدرّس، وطلب منه أن يساعد ابنه الطالب على اجتياز الفحص النهائي، وقال له إنّه على استعداد لدفع المبلغ اللازم لذلك. فرفض سمير مبدئياً ما طلب، ولكن بعد إلحاح وتهديد الضابط اقترح أن يُعطي هذا الطالب دروساً خصوصية بالمجان، بعد عدّة أسابيع لاحظ ابن الضابط أنّه ليس لسمير وعائلته هاتف في البيت مع أنّهم تقدّموا بطلب للحصول عليه منذ زمن طويل، فأبلغ والده وخلال ثمان وأربعين ساعة أُدخل الهاتف إلى بيت سمير؛ وشعر أنّه وقع في الفخ! وبدأ يكتب لأصدقائه السوريين في فرنسا إنّه يحلم بالعودة والالتحاق بهم...[6]

واخترع السوريون لمثل هذا السلوك كلمة (أخْوَتْ) -معتوه-، الفنان السوري الفَكِه دريد لحام يستعمل تعبير (أجدب) الذي يعني تقريباً نفس الشيء، أي بتعبير آخر الرجل الشريف الأمين يُعتبر اليوم في سورية... (أبلهاً) غبيّاً...!

والحقيقة أنّ (نـــزار) و(سمير) —وآلاف غيرهم مثلهم— لهم الاختيار بين احتمالات ثلاث: أ- التفتيش عن عمل إضافي، ب- الهجرة، ج- السرقة والاختلاس. ونتيجة لهذه الحالة غادر مليونان من السوريين بلادهم منذ عشر سنوات. والرئيس الأسد نفسه اعتقد أنّ باستطاعته الإعلان عام 1989 أنّ في سورية فائض ثلاثة ملايين مواطن أكثر من اللزوم، وهذا كلام يعني الكثير عن (قدرة) النظام على تحمّل مسؤولياته![7]

والنقليات العامّة ليست مقسّمة بأسلوب أفضل، فمن أَلْفِ (باص) كانت تعمل في العاصمة في بداية الثمانينات، مئة وخمسون منها فقط كانت لا تزال صالحة للاستعمال في بداية عام 1990، بسبب نقص القطع النادر لشراء قطع الغيار والتبديل. وخلال هذه الفترة، كان الركّاب ينتظرون بمعدل (خمس دقائق إلى 45 دقيقة —على المحطّات— ويمكننا رؤية عشرات الألوف الآن من الناس الراجلين في المدينة.

والسيارات الخاصة ليست في متناول عامّة الناس كذلك. وسيارة (المازدا 929) سيارة يابانية صغيرة، مرغوبة كثيراً، كان ثمنها في أواخر الثمانينات أكثر بقليل من مئة ألف ليرة سورية أي ما يوازي راتب خمسة عشر عاماً

لأدنى الأُجراء. –640 ليرة سورية في بداية التسعينات– وللمقارنة لنتذكّر أنّ في أوروبا الغربية ثمن سيارة صغيرة يعادل راتب عام واحد لأدنى أجير.

والغريب أنّه رغم كلّ الصعوبات الحياتية هذه وعدم المساواة الصارخة يبقى الجنوح الخاص بين الفتية –هامشياً إلى حدٍ ما، وعدد الرعاع ليس كبيراً، وفي عام 1988، أكثر من ثلاثين صيدلية تعرّضت للسرقة في نفس الوقت تقريباً، بدمشق مما أثار الخواطر كثيراً. والكثير من الناس فكّر رأساً في موضوع المخدرات، إلا أنّ همّ السارقين كان مركزاً على صندوق المال–الخزانة–!

وفيما يتعلّق بجرائم الحق العام، أظهرت الإحصاءات الرسمية أرقاماً معقولة: (574) جريمة قتل ومحاولة قتل عام 1985، (وهي آخر الأرقام المنشورة). بمقابل 553 عام 1981، و2226 جريمة سرقة مقابل (1809)، و(76) جنحة مقابل (35). ومن الواضح أنّ هذه الأرقام لا تشمل التصرّفات السيئة للنومانْكلاتورا السورية (أعضاء الحزب المتنفذون ومراكز القوى ومن لَفّ لَفّهُم) والتي تتعلق بالجريمة السياسية، وليس لهذه دائماً حسابات دقيقة.

أمّا ما يخص جرائم الحق العام فلا تتردّد الصحافة السورية في بعض الحالات، وحسب الإعلام السياسي الموجّه الذي ليس له أيّ صفة منطقية، من ذكْر العديد منها، لذا في الثامن من شباط 1990 نشرت جريدة الثورة، وهي صحيفة رسمية، عن هجوم مسلّح قامت به فتاتان على دكّان لبيع الحلي والمجوهرات في قلب دمشق إحداهما تحمل بيدها مسدساً، وهدّدتا صاحب المحل الذي صرخ طالباً النجدة فهربت الفتاتان. وفي الطريق أطلقتا النار على

أول تاكسي إذ رفض التوقف لهما، وبعدها استقلا سيارة تاكسي أخرى بعدما أطلقا النار على شاب كان يلاحقهما فجرحاه في كتفه، ولا زالت الفتاتان هاربتين.

لم يصل الأمر على ضفاف بَردَى بعد، طبعاً، إلى حدود ما يجري في شيكاغو، ولكن مثل هذه الواقعة رغم إنّها من الاستثناء سواء في المجتمعات السورية أو أغلب المجتمعات العربية، يصوّر باكراً ماذا يمكن أن يحدث بعد عدّة سنوات في المدن العربية التي حدثت التنمية في أغلبيتها بأسلوب فوضوي تماماً.

أهمية القطاع الريفي:

إذا لم يكن هناك أي سبب للابتهاج في حياة غالبية أهل المدن، فليس لدى أهل الريف أبداً، وهم الذين يمثلون دائماً نصف مجموع السكان، أيّ سبب ليحسدوهم، ومع ذلك وجّه حافظ الأسد اهتماماً خاصاً ولمدّة طويلة للريفيين، ربّما لأنّه يتذكّر دائماً أنّه هو نفسه من عائلة ريفية.

«ثورة آذار وضعت المسألة الزراعية في رأس قائمة اهتماماتها، وهدف الثورة الزراعية هو السماح لبلدنا أن يصل إلى حدّ الاكتفاء الذاتي... في الإنتاج-! فالثورة أرادت تحرير المزارعين الفلاحين من مئات السنين من الاستغلال بإعطائهم مسؤولية إدارة مصالحهم الخاصة (...) ففي شعبنا العربي كان الفلاحون دائماً الصخرة التي تحطّم عليها كلّ عدوان!!»...[8]

على كلّ حال، هذه الدعاوى المُزهِرة للرئيس السوري نجد تفسيراً لها في الأهمية العددية للفلاحين السوريين الذين مَثّلوا، حتى السنوات الأخيرة نصف

السكان تقريباً، ومن الواضح أنّه من المستحيل تجاوز مثل هذه الشريحة الاجتماعية.

ولكن بالإضافة إلى ثقل وزن الفلاحين في المجتمع السوري، فلقد أظهر الأسد نفسه كبعثي، أنّه ملتزم بتوجيه الاهتمام لهم. وحزب البعث في الواقع، منذ بداياته استند تقليدياً على الأرياف، وبفضل نشاط بعض مناضليه وإطاراته البارزة، نجح في التجذّر بقوة في الريف، وَرَقّى اجتماعياً –بالمقابل– العديد من شباب الريف.(9) ومنذ وصوله للسلطة استفاد الأسد من ورقتين رابحتين الإصلاح الزراعي الذي حصل مِنْ قَبْل، وأخطاء سابقيه.

وبداية عام 1971، كانت الإصلاحات الزراعية قد انتهت بصورة عملية –مع استثناء موضوع السدّ الكبير على نهر الفرات– فلقد شرعوا فيه بداية الخمسينات وتابعوه خلال فترة الجمهورية العربية المتحدة، ثمّ الانفصال وأخيراً في عهد حكم البعث من عام 1963 إلى عام 1970. فأضعفوا به الوزن –السياسي– لكبار الملاّك واستفاد منه مزارعو الطبقة الوسطى، وبدرجة أقلّ صغار المزارعين، أو الذين لا يملكون شيئاً من الأرض.

وهكذا، في عام 1960، كان واحد بالمئة من السكان يملكون خمسين بالمئة من الأراضي الصالحة للزراعة، بينما 70٪ من الفلاحين لا يملكون شيئاً. وفي أواخر الثمانينات بقي تقريباً ثلث الفلاحين بدون ملكية زراعية.(10) بينما كان لدى 14٪ من السكّان 60٪ من الأراضي. ولقد أشار الخبير الأمريكي جون دِفْلن بحقّ إلى هذا الموضوع، ذاكراً أنّ غِنَى هذه الشريحة من الطبقة الوسطى

-14٪- تزامن مع بروز عناصر عدّة جديدة على المسرح السياسي نتيجة لذلك.[11]

وبينما خُصّصت ثلثا الأرض المستثمرة الآن لزراعة القمح والشعير، فسورية، ذات نِسْبَةٍ ديموغرافية مرتفعة، وتواجه الآن صعوبات متزايدة كلّ عام للإبقاء على مستوى إنتاجها، وتضّطر لاستيراد كلّ سنة -ما عدا في سنة مواسم استثنائية جيدة- كميات كبيرةٍ من الخارج وبخاصة من دول الاتحاد الأوروبي.

ومن الأمور المهمّة ملاحظة أنّه بين عام 1963 و1978 تقلّصت مساحة الأرض المزروعة من 3.8 إلى 3.2 مليون هكتار في الوقت الذي تضاعف فيه في الواقع عدد السكان. وبما أنّ أرباح الإنتاج لم تكن الهمّ الأساسي للنظام، فلقد تحوّلت سورية في تلك الفترة من مصدّرة واضحة إلى مستوردة للمواد الغذائية الأساسية.

ولم ينتظر الفلاحون المعدمون طويلاً لاستخلاص الدروس والعبر من (الثورة الزراعية)، ومنذ بداية السبعينات هاجروا بصورة جماعية إلى المدن، بينما فتّش عشرات الألوف الآخرين عن عمل في شبه الجزيرة العربية حيث كان الازدهار البترولي في أوْجه.

والمعدمون من العلويّين -الطائفة ذات المليون ونصف المليون نسمة التي جاء منها الرئيس الأسد- تحوّلوا بدورهم نحو الجيش، وهكذا جاؤوا -ويا للمفارقة- لتقوية جهاز القمع.

ومنذ عدّة سنوات كانت صناديق الدولة في الواقع فارغة، ولم يكن باستطاعة البلد أن يشتري الأسمدة التي يحتاجها، أو قطع الغيار التي لا غنى عنها من أجل صيانة الآلات الزراعية، وهكذا لم يكن من النادر أن يعمد المزارعون السوريون المجاورون للحدود الأردنية إلى الطلب من أبناء عمومتهم من التابعية الأردنية الهاشمية لمدّهم سراً بالآلات والتراكتورات من أجل الحصاد.

والعواقب الإيجابية لحرب الخليج على سورية أدّت إلى تحسّن الحال في هذا المجال أيضاً. والأسد الذي لم يتحمل عبء الإصلاحات الزراعية، استفاد أيضاً من الأخطاء النفسيّة التي اقترفها فريق سَلَفه "صلاح جديد" في الزراعة التعاونية، حيث أشرك الفلاح بأسهم في التعاونيات، ولكن دون أن يصبح كما كان يأمل حقاً، مالكاً لقطعة أرض. وكان من النتائج الفورية لذلك هبوط في الإنتاج الزراعي، وهذه النظرة السلطوية، وهذا الانقطاع القاسي عن التقاليد التي مارسها الفلاحون السوريون أدّى إلى نتائج مدمّرة.

واستغلّ الأسد الفرصة جيداً لتطبيق أفكاره في قطاع عام ممتزج بانسجام مع القطاع الخاص، لذا سيستفيد الملاّك المستقلّون من نفس الأوضاع التي يتمتع بها أعضاء التعاونيات، دون أن يخضعوا لقوانينها. "وربما كان هذا الحال هو أحد عوامل عدم الرضى الذي يُلاحظ في التعاونيات"، وهذا ما لاحظه فرنسوا متران[13] عام 1980م.

ومع ذلك، ورغم أنّ التعاونيات لم تَضُمّ إلا ربع عدد الفلاحين السوريين (300.000 من 1.200.000) فلقد سمحت، بخاصة لأطُرِها الإدارية بفرض

رقابة مؤثرة ودائمة على الريفيين. وكونهم موظفين للدولة، كان مدير التعاونية ومساعدوه، في غالب الأحيان، أعضاء في حزب البعث الحاكم، أما بقيّة الفلاحين، فلقد كانوا أيضاً مراقَبين مراقبة شديدة.

ولم يبتكر حافظ الأسد شيئاً جديداً في هذا الميدان، بل اكتفى بتزيين طريقة وُضعتْ لحزب البعث منذ عام 1946، فالحزب شرّع آنذاك لمنظّمة نقابيّة قويّة: الاتحاد الوطني للفلاحين. وكان الحزب أميناً على انشغاله الأول بمراقبة كلّ شيء وكل الناس، إلا أنّه احتاج إلى خمس سنوات قبل الوصول إلى آخر المطاف مع العناصر الراديكالية وبعض الديموقراطيين الأصليين، الذين رفضوا أن يكونوا فقط أبواقاً للسلطة. ومنذ عام 1970 وإلى يومنا هذا كان ممثلو الاتحاد الوطني للفلاحين حاضرين في أجهزة الدولة التي يخدمونها بطاعة وانقياد.

وهكذا يدفع الفلاّح السوري غالياً ثمن الفوائد التي سمحت له الدولة بها، فهي تحدّد أيضاً مستوى الإنتاج وثمن المبيعات، ولا يستطيع الشكوى من رجال الحزب الذين استلموا كلّ المراكز الاستراتيجية، وكلّهم لهم سلطة القيام بدور الوسيط بين المجتمع الفلاّحي والمجتمع العام".[14] وإخلاص العديد من الموظفين بدءاً من المهندسين الزراعيين أو التقنيين الزراعيين لا يغيّر شيئاً داخل هذه المسألة؛ فمن المحتَّم في هذه الأوضاع قيام علاقات (زبائنيَّة) —كما يقال- بسرعة، ومع الأزمة الاقتصادية في أواخر السبعينات نما الفساد بسرعة أيضاً، إذ كان حتى ذلك الوقت كامناً، والفوضى وما ينتج عنها من تبذير وصلت بمرور السنين إلى مستوى —بحيث تبتعد شيئاً فشيئاً الأهداف في الاكتفاء الذاتي. «ومع الإقطاعيين الكبار في الماضي القريب كان صغار

الفلاّحين يموتون جوعاً بينما كان الشعب يأكل بشراهة، أمّا اليوم فلقد اغتنى الفلاحون لكن الشعب جائع»، هذا ما اكتشفه وريث عائلة كبيرة حطّمتها الإصلاحات الزراعية، ووجَدَ العديد من أفرادها ملجأهم في فرنسا.

التباس السياسة الزراعية في سورية

مشكلة الماء —وهي أساسيّة في سورية– وبخاصة المشاريع الهيدروليكية–، توفّر مثلاً متميّزاً لالتباس السياسة الزراعية للنظام. كلّ شيء يدور في الواقع حول نهر الفرات، وبناء السد في (الطبْقة) على مسافة أقلّ من مئتي كيلومتر شرق مدينة حلب. أُنْجِزَ عام 1976 بمساعدة مالية وفنّية من الاتحاد السوفيتي؛ وهذا العمل الهائل كان له أهداف ثلاثة أوّلها: تنظيم فروع النهر، وإنتاج قدرات كهربائية كثيرة، وريّ ما يقرب من 650.000 هكتار من الأراضي الزراعية. هذا المشروع الذي يهمّ ما يقرب من نصف أراضي سورية وحوالي 40٪ من سكانها، يجهله الغرب إلى حدّ كبير، مع أنّه يماثل سدّ أسوان بالنسبة لمصر.

ويلاحظ منذ ذلك الحين أنّ هذا المشروع أثار عواطف جامحة في سورية أوجزها أخصائي بعِلْمِ السلالات (جان هَنّويرْ) "بموقفين متباعدين"، فالمسؤولون في السلطة يتحدثون عن العمل في هذا المشروع أنّ له أهدافاً وفوائد مجتمعية اشتراكية واستقلالاً غذائياً ووطنياً؛ وبعكس ذلك المواقف المتطرفة المعارضة والتي يتبناها جزء كبير من الشعب، بل وفي الإدارة وتتحدّث عن الرسميين الذين يقزّمون المشاريع الكبرى بالقول أنّها من أجل الدعاية، بل هي نوع من الهروب إلى الأمام، أوْ نهْبٌ منظّم من قبل الدولة للمصادر في البَلَد.(15)

ومهما يكن من أمر فبناء السدّ قلب البلد رأساً على عقب، ومنطقة الفرات التي بقيت لمدّة طويلة هامشية في حياة سورية يَقَعُ أحد ساقيها بين حلب والبحر المتوسّط من جهة، والساق الثانية في بلاد ما بين النهرين والعراق من جهة أخرى، وهذه المنطقة قد تُنشئ محوراً جديداً من الشرق إلى الغرب ينافس بصورة متزايدة محورَيْ الشمال والجنوب -حلب دمشق-. فالتجارة التقليدية التي شهّرت هذين القطبين في الصناعة الحرفيّة والمنتجات التقليدية السورية تُستبدل تدريجياً بقطب ثالث هو الزراعة والطاقة، ويعتمد عليها مستقبل البلد إلى حدّ كبير. ونجد هنا إلى حدٍ ما الإيديولوجية الكامنة للعديد من البعثيين المعادية لأهل المدن، وظهرت كوابِحُ شديدة لعجلة تنمية هذا القطب الثالث بسبب كلّ عاهات النظام التي أدّت مجتمعة لتخطيط ناقص قاد هذه العملية إلى الفشل تقريباً.

ومن مظاهر الزبائنية المجردة السرعة الشديدة في اختراق المصالح القبلية العشائرية لاتحاد الفلاحين ولحزب البعث نفسه. وكما يلاحظ (هنُّوير) (Hannoyer) فإنّ الفئات الأكثر نفوذاً والقادرة على فرض حمايتها المحلية التي لم تستطع الدولة توفيرها، هي التي سيطرت في النهاية.[16] وبسبب عدم كفاءتها في تطبيق أفكار الحزب، بل وتسخر منها بشكل شبه علني، فضّلت (النومانكلاتورا) السورية تشكيل شبكة من الزبائن مع كل ما يصاحب ذلك من فساد وانتهازية. وبعدما استقروا جيّداً في جهاز الدولة احتفلت العشائر والفئات المتنفذة بظفرها مستأثرة دون غيرها ببعض الترتيبات التي أنجزت لمصلحتها فقط؛ أمّا صغار الفلاحين الذين وُعدوا بمستقبل مشرق، فهم يشكلون اليوم مصدراً هاماً

للتجنيد في الجيش! وكان هذا هو قمة التناقض، فالمشروع العملاق الذي كان من المفروض أن يوفّر أراضي جيدة لعشرات الآلاف من الفلاحين، وفّر لهم على العكس مناسبة ليتركوا نهائياً العمل غير المجْزي في الريف.

وفي مواجهة هذه الهاوية المالية -في عشر سنوات من 1972 إلى 1982، ارتفع تخمين سعر الهكتار من الأرض من 12000 ليرة إلى 100.000 مئة ألف ليرة- ودارت السلطات السورية حول نفسها في حلقة مفرغة، فيما عمد الموظفون للواسطات حتى يتحاشوا العقوبات وشكَتْ الصحافة الرسمية من ضياع المليارات من الليرات. وفي بداية عام 1990، لم يكن لدى الغالبية العظمى لمئة وعشرين ألف ساكن في (الطبقة) قرب السد (سد الطبقة)، ويعرف اليوم بتسميته الرائجة -سد الثورة- لم يكن لديهم كهرباء! ومن مجموع 460.000 ألف هكتار كان من المفترض أن يتم استصلاحها في العام 2000 كان هناك تقريباً 90 ألف هكتار مستصلح عام 1990، وعلى الوتيرة الحالية في الاستصلاح -خمسة آلاف بالسنة- لن يُنجز الأمر مطلقاً عام 2000. وإذا أضَفنا لذلك ملوحة التربة والمشاكل الأخرى، التي يسببها سَدّ أتاتورك في جنوب شرق تركيا[17]، قد تتعرّض سورية لخيبات أمل جدّية شديدة. ويلاحظ أنّ وزير الكهرباء في سورية (كمال البابا) أكّد في آذار 1990، معتمداً على تقديرات احتياطي الغاز الطبيعي، -على الأقل 400 مليار متر مكعّب- أنّ بلاده ستنتج في السنوات القليلة القادمة ثلاثة أرباع حاجتها من الطاقة الكهربائية من الغاز، بينما عام 1988، كان 54٪ من الطاقة الكهربائية يأتي من أصول هيدروليكية -مشاريع مياه- نصفها تقريباً من سد

الثورة. وليس هناك أيّ شكّ أنّ سورية ستصبح، بعد إنجاز سدّ تشرين، الأدنى من سدّ الثورة وسد البعث الأعلى منه، مصدِّرة للطاقة الكهربائية. وسيكون باستطاعتها —باستثناء سنوات الشتاء القليلة المطر في تركيا حيث ينبع الفرات— ريّ مساحات شاسعة.

والآن حيث تُربك الإدارة المنكوبة والمشلولة بفساد مدرائها لم يحظ هذا النظام إلا بفائدة واحدة، وهي نجاحه بمنع ظهور طبقة اجتماعية قد تهدّد احتكاره للسياسة وللتنمية. وهذه نتيجة مشكوك في فائدتها، إذا اعتقدنا بما يقوله (جان هنّوير)، "ويمكن للمشاريع المائية أن تبدو وسيلة السلطة للاحتفاظ بسيطرتها السياسية على التنمية في الوقت الذي تزيد فيه الإنتاج. —ربّما— لا يفيد هذا إلا في كشف هشاشة هذين الأمرين —السيطرة السياسية وزيادة الإنتاج".[18]

"إنّ نضالنا في الجمهورية العربية السورية من أجل تحرير أرضنا الجولان، يترافق مع جهودنا من أجل زيادة نمائنا الاقتصادي. والتقدّم في القطاع الصناعي والزراعي، ينمّي قدرتنا على مواجهة التحدّيات، ودفْع العدوان وتحرير أرضنا واستعادة حقوقنا. وبفضل شعبنا ومجهوداته، وتخطيطنا الجيد نجحنا في أسوأ الظروف بالسير في طريق النمو الاقتصادي، وتحقيق إنجازات كبيرة. ففي داخل بلدنا كان التغيير مُعتبراً، ونتيجة الجهود العملاقة التي شملت جميع مناحي الحياة: الصناعة والزراعة والتجارة والتعليم والدفاع".[19]

هذا موجز من خطاب حافظ الأسد بعد إعادة انتخابه (الظافرة) كرئيس للدولة في العاشر من شباط 1985، وتشهد هذه الأسطر القليلة —وهذا أقلّ ما

يمكن قوله- على تفاؤل شديد. طبعاً، لقد سبق وعَرضنا المشهد الاقتصادي السوري، فالزراعة مشوّشة مضطربة، ولقد تمدّدت المدن الكبيرة بشكل غير محدود، ونمت الفنادق ذات المستوى الدولي كالفطر، والمعتقلون السياسيون خلف القضبان من السبعينات، من الصعب تعدادُهم، بلْه إيجادهم بعد عشر سنوات أو خمس عشر سنة، وليس الأمر دائماً في تحسّن.

ولقد فقدت دمشق وحلب، بدون أيّ جدال، جاذبيتهما القديمة والتي كانت طابعهما قبل رغبة الدخول بأيّ ثمن جَوَّ الحداثة الغربية. ومن كلّ إنجازات النظام كان النجاح الذي لا يُنكر في إقامة شبكة طرق تمدّد طولها خلال حكم الأسد أربعة أضعاف ما كانت عليه، لتبلغ 22000 ألف كيلومتر عام 1990. وعلى مستوى البنية التحتيّة، يلاحظ تمديد الشبكة الكهربائية لكلّ القرى التي يسكنها أكثر من مئة شخص. بينما في عام 1960 كان التنوير الاصطناعي -الكهرباء- غير معروف إلى حد ما في الأرياف.

والصحيح أنّ تحريك هذا الموضوع بدأ في أوائل الستينات بواسطة رئيس الوزراء -آنذاك- خالد العظم "المليادرير الأحمر"، وبعد ذلك في عام 1978، وبعد مرور ثماني سنوات على استلام الأسد السلطة، أشبعت الصحف الرسمية -الحكومية- هذا الموضوع ذكراً معلنة أنّ الكهرباء تزود للقرى بمعدل قرية كلّ يوم. ولكن بعد أقل من عشر سنوات على هذا التاريخ 1978 وحتى عام 1990، عاد تقنين التيار الكهربائي بسبب نقص في تمويل شراء البترول اللازم للمفاعلات الكهربائية. ولكن الاكتشافات البترولية الهامّة الحديثة في الصحراء السورية -بخاصة عن طريق الشركات الفرنسية

العاملة هناك- سمحت بتحسين إنتاج الطاقة الكهربائية وعاد تزويد البلاد بالكهرباء إلى وضعه السابق.

وهناك تقدّم لا يمكن إنكاره -في أرقام الإحصائيات على كل حال- فيما يخصّ نسبة التلاميذ والطلاب، وفي عشرين سنة من 1963-1983 ارتفع عدد الأطفال المسجّلين في المدارس من 750.000 إلى ما يقرب من 2.700.000 مليونين، في الوقت الذي تضاعف فيه عدد سكان سورية من خمسة ملايين إلى عشرة ملايين. وتجاوز عدد التلاميذ والطلاب في الدراسات الابتدائية والمتوسطة والثانوية، في العام الدراسي 1988-1989، ثلاثة ملايين.[20] وكان التقدّم الأبرز في أعداد الطلاّب الثانويين بسبب زيادة عدد الثانويات إلى ستة أضعاف عددها السابق -قبل ثلاثين سنة-، وزاد عدد الطلاب الثانويّين عشرة أضعاف ليصل إلى 250.000 -ربع مليون- واستفادت الفتيات بصورة خاصة من مجهودات الدولة إذْ أصبحت نسبتهن اليوم 40٪ من مجموع طلاب الثانوي، فيما كانت النسبة 20٪ في أوائل الستينات.

أمّا عدد الطلاب الجامعيين، فلقد زاد أكثر من الضعف منذ السبعينات، إذ ارتفع من 60.000 ألف، إلى 136.000 ألفاً عام 1989 في الجامعات الأربعة. ولقد فسدت جامعة اللاذقية في قلب العلويين بصورة خاصة إذ قارب عدد الطلاب الـ 15.000، وبصورة عامة، ومع أنّ الفساد طال المحيط الجامعي وفقدت الجامعات حصانتها وامتلأت بالجواسيس والمخبرين، فإنّ مستوى التعليم العالي بقيَ مناسباً في أواخر الثمانينات، ولكن حوادث الفشل والإخفاقات لم تكن أقل عدداً. وهكذا بقي الهاتف عام 1990 سلعة نادرة

تقريباً مثلما كان الأمر عام 1980، أكثر من نصف مليون مشترك بقليل، بينما كان عدد المشتركين 400.000 أربع مئة ألف، نصفهم في دمشق. هل هو إهمال أو ارتياب من المواطنين؟

ولكن الأهم أنّ البلاد لم تخرج بعد من الأزمة الاقتصادية التي حلّت بها في بداية الثمانينات، والتي ظهرت طلائعها في النصف الثاني من العقد السابق، مع دخول القوات السورية إلى لبنان، والتوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد. وبعد ما عرف عقد السبعينات نسبة نمو اقتصادي بلغ 10٪ حسب بيانات البنك الدولي، وأدّى إلى ارتفاع متوسط دخْل الفرد من 400 دولار إلى 1500 دولار في العام،[21] عرفت سورية استنقاعات في الإنتاج ثم الانخفاض الثابت في أسعاره؛ كذلك هبط بدوره متوسط دخْل الفرد، ليصل بالكاد، عام 1990، إلى 1200 دولار.[22]

والواقع أنّ سورية استفادت في السبعينات من ارتفاع أسعار البترول، وسمحت لها الاكتشافات البترولية الهامة في ذلك الوقت بزيادة إنتاجها عشرة أضعاف -من مليون إلى عشرة ملايين طن بين عامي 1968 و1980، وبانخفاض أسعار النفط في السوق العالمية، عانت سورية ضربة مباشرة في هذه الأزمة، فنفطها الخام ثقيل جداً، ولا يمكن تصديره إلا بمزجه بنفط أخف منه يستورد بالطبع بالقطع النادر. وهكذا كانت عائدات البترول السوري المصدّر عام 1987 أقل من 350 مليون دولار، وهذا الدخل هو أقل بكثير ممّا كان عليه عام 1977، حوالي مليار دولار. واكتشاف حقول بترولية جديدة في منطقة ديرالزور من نوعية ممتازة تقلب رأساً معطيات المسألة من جديد. وبحسب رأي

وزير النفط السوري (أنطانيوس حبيب) فإن 840 مليون دولار دخلت خزينة الدولة عام 1989 بسبب هذه (الهبة السماوية) غير المنتظرة. ومهما كان المبلغ متواضعاً، فلقد سمح هذا الارتفاع المفاجئ في أسعار النفط، لسورية بتسجيل فائض في الميزان التجاري لأوّل مرة —عام 1989– منذ خمسة عشر عاماً، يزيد عن عشرة مليارات ليرة سورية —حوالي 900 مليون دولار بالسعر الرسمي. والواقع أنّ هذا الفائض قد يعود أيضاً للخطوات التي اتخذها حكومة محمود الزعبي للحدّ من الاستيراد —فالقطع النادر على كل حال. نادر حقاً– ولزيادة الصادرات أُعطيتْ بعض التسهيلات المفيدة للقطاع الخاص.

وتلعب الأحوال الجوية أيضاً دوراً هاماً في تحسين صحة البلد الاقتصادية. ففي عام 1988 بعد ثلاث سنوات من الجفاف الذي كلّف الجميع غالياً، صار محصول الحبوب ممتازاً واستطاعت سورية تصدير بعض الكميات منه. أمّا عام 1989 فعلى العكس أجبرت الأحوال الجويّة السيئة السلطات السورية على استيراد كميّات من القمح. وطالما لم يُنجز حتى الآن إدارة فاعلة لحوض الفرات تبقى البلاد تابعة للأحوال الجويّة.

سياسة صناعية غير متماسكة

مع ذلك، بالنظر لما أسلفنا يمكننا الحديث عن إقلاع اقتصادي —وصل بسرعة إلى سقف متواضع– ويتساءل الكثير من المراقبين بعد السنوات الأخيرة من السبعينات عن مقدار تماسك السياسة الصناعية للنظام، "إذ لا يمكن تحديدها بسهولة بغياب سياسة التصنيع الثقيل، وعدم وجود سياسة واضحة

للاستعاضة عن الاستيراد، ويبدو أنّها تعتمد على (المناسبات) أو على خيارات الصدف، أكثر من اعتمادها على استراتيجية حقيقية"؛ هكذا كتب (ميشيل شاتُلو) الخبير بالاقتصاد السوري،[23] ويضيف: "بعض الصناعات المتقاربة: النفط والسماد، القطن والنسيج وصناعة الملابس لها منطق مقبول، ولكن المجموع يفتقد التماسك".

ما هي حقيقة الوضْع؟ من أجل فهم الحياة الاقتصادية في سورية بدءاً من عام1970 يجب ألا ننسى أبداً أنّ الأسد استلم السلطة بعد أسابيع قليلة فقط من رحيل عبدالناصر، وهذا الأخير كان مقتنعاً أنّه لا يمكن إقامة أمّة حقيقيّة إلا بمحاولة بنائِها على أسسٍ صلبة، لذلك صَرَفَ الجزء الأكبر من جهوده باتجاه تنمية إنتاج وطني، حتّى لا يعتمد المصريون إلا على أنفسهم فقط، وهذا الجهد الهائل تابعَه العالم العربي، والقيادة السورية طبعاً، باهتمام كبير. ولقد أراد صلاح جديد الذي سبق أسداً إلى السلطة، وبطريقته الخاصة، تأسيس صناعة وطنية قويّة منسوخة عن النمط السوفيتي. فكان الوضع مربكاً إلى حدٍ ما بالنسبة للأسد؛ فكان من ناحية راغباً في التخلّص من الإدارة اليسارية لفريق جديد، ومن ناحية أخرى يعتقد أنّه هو القادر على منافسه عبدالناصر والنظام الناصري، لذا أُجبر الرئيس السوري على إيجاد طريق وسط يُبقي خطابه ناصرياً، وهو كذلك حتى اليوم، إذا حكمنا على المبادئ الكبرى في الاستقلال والكرامة التي يدافع عنها، إلا أنّها تغيب تدريجياً من واقع تطبيقه العملي.

فالرئيس السوري الواقعي جداً ليس له أيّة عقيدة حقيقية... يدافع عنها، فهو عسكري قبل كلّ شيء آخر، لذا فهو غير قادر أبداً على الحكم في فوائد

أو مضار الاقتصاد الاشتراكي، أو مساوئ وحسنات الاقتصاد الليبرالي. وبالمقابل فلقد فهم تماماً عندما استلم الحكم عداء بعض الطبقات الاجتماعية السورية التي سيعتمد عليها في حكمه، بخاصة في السياسة الاقتصادية لمن طردهم من السلطة.

القليل من التأميم هنا والمزيد من الحرية هي المعادلة التي بدت له قادرة على تخفيف التوتر من الأجواء المتشنجة التي عمّت سورية أواخر الستينات. وكون جزء كبير من الطبقة العاملة والبروليتاريا الزراعية مرتاحة للتدابير التي اتخذها سلفه صلاح جديد، جعل الأسد فاتراً تجاهها، وبدا له أنّ الجيش، الذي كان بغالبيته تحت سيطرته، والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة في الميدان التجاري، تشكّل دعماً أكثر صلابة له من أيّ شيء آخر.

لذا منذ عام 1971 سارت السياسة الاقتصادية للأسد على نَسَقٍ متقطّع؛ حلّ آنيٌّ لكلّ مشكلة تبرز، لم يكن هناك خطّة اقتصادية عامّة شاملة، بل حلول للتهدئة والتطمين، بما يقود لتقْوية حالة الولاء للنظام، كما استتب الأمر له في الجيش. وجاءت حرب تشرين 1973 بعواقبها الأسطورية على سعر البترول فوفّرت له الفرص ليطبّق واقعيته المفرطة. فهناك الآن كميّات هائلة من دولارات البترول السائلة في ممالك وإمارات الخليج، والتي لا يعرف حتى أمراء الخليج كيف يستعملونها.

وصحيح أنّ النظام السوري لم يشجّع رسمياً هجرة اليد العاملة، إلاّ أنّ سورية سمحت لعشرات الألوف من مواطنيها بالتوجّه إلى شواطئ الخليج

الذهبيّة —متوسّلين ذلك– بالبقشيش، وخلال بضعة أعوام سيصبحون نصف مليون للعمل في كلّ ميدان متاح في المملكة العربية السعوديّة وباقي دول شبه الجزيرة العربية. فبعد حرب عام 1973 فقط سمح الأسد للشباب السوري المدرّب بالذهاب إلى الإمارات العربية المتحدة، قبل أن يؤدّوا خدمة العلم — الخدمة العسكرية– ولقد خلق هذا الموقف بعض الدهشة في أجواء المثقفين التقدُّميين. وقام وفد مؤلف من ثلاثة طلاّب سوريين بزيارة وزارة الدفاع، واستقبلهم وزير الدفاع اللواء مصطفى طْلاس، وقالوا له: "أتتخلّون عن القوى التقدميّة في الخليج وشبه جزيرة العرب من أجل القليل من مال الأمراء؟" وكان جواب طْلاس: "ما يهمُّنا هو عروبة الخليج، الأمراء هم من العرب، ولكن الجزء الأكبر من العمال هم من الفرس... ونحن قوميون عرب".[25]

وفي نفس الوقت، قدّمت سورية نفسها ببراعة فائقة على أنّها البلد العربي الأول في مواجهة إسرائيل،[26] واندفعت بدون تحفّظ فيما دعاه أحد الاقتصاديين اللبنانيين: بابتزاز مالي إقليمي عنيف. وتتابعت القمم العربية وقرّرت كلّها دفع مليارات الدولارات لدعم "المجهود الحربي السوري".[27]

ولكن، بالإضافة إلى المعونات الرسمية —التي لم تُحترم بعض تعهّداتها– جاءت أموال سرّية عن طريق دمشق للقيام بأعمال محدّدة: 250 مليون دولار لإيقاف زراعة حشيشة الكيف في لبنان عام 1986،[28] ودُفع ضعف هذا المبلغ قبل عدّة سنوات للجلاء عن مدينة زحلة المسيحية في قلب سهل البقاع اللبناني. ودُفع أربعة أضعاف هذا المبلغ أوائل عام 1987، للدخول لمدينة بيروت وضاحيتها الجنوبيّة من أجل التخلّص دفعة واحدة من المليشيات

اليســـارية للحزب الشيوعي والحزب التقدّمي الاشتراكي، وجماعة حزب الله.[29] وفي بداية صيف 1987، أكّدت المصادر (الوثيقة الاطّلاع) أنّ الرياض دفعت 250 مليون دولار واشترطت قبل تحويلها، إخضاع الضاحية الجنوبية لبيروت أوّلاً... وبعد أن أصبح الاقتصاد معتمداً على التحويلات الخارجية صار طبيعياً أن تهمل سورية جهاز الإنتاج، والأكيد أنّه عندما تصبح هذه المبالغ الهائلة في الميزان ليس من الصعب مشاهدة تنويع اقتصادي حقيقي يتنامى في سورية. ويشبه هذا الوضع الاقتصادي الجديد ورشة كبيرة ويستثمر المال في مناحي عدّة، ولكن من المناسب أيضاً التساؤل عن دوافع هذه الثروات الجديدة وعن الفاعلية الاقتصادية لهذا النمط الذي يتَمَوْضع. والحقيقة أنّ موضوع المردود لم يؤخذ أبداً في الحسبان، نحن أمام منطق توزيعي —كيف يمكن تقسيم هذه الهبة البترولية- وليس أمام منطق إنتاجي يسعى لتنمية جهاز إنتاجي. وكما لاحظ (ميشيل سورا) "إنّ الغاية النهائية لمشروع صناعي تتحدّد أحياناً بوجوده فقط، أي بحجم المال الذي صرف عليه، والذي يشمل ضمناً، العواقب المادية لبعض الكومْبارس –من شهود الزور الصامتين- الذين اشتركوا في المبادرة —بهذا المشروع-.[31]

"هذه الطفيليات، على حدّ تعبير عالم الاجتماع الفلسطيني بشارة خضر، الذي كتب في دراسة له إنّ تصنيع العالم العربي، لا علاقة له بالطبقة البرجوازية التي أدارت في الغرب التنمية الصناعية".[32] وبرأي خضر 90٪ من الثروات التي جمعت في الشرق الأدنى العربي جاءت من التجارة ومن العمولات! فمصر عرفت (عصمت السادات) الذي كان سائق سيارة في نهاية

الستينات، وبعد خمسة عشر عاماً كان يملك ثروة تبلغ مئة مليون دولار، بسبب التواطئ السلبي لأخيه الرئيس. ورفعت الأسد فاق عصمت السادات في هذا الميدان، إذ كانت تقدَّر ثروته ما بين مليار إلى ثلاثة مليارات دولار. وبحسب قول أحد أصحاب الملايين اللبنانيين من عائلة فتّال، إنّ ثروة رفعت الأسد هي ضعف ما عند أغنى لبناني في باريس، وكانت تساوي في بداية عام 1988 مليارين من الدولارات.

وعلى حدّ قول أكرم الحوراني،[33] إنّ شغف رفعت الأسد بالمال السهل والترف يعود إلى سنوات الستينات حتّى قبل أن يستلم حافظ السلطة. والذي لم يكن عام 1959 أكثر من (عريف Caporal) في الأمن العام —مخابرات وزارة الداخلية— في مدينة إدْلب، ولم يتردّد بعد عشر سنوات، وكان ضابطاً بسيطاً في تحدّي رئيس الجمهورية آنذاك الدكتور نور الدين الأتاسي إذ أرسل بعض رجاله فنهبوا موقعاً أثرياً كان على أرضٍ تملكها زوجة رئيس الدولة. ورفعت يتاجر، في الواقع، بالآثار. وفي هذه الحادثة، كان حافظ الأسد آنذاك وزيراً للدفاع فتصامم أمام احتجاجات الرئيس، ووقف إلى جانب أخيه الأصغر. وفي أيام عزّ رفعت الأسد يؤكّد السوريون ضاحكين أنّ أكبر شركتين في المنطقة كانتا شركة هدايا/رفعت أسد في سورية، وشركة طوني فرنجية/ رفعت أسد في لبنان. (هدايا) كان من أكبر المستوردين السوريين للسيارات بخاصة اليابانية، إذ كان يدفع ضرائب قليلة بسبب مساعدة صديقه رفعت. ولقد جمع هدايا ثروة هائلة. وطوني فرنجية ابن رئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية قُتل مع زوجته وابنته الصغيرة على يد كتائب سمير

جعجع في ربيع عام 1978.

رفعت الأسد هو التعبير الكامل (للمحسوبية) التي نمت تدريجياً في نظام أخيه الحاكم، فهو يمضي حياته بين (جنيف وماربيا) وله العديد من الأتباع والمريدين والحواريين صغاراً وكباراً.

غير أنّ الأمور بدأت تفسد منذ العام 1982، إذ تابع سعر النفط هبوطه فيما كانت حرب الخليج تستنـــزف أموال دول الخليج البترولية والتي أُجبرت على ضخّ عشرات المليارات من الدولارات من أجل آلة الحرب العراقية. ونقصت بصورة دراماتيكية التحويلات المالية، واكتشفت سورية عدم قدرتها على تفعيل وحداتها الإنتاجية التي بنَتْها وتضاعفت أعداد الورشات المهملة. وشاهد السوريون هكذا نسيجهم الاجتماعي يتمزّق إن لم يتدمّر، حتى أنّ كبار السِنّ من المواطنين عجزوا عن التعرّف على بلدهم.

"وبدا أنّ المال صار الاهتمام الوحيد لأبناء وطني"، هكذا ذكر متنهداً أحد البعثيين القدامى الذي أطلق سراحه بعد خمسة عشر عاماً من الاعتقال".[34]

كلّ هذه الأعمال قادت (إليزابيت لنغينسّه) بحق، لبيان السمة المشوشة للأوضاع السورية إذ كتبت تقول: «أنْ لا تؤدّي التحليلات القاسية، وبدون مجاملة، لأعضاء الحزب والنقابات المرتبطة بالنظام إلى أيّ تغيير في المسؤولين السياسيين، تكشف وعياً حاداً بالمشكلة وبنفس الوقت الاستحالة البنيويّة لأيّ حل».[35]

ومع دخول البلد في اقتصاد النقص والقلّة والحاجة لم يكن للطفيليّين

والمنتفعين من حلّ إلاّ انتظار أيام أحسن. واكتشافات حقول بترولية هامّة في منطقة دير الزور سمح منذ العام 1988 بإعادة جزئية لعجلة التنمية، بينما سمحت أزمة الخليج، التي سنعود إليها، بإعطاء الفرصة للرئيس الأسد ليُظهر مدى الانتهازية، فالتدابير التي اتّخذها النظام ضدّ الإرهاب في ربيع عام 1987 بخاصّة طَرْد (أبو نضال) من دمشق والتعاون بين أجهزة المخابرات السورية والأوروبيّة وجهود دمشق لتسهيل تحرير بعض الرهائن الغربيّين، يجب تحليلُها كلّها في ضوء الأزمة الاقتصادية، إذ تأمل سورية بهذه الموازنة استعادة بعض (المغانم) الضائعة.

والواقع انّه لم يعُد هناك منذ وقت طويل، أيّ بديل لسياسة الولاء التي يستند إليها النظام. ورغم أنّ (القبض) أقل، تبقى الزبائنيّة —للعملاء والحلفاء والأنصار الحزبيين– الخيار الوحيد لمئات آلاف الطفيليّين. وطالما إنّهم في نفس (المركب) يبقى مصير النظام مرتبطاً كليّاً بهؤلاء الأتباع ولن يغرق المركب بالأولين دون الآخرين.

بيئة مُقلقَة

في مثل هذا الوضع، ليس مفاجئاً أو غريباً أن يصل التلوّث والضوضاء في سورية مستويات مقلقة، بخاصة ولن نفرِط في ذكر الأبنية الإسمنتية الشنيعة التي دمّرت سحر القرى الجبليّة، وإسرائيل ولبنان والعديد من البلاد المتوسّطيّة لم تقم بعمل أفضل في هذا المجال. بل نستطيع أن نُحيِّي رؤساء البلديات في دمشق الذين عرفوا كيف يتحاشون الأبنية الضخمة، وقدروا على تحديد

ارتفاع المباني الجماعية، مع استثناءات قليلة.

ونُرثي بنفس الوقت لتلوّث سواحل البحر المتوسط؛ ومشكلات الأعراض الجلديّة للأطفال الذين يستحمّون على الشواطئ الرمليّة في اللاذقية، هي من الأمور المعروفة جيداً، ويمكن مع ذلك تحاشي هذه المشكلات لو قامت السلطات بالعناية بنظافة هذا القطاع كما تفعل في منطقة (برج إسلام) حيث يتواجد غالباً سكان القرداحة، مسقط رأس الرئيس الأسد. والمشكلات الأكثر جدّيّة وخطورة هي في أبناء دمشق الذين يصابون بأمراض الدم والاضطرابات التنفّسيّة أكثر بكثير من باقي المواطنين السوريين. فتسعون ألف سيارة تستهلك بنـــزيناً غير صافٍ ويحتوي الرصاص، ودخان المعامل والقمامة التي ترمَى في مجاري المياه، والكثافة السكانية المرتفعة جداً –أكثر من عشرة آلاف نسمة في الكيلومتر المربع– كلّ ذلك يفسّر هذا الوضع.

ومع ذلك لا مدينة دمشق ولا مدينة حلب هما اللتان تنالان قَصْبَ السبْق في ميدان التلوّث، بل هي مدينة حمص –على بعد 150 كيلومتراً شمال دمشق– ففي هذه المدينة ذات النصف مليون نسمة تقريباً، زُرعت أكبر مصفاة للبترول في البلد، ومعامل الإسمنت ومعامل تحويل الفوسفات... الخ. وبما أنّ كلّ هذه المعامل تقريباً أُنشأت في غرب المدينة وأنّ الرياح القويّة الآتية من البحر كثيراً ما تجتاح المدينة، تتأذّى حمص بشدّة من ذلك. ونسبة الحماصنة الذين يموتون بأمراض السرطان المختلفة هي ثلاثة أضعاف متوسّط هذه الإصابات في المواطن السوري بعامّة. ولا ينافس حمص في هذا المجال إلا مدينة اللاذقيّة لأنّ بها معمل إسمنت ضخم يُنتج يومياً سبعة آلاف طن. ومن

الطبيعي أنّ ضواحي هاتين المدينتين، حمص واللاذقية تتأذى بشدّة. وهكذا هجر صيادو السمك تماماً بحيرة قطينة بجوار حمص. أمّا صيّادو الطيور وكانوا كثراً في المنطقة فلقد امتنعوا منذ مدّة عن صيد الأوز البرّي أو البط التي فضّلت أجواء أكثر اعتدالاً ورحمة.

وبدأت السلطات السورية الاهتمام بالمشكلة، فأوجدت عام 1985 وزارة للشؤون البيئية. ولقد وقّعت سورية على بروتوكول (مونتريال) لعام 1987 الذي يحدّ، عالمياً، من إنتاج المواد المضرّة بطبقة الأوزون، كذلك (اتفاقية بال) عام 1989 لضبط نقل النفايات الخطرة.

من ناحية أخرى يجب الاعتراف للسلطات السورية ببعض الصدق ففي تصريح أدلى به لوكالة الصحافة العالمية في آذار 1990، وزير الدولة السوري لشؤون البيئة، عبدالحميد المنجد ذكر مثلاً أنّ المياه المستعملة في دمشق ترمى في نهر بَرَدى بدون أيّة معالجة كيميائية وفيزيائية قبل ذلك. وهذا النهر يروي بساتين الغوطة في شرق وغرب العاصمة السورية.[36] وأضاف الوزير: في دمشق وفي مناطق السير المزدحمة بالسيارات بخاصة، نسبة تلوّث الهواء يفوق الحدّ المسموح به؛ وبموازاة ذلك أعلن السيد المنجد عن بناء معمل للإصحاح البيئي وإعادة الماء المستعمل في دمشق وفي معملي معالجة مياه حجارة الرصف ونفايات السفن على الشواطئ السورية. وهذا المشروع الأخير تموّله كليّاً جمعية DAM (خطة عمل للبحر المتوسط) ومركزها أثينا. طبعاً أن يحدث هذا الامر... ولو متأخراً خير من أن لا يحدث أبداً؛ ولكن لا يمكننا الامتناع عن التفكير بأنّ ردّة فعل السلطات السورية كانت متأخرة كثيراً، وأنّها —أي

هذه السلطات- لم تعرف، مرّة أخرى، كيف تخطّط بفاعليّة لتنمية المدن الكبيرة والسواحل.

وسنرى لاحقاً أنّ طبيعة النظام والأولويّة المطلقة التي يوليها (حاملو المباخر) والمتملّقون للربح السريع لا يمكنها أن تقود إلا إلى طريق مسدودة في كلّ ما يخصّ البنية التحتيّة للبلد. وهذه حالة تُذَكِّر حتماً بالكوارث الشاملة التي عرفتها اقتصاديات الكتلة الاشتراكية القديمة في شرق أوروبا. ومع اختلاف قليل في الحجم: لا تزال الحرية في سورية حلماً مرغوباً.

مناظل وعسكري
من الأقليات

وُلد حافظ الأسد في 6 تشرين أول 1930 في القرداحة، في قلب ما توافقنا على تسميتها بلاد العلويين. قبل أن تسلّم فرنسا سنجق الإسكندرون إلى تركيا، كان 350.000 ألف علوي تقريباً، يعيشون في الجزء الأساسي من الأراضي الواقعة بين إنطاكية شمالاً ونهر الكبير جنوباً، حيث يفصل اليوم لبنان عن سورية، والبحر المتوسط في الغرب ونهر العاصي، إجمالاً في الشرق. وبعد هذه الضربة السيئة التي سدّدها فرنسا لسورية، صار مئة ألف عربي، أغلبهم من العلويين، تحت الحكم التركي، أمّا العلويون الآخرون، ومنهم عائلة الرئيس السوري المُقْبل، فبقوا تحت حكم الفرنسيين إلى أن أعلن الجنرال غورو الاستقلال السوري بصورة رسمية في أيلول 1941.

ومن أجل السهولة تعوّد المؤرخون والجغرافيون على تقسيم بلاد العلويين في سورية إلى أربع قطاعات من الغرب إلى الشرق؛ الساحل نفسه بمدنه الكبرى الثلاث اللاذقية وبانياس وطرطوس، والسهل الساحلي، منطقة الملكيات الزراعية الكبرى، والجبل الذي هو مقسّم إلى هضاب عالية ومنخفضة؛ وأخيراً منطقة الداخل. وإذا كان العلويون غالبية في الريف والجبل، إلاّ أنّهم بالمقابل أقليّة في المدن. وهكذا يوم ولادة حافظ الأسد، كان المسلمون السنّة مثلاً يشكّلون ثلاثة أرباع سكان اللاذقية (26.000 ألف) أمّا الجاليات المسيحية فكانت

غالبيّتها أيضاً في المدن الساحلية 15٪ من سكان اللاذقية، 30٪ من سكان طرطوس، ففي المدن إذن كان العلويون تقريباً هامشيين.

جالية مزدراة

الأصول الجبلية أو الريفية للعلويين أثّرت بشدّة على قَدَر هذه الطائفة، التي لها تاريخ غير معروف بصورة جيّدة، ومثل كلّ الطوائف التي انبثقت عن المسلمين الشيعة، عانت الطائفة على كل حال كثيراً من انتصار الإسلام السنّي، أي أهل السنّة الذين لم يجدوا عملاً أفضل من تغْييب أغلب البدع و"النصوص المهرطِقة" كما يلاحظ (جاك وُولِرْسه Jacque weulersse)؛ نادراً ما عانى شعب مثلهم من ظلم التاريخ،[37] ففي العراق، مهْد التشيُّع، انطلقتْ الطائفة عام 859م، في تلك الفترة أعلن ابن نُصَير، وكان من أهل البصرة أنّه من مريدي الإمام الثاني —أي ثاني خلفاء عليّ، صِهْر النبي [ﷺ]. ونعلم، بإيجاز فظ، أنّ الإمامة عند الشيعة هي كالخلافة عند أهل السنّة، ولكن، فيما يقول أهل السنّة أنّ الخليفة الذي يجب أن يكون قرشيّاً من قبيلة النبي محمد [ﷺ]، ليس إلا أميراً للمؤمنين وحاكماً زمنياً عليه مسؤولية حماية الدين، أمّا الإمام بالنسبة للشيعة فيمتلك علْماً فوق علم البشر، وتعاليمه قطعيّة نهائية.

وهكذا، عليّ، الخليفة الرابع أو الإمام يجسّد الألوهية في عيون الشيعة، وبالطبع في عيون ابن نُصَير مؤسس الطائفة العلوية. ولذا يندفع ابن نصير وأتباعه في موالاتهم لعليّ، إلى ذروة العبادة التي تختلط بالتأليه، وهو أي عليّ (المَعْنى)، أمّا دور النبي فهو أقل أهمية ممّا هو عند أهل السنّة فهو (الاسم) أو

(حجاب) الألوهية، وأخيراً سلمان –الفارسي- أحد أهمّ أصحاب النبي محمد [ﷺ] فهو (الباب) -المريد-، ولقد أخذ هذا الثالوث العلوي أشكالاً متنوعة خلال تطوّر العالم، والأحرف الأولى للأسماء الثلاثة علي، محمد، سلمان، تشكّل اسماً ثالوثياً مقدّساً، يُحفظ فقط لمن يطّلعون على السرّ(38) –الذكور البالغون- فقط. وانتشرت العقيدة العلويّة بسرعة في شمال سورية عن طريق الأمراء الحمدانيين في حلب، الذين سمحوا للفكر الشيعي بالانتشار تقريباً في كلّ ناحية.

غير أنّ طرْد الصليبيين من سورية وعودة أهل السنّة من غير العرب بقوّة أصاب الأقليات في الإسلام بضربة مميتة، بخاصة العلويين والإسماعيليين. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، اجتاحت قوات السلطان المملوكي بيبْرسْ أراضي العلويين –وكانت الغاية بالنسبة له تبرّر كلّ الوسائل- واستولوا على قصورهم وحاولوا إعادة أسْلَمتِهم بالقوّة حيث بنوا المساجد في كلّ مكان. ومنعوهم من الدعوة لهاتين الطائفتين. ولتتويج كلّ ذلك أعلن ابن تيمية أحد أكبر المفكّرين في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، وفي منطقة العلويين حُكماً -قطعياً- بإدانتهم، لا يزال يرجع إليه تطوّعاً حتى اليوم الإخوان المسلمون إذ كتب "الجهاد شرعي ومقبول عند الله ضدّ الباطنيين فهم أكثر شِرْكاً من النصارى واليهود، بل أكثر شركاً من الوثنيين، ولقد كانوا أكثر ضرراً بدين محمد [ﷺ] من المشركين المحاربين من الفرنجة والترك وغيرهم...". وبعد الهزيمة والسحْق، انكفأ العلويّون نحو جبالهم مثل الدروز الإسماعيليين... والموارنة. ولم تتطوّر عقيدتهم... بعد ذلك أبداً.

ومن الغرابة أن ينتظروا ما يقرب من قرون سبعة بعد ذلك، عودةَ (الصليبيين العصريين) ليساعدوا في يقظة العلويين. وأثناء هذه الفترة الطويلة جداً لم يكن (جبل النصيرية)، والصفة التي تأتي من كلمة (نُصَيْر) إلا كانتوناً منسياً من إمبراطورية المماليك ثم الإمبراطورية العثمانية.

ورغم تحطيمهم على يد قوّات بيبرس ومن خلفَه بعد ذلك، بقي العلويّون الفئة غير المحبوبة في إمبراطوريّة تستمر في الشك بهم... وبكلّ الهرطقات. ومن المفارقات أنّ بؤسهم الثقافي والمادّي جعل منهم أناساً (منفصلين) عن أعدائهم؛ والأخيرون غير قادرين على التغلّب عليهم، يقولون عنهم إنّهم غير منضبطين ويصعب حكمهم. والواقع أنّ لشيوخ الطائفة سلطة عليا ويلعبون دائماً دور الوسطاء بين عشائرهم المختلفة وبخاصة بينهم وبين السلطة المركزية -في الدولة-.[39]

والرحّالة والجغرافيّ العربي المشهور ابن بطوطة الذي كان يسافر لسائر أقطار المنطقة في أواسط القرن السادس عشر صوّرهم في لوحة ذات مغزى. إذ قال: "إنّهم لا يدخلون المساجد ولا يعتنون بها. وكثيراً ما تلجأ قطعان ماشيتهم وحيواناتهم إلى ساحة المساجد، وكثيراً ما يحدث أن يصل غريب إليهم فيدخل المسجد ويدعوهم للصلاة ويؤذّن فيهم للصلاة؛ وعندها يجيبونه، "لا تنهق أيّها الحمار سنقدّم لك العلف، وعدد هؤلاء كبير جداً".[40]

إنّ ابن بطوطة مهما كان الشك في حيدته، هو أحد الناس القلائل الذين قدّموا تفصيلات شاهدة عن تلك الفترة من تاريخ العلويين، ويذكر كذلك

بعض العصيانات التي قمعت بقسوة. ففي عام 1317م قاد احد (أنبياء)! العلويين أتباعه وأقاربه في ثورة ضدّ المدينة الساحلية المسلمة (جبلة)، ولكن سرعان ما اندحروا وطوردوا، ومات عشرون ألفاً من صفوف النُصَيريين. ولم يكفي السلطان ذلك، فهو لا يقبل حديث العفو عنهم. ويذكر ابن بطوطة تدخّل أمير طرابلس لدى السلطان في القاهرة ليحفظ حياة الفلاحين العلويين. قائلاً: "هؤلاء يعملون في الأرض من أجل المسلمين، فإذا قتلوا سيؤدّي قتلهم بالضرورة إلى إضعاف المؤمنين".

هذا المختصر —المؤثر– عن تاريخ العلويين هو أفضل ترجمة لقدرهم المحتوم: سذاجتهم، عذاباتهم، والتساهل الذي استفادوا منه، راجعٌ كلياً لِمَا هم فيه مِنَ الاعتبارات الاقتصاديّة المتدنّية. والأتراك العثمانيون الذين خلفوا السلاجقة، طردوا المماليك عام 1516، ولكن العلويين لم يربحوا شيئاً من هذا التغيير لأنّ الباب العالي يسخر تماماً من رعاياه، ويفرض عليهم، بكل بساطة، أن يدفعوا الضرائب بشكل كامل.

شعب... على حِدة

ومع ذلك حصل تجديد ضخم في المنطقة بدءاً بعام (1535) بعد التوقيع على نظام الامتيازات الذي سمح للدول الأوروبيّة الكبيرة، وأولها فرنسا، بالتجارة مع الشرق الأدنى. سورية... وبخاصة حلب والمدن الساحليّة، أعادت دائرة التجارة الدولية، واستقر قناصل فرنسا في كلّ المدن التي كانت تعرف أكثر تحت اسم سلالم الشرق.

وبينما أقام الأتراك واليونان والعائلات الكبيرة المسلمة والمسيحية في هذه المدن الكبيرة وجمعوا كلّهم الثروات، أو على الأقلّ، اجتهدوا ببساطة لتحسين حياتهم اليومية، بقي الشعب العلوِيّ غريباً تماماً عن هذا النظام الجديد الذي حلّ. ثابتون في السهول الساحليّة على أراضٍ لا يمتلكونها، أو معزولون في الجبال، يعيش العلويون البؤس، ويعاني فلاّحو السهول بخاصة حياة قاسية لأنّه من المستحيل عليهم الهروب من رقابة رجال الباشا.[41] وبالمقابل توصّل أبناء الجبال، مثل موارنة لبنان، إلى الاحتفاظ بحكم ذاتي شبه كامل.

وشهد أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر انقلاباً في حياة الفلاحين العلويين. فالإمبراطورية العثمانية كانت على طريق التفسخ، بينما كان على نابليون بونابرت مواجهة أعدائه الأوروبيين الكثر. ومدفوعين بالبؤس، ولكنهم أكثر حريّة الآن في التحرّك بسبب الفوضى التي تنتشر، بدأت عصابات العلويين في النهب والتنافس في الخطف من أجل الحصول على فدية المخطوفين، وجُيّشت جيوش كاملة من أجل دفعهم مرة أخرى نحو جبالهم، وتكرّرت إعدامات الفلاحين. وبين الطوائف المتنافسة، كما هو الحال اليوم، في لبنان، لم يكن الأمر إلا مجرّد تصفية حسابات على نطاق واسع. وفي عام 1808 بلغ الانفعال مداه بقتل أمير الإسماعيليين على يد اثنين من العلويين في منطقة نفوذه بمصياف. وتبع ذلك مذبحة حقيقية، ولكن باشا دمشق الذي استنجد به الإسماعيليون لم يستطيع أكثر من دفع القبائل العلويّة نحو جبالهم الوعرة المنيعة. وبعد قرنين من الزمان تقريباً لا تزال هذه المواجهة المسلّحة في الذاكرة الجماعية لكِلا الطائفتين اللتين تتباغضان بصورة ودّية!.

والدَروز والموارنة بالتأكيد لم يخترعوا شيئاً جديداً...

وفَتْح سورية عام 1833 على يد خُدَيْويّ مصر محمد علي جلب معه معاناة جديدة للعلويين، وبعد تأسيس دولة مركزيّة قرّر محمد علي أن يتولى أمر كلّ المناطق. وهذا التدخّل من محمد علي لم يُطقْه العلويون وقادهم للثورة عليه. ولكنّهم كانوا أضعف من مقاومة الجيش المصري، فسقط العديد من رؤوس زعمائهم على المقصلة.

وكان الوجود المصري قصيراً لأنّ الخديوي أُجبر عل الانسحاب بأسلوب مهين أمام تحالف ضمّ إنكلترا والنمسا وتركيا. وما احْتاج أهل الجبال العلويون لأكثر من ذلك لينشطوا بقوّة، ويأخذوا زمام المبادرة بدفْعٍ من رئيس عشيرة صغير اسمه إسماعيل بك. وكان ماهراً بحيث استفاد سريعاُ من الاعتراف شبه الرسمي للحكومة العثمانية بعدم قدرتها على الانتصار عليه. إلاّ أنّ طموحاته ضيّعتْه وقُتل بعد ذلك بقليل.

ولقد ذكر (لوك رُوْي) عام 1861، وكان سكرتيراً (لإرنست رينان)، إنّ العلويين "شعب فقير في حرب دائمة مع السلطات التركية" ويضيف: إنّ العلويين يرهبون السوريين.[42]

ولم تأت نهاية القرن التاسع عشر بأيّ تغييرات للطائفة التي كان عليها الأخذ في الحسبان الوجود العسكري العثماني الذي أعيد تنظيمه. وترافقت القفزة الإمبراطورية هذه مع صعود نَجْم القومية العربية، وجرّت الحرب العالمية الأولى معها انهيار تركيا ويقظة العديد من الخصوصيّات المحليّة، وتحوّل

جبل النصيرية إلى ملجأ لكلّ الهاربين من الجيش من الأصول المختلفة، وهذا الواقع فتح باب عودة الغرب إلى المنطقة — بعد سبعة قرون.

متعاونون مع العدو وقوميون عرب

المنتصرون على العثمانيين، إنكليزاً وفرنسيين في اتفاقيّة سايكس — بيكو، (أيار 1916) وجدوا أنفسهم يسيطرون على منطقة شاسعة متفكّكة تماماً ممتدّة من الغرب إلى الشرق، من البحر الأبيض المتوسّط إلى الخليج، ومن الشمال إلى الجنوب، من جبال طوروس التركية إلى الصحراء العربية، وعلى هذه المساحة التي تبلغ مرّة ونصف مساحة فرنسا، يتعايش جيّداً إلى حدّ ما، عشرات الطوائف والإثنيات. والأكيد أنّ العرب المسلمين السنّيين يشكّلون الغالبية بخاصة في سورية وفلسطين، إلا أنّ العرب الشيعة يتفوّقون في العراق. والأقليّات العربية المسيحية ليست أبداً كمّاً مهملاً، ويلعبون بوضوح في الميادين الاقتصادية، دوراً فاعلاً جداً. وأخيراً، سواء كانوا أكراداً أو دروزاً أو موارنة، أو بالتأكيد، علويين، يثير أهل الجبال جميعاً، مشاكل كبرى للسلطة المركزية.

وإذا أضفنا لهذا الأفكار المسبقة العديدة التي تثير البريطانيين والفرنسيين، والوعود المتضاربة أحياناً، والتي أعطوها لأهل البلاد الذين يثيرون بعضاً منهم على البعض الآخر، وأخيراً التأثيرات التي تبعثها أفكار (توماس ووْدْرو وِلْسن) المعارض لكل الغزوات الإمبرياليّة، يمكننا أن نتصوّر أنّ أيام البعثة التي اختارها جمعية الأمم في باريس ولندن لن تكون كلّها راحة.

وصَلَ أوائل الجنود الفرنسيين إلى اللاذقيّة في 6 تشرين ثاني 1918، وكان

القرار الأوّل لقائدهم الملازم أول (جان دو لاروش)[43] هو حلّ الحكومة المؤقّتة التي ألّفها أعيان المدينة ذات الغالبيّة السنّية بعد رحيل آخر الموظفين العثمانيين، في 9 تشرين أول السابق، وبما أنّ تلك الحكومة كانت غير قادرة على ضبط بلاد العلويين، سرعان ما أعلنت إعادة ارتباطها بالمملكة الفيصليّة الهاشميّة. وفرض (دو لاروش) رأساً السيادة الفرنسية -على بلاد العلويين- وفيما كان خضوع مدينة اللاذقية سهْل الحصول، لم يكن الأمر بنفس السهولة في الجبل. فبالنسبة للعشائر الجبلية، كما لاحظ (وولرس) مهما كانت الحكومة النظاميّة صديقة ودودة تبقى دائماً (حكومة). أي هي شيء يزعج بطبيعته ويصعب احتماله. لذلك لا يمكن إخضاع العشائر الجبليّة إلا بالقوّة. وفي شباط 1919 عندما أراد الفرنسيون أن يكونوا حَكَمَاً في خلافٍ بين العلويين والإسماعيليين بدأت المواجهات بين قوّات الانتداب والعلويين. وهُزمت القوات الفرنسية أمام قرية (الشيخ بدر) — وهي واقعة في منتصف طريق طرطوس مصياف. وأصبح الشيخ صالح العلي أحد زعماء العلويين، والصانع الأساسي لهذا النصر سيّد الجبل. وسرعان ما وجد دعماً له من مبعوثي الملك فيصل، كذلك انضمّت إليه عصابات تركية جاءت من منطقة أنطاكية. وخلال عام تقريباً من تموز 1919 إلى تموز 1920 استمر إطلاق النار من القوات الفرنسية على المجموعات العلوية المسلحة. والواقع أنّ انهيار دولة الملك فيصل وفرار الأخير في الوقت الذي اعتُرِفَ رسمياً بالانتداب الفرنسي، لعب دوراً في نهاية الصراع؛ وأصبحت بلاد العلويين منطقة ذات حكم ذاتي تحت السيادة الفرنسية في31 آب 1920.

ولقد استمرّت المقاومة العلوية لفترة خمسة عشر شهراً وانتهت في 21 تشرين أول 1921 باستسلام الشيخ صالح العلي. ونتيجة لذلك ساد الهدوء النسبيّ... حتى رحيل الفرنسين؛ وفي الواقع كان هناك صراع في قلب الطائفة العلوية، مثل الكثير من الطوائف الأخرى، بين الأعيان التقليديين والوطنيين القوميين الذين ضمّوا في صفوفهم العديد من الشباب والمفكرين. وكل معسكر عرض بسرعة نظرته، "بلاد العلويين" بالنسبة لمعسكر التقليديين و(العروبة) للمعسكر الآخر،(44) وإحدى الصفات التي ميّزت حافظ الأسد بعد استلامه للسلطة عام 1970 كانت إرادته في إجراء مصالحة ما بين العلويين، لأنّه حفظ منذ فتوّته الذكرى المؤلمة للإنقسامات الطائفية. وهكذا ابتدأت فترة هامّة —من تاريخ الطائفة- وحَمَتْ فرنسا تقليدياً الأقليات المسيحية في الشرق الأدنى، ثم وسّعت دائرة حمايتها هذه لتشمل الأقليات المسلمة والإثنية ومن بينها العلويين.

وكلّ ذلك، على كلّ حال، يتماشى مع روح الانتداب ومبادئ (وِلْسُنْ) التي تدافع عن حق الشعوب بتولّي شؤوها بنفسها. ولصعوبة التنفيذ اتّضح أنّ إعادة تنظيم الإدارة التي ارتبط بها الفرنسيون غير كافية طبعاً لتحويل شعب من الفلاحين المتخلفين فجأة إلى إداريين مهرة. ولكن التخلّفَ التاريخي عند العلويين، لم يكن هو السبب الوحيد. فمنطقة الحكم الذاتي، لا تملك في الواقع الوسائل لتحقيق طموحاتها، فهي في الوقت نفسه شديدة الحاجة وشديدة البؤس، لذلك حَلُم الفرنسيون بضمّ منطقة العلويين إلى مجموع دول (المشرق). وفي 12 تموز 1922 أصبحت المنطقة ذات الحكم الذاتي دولة علويّة ودخلت

اتحاد دول سورية الذي كان يضمّ أيضاً دولة دمشق ودولة حلب.

ولكن بعد ثمانية عشر شهراً فقط، انسحب الممثلون العلويون من مجلس الاتحاد، فالتناقضات مع الشركاء السوريين كانت قويّة جداً. وفي 5 كانون أول 1924 ألغى الجنرال ويغان الاتحاد وأسس (الدولة المستقلة للعلويين) مع الشركاء السوريين، استقلال رسمي ورمزي فقط. ويجب الاعتراف بذلك، لأنّه حسب مواد القانون الأساسي للرابع عشر من أيار 1930، الحاكم الفرنسي يعاونه مدراء ومستشارون، وضبّاط فرنسيون يعملون في الوحدات الخاصّة لجيش المشرق، يسيطرون في واقع الأمر على كلّ الإدارة المحليّة. ومنذ عام 1923 أنشأ الفرنسيون مجلساً تمثيلياً أرادوا إشراكه في إدارة الدولة، وعدد أعضائه ستة عشر؛ (تسعة) (9) منهم من العلويين، وثلاثة من السنّة، وثلاثة من المسيحيين وإسماعيليّ واحد، رُبعهم فقط اختارهم الحاكم والباقون نجحوا في الانتخابات العامّة.

ومع تزايد نشاط القوميين العرب اكتفت فرنسا عام 1930 بتعديل تسمية (دولة العلويين المستقلة)! وهي بالغة التحدّي! وسمّتها "حكومة اللاذقية" ولم تغيّر هذه التسمية الجديدة شيئاً أساسياً في مصير 250.000 ألفاً من سكّان المنطقة المحكومين. والواقع أنّ ضغوط الاستقلاليين في دمشق، سوف يؤثّر مباشرة في مصير العلويين؛ ولكن قبل أن تعترف فرنسا —في معاهدة 9 أيلول 1936– بسيادة سورية على حكومة اللاذقية، حاول وجهاء وأعيان الطائفة العلوية للمرة الأخيرة قلْب الأوضاع لصالحهم، في الوقت الذي كانت المفاوضات لا تزال دائرة بين الفرنسيين والسوريين. ففي رسالة بعثوها

لـــ(ليون بْلُومْ) رئيس الحكومة الفرنسية —آنذاك– وإلى قيادات الحزب الاشتراكي الفرنسي في نفس الوقت كتب المسؤولون العلويون —ومنهم جدّ* حافظ الأسد، سليمان علي الأسد(45) في هذه الرسالة ما يلي:

"بمناسبة المحادثات الدائرة الآن بين فرنسا وسورية، نحن، رؤساء الطائفة العلوية في سورية، لنا الشرف بلفت نظركم ونظر الحزب الاشتراكي للنقاط التالية:

1- إنّ الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة بعد سنة بكثير من التضحيات الكبيرة، هو شعب يختلف في معتقداته الدينيّة وتقاليده التاريخية عن الشعب المسلم السنّي. ولم يحدث أبداً أن خضع الشعب العلويّ لسلطة المدن في الداخل.

2- يرفض الشعب العلوي أن يرتبط بسورية المسلمة، لأنّ الدين الإسلامي يُعتبر دين الدولة الرسمي، وأنّ الإسلام يعتبر الشعب العلوي مُشركاً. لهذا السبب، نُلفتُ نظركم للمصير المرعب الذي سيكون قَدَرنا إذا ارتبطنا بسورية عند نهاية الانتداب، حيث تستطيع سورية آنذاك تطبيق قوانين النظام الإسلامي.

3- من المؤكّد أنّ إعطاء سورية استقلالها وإنهاء الانتداب يُشكّلان تطبيقاً حسناً للمبادئ الاشتراكية في سورية، بشرط عدم نسيان أنّ الاستقلال الشامل سيكون معناه سيطرة بعض العائلات المسلمة على

* سليمان هو الوالد وليس الجد كما نعرف.

الشعب العلوي في كِيليكيا والإسكندرون، وفي الجبل النصيري. أمّا وجود برلمان وحكومة دستورية فلن يكونا ضماناً لحريّة الفرد (...)، ولا يهدفان في الواقع إلاّ لخلق نظامٍ يكون فيه التعصّب الديني مفروضاً على الأقليّات. فهل يريد قادة فرنسا أن يسيطر المسلمون على الشعب العلوي التعيس؟

4- التعصّب هو طابع المسلمين العرب بالنسبة لغير المسلمين جميعاً، والأمل ضئيل في تغيير هذا الحال. لذلك ستتعرّض الأقليات في سورية لخطر الموت عند انتهاء الانتداب. (...) إنّنا نلمس اليوم أيضاً سلوك مواطني دمشق المسلمين بالنسبة لليهود الذين يقطنون أحياءهم، إذ يرغمونهم على توقيع وثائق يتعهّدون فيها بعدم إرسال المواد الغذائية لإخوتهم اليهود القاطنين في فلسطين. وحالُ اليهود في فلسطين هو أوضح علامة لعنف المسألة الدينيّة عند العرب المسلمين في مواجهة كلّ من لا يرتبط بالإسلام! نعم هؤلاء اليهود الطيّبون الذي أحضروا معهم لهؤلاء العرب المسلمين المدنيّة والسلام، ونشروا على أرض فلسطين الذهب والوفرة، الذين لم يؤذوا أحداً ولم يأخذوا أيّ شيء بالقوة. ورغم كلّ هذا أعلن المسلمون عليهم الحرب المقدّسة ولم يتردّدوا في ذبح نسائهم وأطفالهم! حدث هذا رغم وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سورية. لكلّ هذه الأسباب ينتظر اليهودَ والأقليّات الأخرى مصيرٌ مُهلك مميت، عندما ينتهي الانتداب وتنجز وحدة سورية المسلمة وفلسطين المسلمة: الهدف الأسمى للعرب المسلمين."

هذه الوثيقة التي تضمّ بعض النقاط الأخرى في نفس الاتجاه، مؤرّخة في

15 حزيران 1936م، ومسجّلة تحت الرقم (3547) في وزارة الخارجية الفرنسية.(46) وعلاوة على جدّ حافظ الأسد، وقّع هذه الوثيقة عزيز آغاهواش، ومحمد بك جُنيد، وسليمان المرشد،(*) ومحمود آغا جديد (والد صلاح جديد)، الرجل القوي في سورية من عام 1966م إلى 1970م، ومحمد سليمان الأحمد المشهور بلقَبه (بدويّ الجبل)؛ ونصُّ الوثيقة المفاجئ وغير المتوقّع... كاشفٌ إلى حدّ بعيد الدلالات، فالعديد من زعماء العشائر العلوية المحتقرين المكروهين من أهل السنّة المسلمين، لا يرغبون بصورة واضحة برحيل الفرنسيين عن سورية.

فالفرنسيّون في الواقع، هم أوّل المحتلّين لسورية، الذين اعترفوا بغالبيّة العنصر العلوي على كلّ الطوائف الأخرى في غرب البلاد. ففي المجلس التمثيلي (لحكومة اللاذقية) أعضاء الطائفة العلويّة هم الغالبية. ولم يسبق لأيّ قوّة أجنبيّة أن أظهرت عناية واهتماماً أكثر تجاههم... الإشارة (في الوثيقة) إلى رفض الطائفة العلويّة الخضوع لسلطة مدن الداخل... هي أيضاً تنويريّة... وكلّ تاريخ سورية الحديث، مثلما هو أيضاً في العراق، يمكن التعاطي معه من هذه الوجهة الشديدة الخصوصية لصراع دائم بين أهل المدن وأهل الريف من أجل استلام الحكم والسلطة.

والطريف -أيضاً- أنّنا اكتشفنا بدهشة، التشبيه الذي قدّمه مسؤولو الطائفة، ويوازون فيه بين مصير طائفتهم وبين مصير (اليهود الطيّبين) في

(*) الذي ادّعى الربوبيّة وقاد تمرّداً مسلّحاً على الحكومة السورية بعد الاستقلال ثم انهزم وأسرَ وشُنقَ في ساحة المرجة بدمشق.

فلسطين. وأقلّ ما يمكن أن يُقال -في هذا المجال- أنّ حافظ الأسد لم يتأثّر كثيراً بآراء جدّه...

العلويون... وحزب البعث

لم يكن كلّ العلويين، مع ذلك، يميلون في تلك الفترة لفرنسا، حتّى -بل وعلى الأخصّ- من دَرَس منهم في باريس. وهذا حال زكي الأرسوزي الذي كان، على الأغلب أساس دخول حافظ الأسد في حزب البعث.[47] وزكي الأرسوزي علويّ من الإسكندرون -مركز قضاء سنجق الإسكندرون الذي أعْطتهُ فرنسا إلى تركيّا عام 1939. في عام 1933 أسَّسَ الأرسوزي مع صبري العسلي رابطة العمل القومي وهي حركة قومية عربية موسومة ببعض الأفكار النازية -وحدة الشعب العربي بَدَل وحدة الشعب الألماني- وبعض أفكار الجمعيات العربية السرية، في نفس الوقت، مثل (العهد) و(الفتاة) و(القحطانية)... التي ازدهرتْ ما بين 1900 و1920 في أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية؛ وكان من طموحات الرابطة إحياء الماضي المجيد للعالم العربي وإعادة النقاء -والصفاء- للغة العربية. وكان أعضاء هذه الرابطة من أعنف المُعادين للشيوعية.

وبينما فقدتْ الرابطة الكثير من تأثيرها في سورية بعد رحيل العسلي عنها عام 1936 حين بدأ يلعب الورقة الفرنسية، دُعِمَتْ الرابطة بالمقابل في أوساط الدروز، كما دُعِمَت أكثر في أوساط العلويين، وجدير بالذكر هنا الدور المهم الذي لعبه فرْع الإسكندرون في رابطة العمل القومي، والذي سبّب مناضلوه -فرع الإسكندرون- كثيراً من الإرباك للفرنسيين. وهؤلاء

المناضلون هم أنفسهم الذين شكّلوا أوّل الأفواج البعثية.[48]

وأرسوزي، الذي قاد لبعضِ الوقت المقاومة ضد الأتراك، ترك الميدان وذهب إلى دمشق، حيث تخلّى عن رابطة العمل القومي، وأسّس في تشرين الثاني 1940 حركة جديدة سمّاها البعث العربي. وبما أنّ تشكيلته هذه لم تلْق أيّ نجاح، أوقف بعد ثلاث أو أربع سنوات نشاطه في الحياة السياسية، وانضمّ أكثر أصحابه إلى حركة سياسية مشابهة سمّيت مرة البعث العربي ومرة أخرى الإحياء العربي، وكان المؤسّسان لها طالِبَيْن سوريّيْنْ في فرنسا: ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. وبعد مرور نصف قرن على ذلك التاريخ، ليس من السهل تقدير مدى إسهام الأرسوزي... في قيام حزب البعث. على المستوى الإيديولوجي من الواضح أنّ المسحة الأسطورية في قومية الأرسوزي العربية طبعت بقوةٍ فكر عفلق والبيطار، كذلك من البيّن أيضاً أنّ ذلك دفع العديد من أبناء طائفته العلوية للانتساب للحزب.

وفيما يخصّ حافظ الأسد وصلاح جديد اللذان تسلّما سلطة البلاد في أواسط الستينات، فلقد كان تلقينهما الأفكار البعثية على يد وهيب الغانم الذي هرب، بدوره من الإسكندرون في نفس الوقت الذي غادر فيه الأرسوزي وحلّ في اللاذقيّة.[49] وفي عام 1945 كان الأسد فتىً في الخامسة عشرة من عمره، وكان يناضل بصورة فاعلة داخل الاتحاد الوطني للطلاب. وبالنسبة له، كما هو الحال بالنسبة لكثيرين من شباب الأقليّات، كانت إيديولوجية البعث[50] كما عُرضت خلال المؤتمر الأول للحزب عام 1947.. طريفة لعدم ذكرها الإسلام، مباشرة، رغم أنّ عفلق أشار دائماً للدور

الأساسي الذي لعبه هذا الدين في الحقب الأكثر أمجاداً للعالم العربي.

كان الفتَى حافظ الأسد من كبار هواة الملاحم التاريخية، كما اكتشف ذلك (هنري كيسنْجِر) بعد ثلاثين سنة، وكانت للأسد أسباب أخرى جعلته يتأثّر بأفكار الأرسوزي.

والتاريخ الشخصي لمعلّم طُرد من مسقط رأسه، بعد التخلّي عن سنجق الإسكندرون لتركيا يعبّر أكثر من أيّ شيء آخر عن عجز العرب الشديد الذين لا يستطيعون مقاومة مؤامرات الغربيين الخادعة. وإذا كان هناك أيّ شيء لم يَغفره السوريون لفرنسا فهو بالتأكيد إضاعة هذه البقعة —من وطنهم- ويمكن تصوّر أحلام استعادتها التي تقضّ مضاجع آلاف الشباب السوري، في الوقت الذي يتعرّضون فيه لصدمة عنيفة أخرى حيث تبيع بريطانيا العظمى فلسطين بثمن بخس... ولكن قبل أن نغوص في مجرى الحياة السياسية للرئيس السوري المقبل، لنعُد لقرية القرداحة حيث قضى الأسد كلّ سنوات طفولته.

القرداحة... مهْد عائلة الأسد

في قلب بلاد العلويين... ومن الدعامات الأولية لجبل النصيرية وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً جنوب شرق اللاذقية، كانت القرداحة عام 1930 ضيعة كبيرة يسكنها أكثر من ألفي نسمة. وهي بلا شك المنطقة الأغنى والأخصب في الجبل العلوي: "وتنوّع التربة يضاعف فيها مستويات الينابيع، فهي المنطقة الأكثر شجراً بامتياز: وأشجار التين والرمان والمشمش والتفاح تشكّل بساتين حقيقية، إضافة لكروم الدوالي".. هذا ما دوّنه (جاك وولرسّي) الذي زار القرية في ذلك التاريخ.(51)

لكن يجب ألا نتصوّر أنّ كل شيء كان لبناً وعسلاً هناك. فحافظ الأسد ابن إحدى العائلات الريفية المتوسطة الحال، لا ينتسب لعائلة مشايخ ولا لعائلة إقطاعية مالكة للأراضي. فطفولته لا علاقة لها بالتأكيد بفروع البرجوازية الحلبية أو الدمشقية، فما يملكه أبوه من أرضٍ كان كافياً بالكاد لتأمين التعليم الابتدائي والثانوي لبعض أولاده. ومع ذلك، كان والد وجدُّ حافظ من الناس الشجعان الذين يطمحون للسلطة، ومن المدهش إضافة لذلك، ملاحظة أنّ موضوع السلطة شغل دائماً أذهان عائلة الأسد. فالجدّ سليمان علي كان يعمل عند عائلات غنيّة مسلمة ومسيحية، أرادت ضبط فلاحيها العلويين المعاندين. والواقع أنّ عائلة الأسد توضّح تماماً الفكرة القائلة: كان عند العلويين دائماً اتجاهان الواحد انفصالي –بل تعاوني مع العدوّ– والآخر مثل حافظ اندماجي –قومي–.

وكان والد حافظ الأسد ينتمي لجيل من القرويين المستعدّين لكلّ شيء من أجل تمكين أولادهم من متابعة دراستهم. ولقد استفاد الأسد من هذا التوجّه –عند والده– كما استفاد أيضاً من حقيقة أنّ الاستعمار –الفرنسي– اعتبر العلويين لأوّل مرة مواطنين كاملين وكذلك طوائف الأقليات الأخرى. لذلك يمكننا أن نتفهّم بأسلوب أفضل اليوم ضراوة العلويين ضدّ الإسلاميين الذين يريدون إعادتهم بكل بساطة إلى الحالة التي كانوا عليها في فترة ما قبل قدوم الاستعمار –الغربي–.

بعد ضغط ميزانية العائلة إلى الحد الأقصى استأجر علي الأسد شقّة صغيرة من غرفتين لا يصلها التيّار الكهربائي في اللاذقية، ليسمح لأولاده متابعة

دراستهم. ولكن إذا لم تكن العائلة غنيّة فإنّ حياتها لم تكن صعبة إذا ما قارنّاها بالغالبية العظمى من العلويين؛ وكلّهم تقريباً من الأميين البؤساء سواء كانوا يعيشون في السهول أو الجبال... في بيوت منخفضة السقوف، والإصحاح البيئي فيها معدوم حتّى في أبسط مستوياته، وغالبيّة البيوت المبنية بحجارة غير منحوتة بها غرفة واحدة فقط، سقفها لا يسمح للإنسان بالوقوف تقريباً مرفوع الرأس. وبما أنّهم لم يعرفوا بعد استعمال الاسمنت يتردّدون في الواقع في بناء أكثر من طابق واحد!

عليّ الأسد، وهو الفلاح الميسور نسبياً يملك داراً مؤلفة من غرفة واسعة أُلحق بها شقّة لاستقبال الضيوف (السلاملك) تسمح بفصل النساء عن الرجال. ومن نافلة القول الذكْر أنّ المفروشات بدائية، فالطاولات والكراسي ليست معروفة هناك، والكلّ رجالاً ونساءً وأولاداً ينامون ويجلسون ويأكلون سوياً على أرضية الدار؛ وهناك جِرارٌ كبيرة –يرتفع بعضها متراً ونصف المتر تُخزّن الزيت والحبوب وأحياناً النبيذ. وهذه الأوضاع لا تزال بعيدة جدّاً عن مناظر البيوت التقليدية الرائعة في جبال لبنان، درزيّة أو مسيحيّة، بل هي أقرب فعلاً لكردستان وأفغانستان.

وفي الثلاثينات من القرن الماضي –لم يكن هناك مجال للشبه بين القرية العلويّة والقرية المارونية في الجبال؛ وكان العلويون يجهلون شبكات الطرق المرصوفة ولا يعرفون من وسائل التنقّل إلاّ الخيول والحمير، أمّا الطرق والشوارع فمثلها مثل السيارات والعربات والمحاريث –التراكتورات– لم تكن موجودة، "مجموعة بسيطة من المساكن الفردية مبنيّة بدون أيّ تخطيط أو

نظام" كما دوّن (وولِرسّي).[52]

ونبع الماء هو وحده مركز التجمّع والالتقاء حيث يكون الغسْل والغسيل ونَزْح الماء. وبينما أثَرُ الرجل في لبنان موجود في كلّ مكان، رضيَ الفلاح العلوي دائماً بالقليل، إذْ حلّ حيث استطاع، واستصْلَحَ الأرض الأسهل بلوغاً والأقلّ انحداراً. لذا لا تستطيع إلاّ العين المجرّبة التمييز بين الأراضي المزروعة وغير المزروعة. وفَقْرُ التربة يفسّر أيضاً التفتيت الأشدّ لأراضي القرى الكبيرة والصغيرة، حيث تعداد سكّان غالبيّتها العظمى لا يزيد عن المئة شخص. ومن هذه الناحية بالذات كانت القرداحة التي زاد عدد سكّانها عن ألفي نسمة، قَصَبَةً متميّزة تحتل فيها عائلة الأسد مكاناً مناسباً.

طائفة منعزلة

والعلويّ، مع ذلك، سواء كان غنيّاً أو فقيراً، من الأعيان أو من المهنيين، من الشيوخ أو من الفلاحين، وحتّى لو كانت حياته اليومية مطابقة لما يجري في قرية مسلمة سنيّة، أو مسيحية تعيش نفس الشروط، هذا العلوي هو إنسان آخر تفصله عن مواطنيه حدود غير مرئية هي من خصوصيات الشرق الأدنى؛ العلوي مقتنع إلى حدّ ما بصورة لا شعورية أنّه ينتمي إلى أناس محتقرين لأنّهم كانوا مضطهدين لفترات طويلة، ويشعر كذلك، حسْب رأي بعض مستشرقي النصف الأوّل من القرن العشرين، أنّه موعود بمستقبل رائع لأنّه، بطريقة ما، (مختار). وإذا لم يكن ذلك على هذه الأرض فسيكون في السماوات. ومن هذه الوجهة يحتلّ الدين، بصورة مؤثرة مكاناً أساسياً في حياته، فالمزارات أو أماكن (الحج) لا تحصى عددا في بلاد العلويين–، وبتعبير

آخر عمّمت الطائفة العلوية مع الزمن طقوسها إلى أقصى حدّ. واعتبر (دوسُّو) الخبير الكبير بالعلويين في مبدأ القرن العشرين أنّ دينهم الشعبي متّصل بأقدم الديانات السامية في تفانيهم المبهم —غير الشخصي- والذي لا وجْهَ فيه للحضور الإلهي —في حياتهم-.[53]

وأعياد العلويين هي أيضاً بدورها كاشفة... ففيها الأعياد الشيعية الكبيرة مثل يوم عاشوراء ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء، ولكن يجب ألاّ نخلط، على كلّ حال، (عاشوراءهم) بعاشوراء الشيعة، لأنّ فيه شرب الخمر —العرق الممتاز- محلّ جَلْد الذات، وهناك أيضاً أعياد مسيحيّة مثل عيد الميلاد وعيد الغطاس، وأعياد كرديّة أو فارسية وأعياد زراعية مثل عيد الزهور في 21 نيسان. ويجب أن تُفهم جيداً حاجتهم لملء الفراغ، فليس لديهم (مكة) ولا (القدس) ولا (النجف) مثل السنّة والشيعة. ويبقى لهم التلقين —لأسرار الدين- وهذه طقوس رمزية يعود عهدها إلى غُلاة الشيعة على حدّ تعبير لويس مَاسّيْنيون.[54] وهي محفوظة لأقلية صغيرة جداً: الشيوخ الذين يتمتّعون بسلطة كبيرة في الطائفة.

وعندما جاء الفرنسيون —بعد الحرب العالمية الأولى- لم يكن عند العلويين محاكم شرعية فقرّرت سلطة الانتداب، لحلّ الخلافات بين أفراد الطائفة، خلق هذه المحاكم على نمط إسلام أهل السنّة. والعجيب في الأمر أنّ المتعلّمين بينهم تغيّبوا عنها، فعَمَد الإداريون الفرنسيون على استحضار (قضاة) من شيعة جنوب لبنان. وبعد عدّة سنوات عاد القضاة إلى لبنان بعدما درّبوا دفعة أولى من القضاة العلويين. وكان هذا تذوّقاً مسبقاً للتعاون المستقبلي بين نظام

الأسد والحركة الشيعية اللبنانية (أمل)...

وتبقى هذه النظرة الشاملة –غير تامّة إنْ لم نتحدّث هنا عن بُنْية الطائفة العلوية في الثلاثينات– من القرن العشرين. في تلك الفترة كان العلويون عندما يتحدّثون عن أنفسهم يستعملون باختيارهم تعبير "عشائر" أو "قبائل".[55]

الكلّ تقريباً، وربما للتعويض عن معيشة يومية شاقّة، يؤكّد أنّه من سلالة أكبر القبائل القديمة في شبه جزيرة العرب. ومعروف شغَف العرب بعلم السلالات، وهناك اليوم عدد لا يُحصى منهم يُعْلن نفس الادعاءات ويتفاخر بأنّ جدّه الأكبر هو النبيّ، أو على الأقل بعض أخلص صحابته.

وإذا كان من الصعب فعلاً التحديد الدقيق لأصل الجماعات الأربع التي ينتمي لها ثمانون بالمئة من العلويين اليوم فليس هناك شكّ أبداً في أنّهم أيضاً عرب، كما هو حال القبائل الكبيرة الأخرى في الأردنّ والعراق والخليج وليبيا وأماكن أخرى.

وهي الكلبية، الخياطين، الحدّادين، والمَتاورة، وتعداد هذه الجماعات الأربع متقارب فهو اليوم بين (150.000) و(250.000) نسمة في كلّ جماعة، وكلّ واحدة منها تنقسم بدورها لعشائر وأفخاذ يتفاوت عدد أفرادها. فآل الخيّاط من جماعة الخياطين يعدّون أكثر من مئة ألف شخص بينما العراجنة من جماعة المتاورة لا يتعدّون الخمسة آلاف. وحافظ الأسد هو عضو عشيرة الكراهيل من جماعة الكلبية. وعدد هذه العشيرة حالياً ثلاثون ألف شخص. وهذا التحديد ليس موضوعيّاً حيث أنّ من المعترف به تقليدياً، ولأسباب غير معروفة أنّ حافظ الأسد ينتمي إلى أفخاذ النُمَيْطِلَة Noumeitila من جماعة المتاورة.[56]

وانطلاقاً من هذه النقطة الخطأ، يُقَدّرُ المؤرخون الأكثر جدّية في العادة مثل (محمود فكْشْ،[57] و(حنّا بطاطو) إنّه ليس من قبيل الصدفة أنّ اللواء — الجنرال- (علي دوبا) رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية للقوى البريّة، واللواء —الجنرال- علي أصلان معاون رئيس الأركان ورئيس مكتب العمليات العسكرية، واللواء —الجنرال- علي صالح قائد القوات الجويّة ووحدة الصواريخ ينتمون أيضاً لجماعة (المتاورة) ومستشار الرئيس الأسد ورئيس مخابرات القوات الجويّة إلى آخر عام 1986 اللواء الجنرال —محمد الخولي- هو أيضاً عضو في هذه العائلة... المتاورة.

وأخيراً، يبيّن (بطاطو) أنّ عبدالحليم خدام نائب رئيس الجمهورية وأحد الرجال الذين يثق بهم الأسد، تزوّج، وهو مسلم سنّي عام 1954 امرأة من عائلة الهواش ذات الصلة بعشيرة المتاورة.

وهكذا فمن المضحك أيضاُ القول أنّ حافظ الأسد أحاط نفسه بالأعضاء الأقربين في عشيرته، أو التأكيد على أنّ أغلب المناصب الهامة —المفتاحية- يحتلّها أعضاء عشيرة النميطلة. وزير الدفاع صديق قديم للرئيس والمؤرخ لسيرته، مسلم سنّي مثل رئيس هيئة الأركان حكمت الشهابي أو رئيس الوزراء محمود الزعبي الذي خلف عام 1987 سنّياً آخر هو عبدالرؤوف الكسم.

وفكرة الانتماء القبَلي أو العشائري لم تُضْفِ أبداً أهمية ما، وإذا كان عدد العلويين المسؤولين الذين يحتلون مناصب رفيعة كبير جداً، فلقد جاؤوا كلّهم من الجماعات- الأربع؛ يونس يونس قائد الفرقة المدرعة التاسعة، وعلي حيدر قائد القوات الخاصّة جاءا من عشيرة الحدّادين. ويَتّهِمُ العلويون فيما بينهم

علَويّي جبلة وما جاورها بأنّهم هم الذين احتكروا السلطة.

وكما يشير هيثم منّاع بحق يوجد اليوم الكثير من الناس الفقراء، ومن المهاجرين نحو الخليج العربي، والمساجين السياسيّين من هذه الجماعات — العشائر– الأربع.[58] وبالمقابل: الزبائنية –الانتهازية– السياسية، والتقاليد العلمانية في الجبل وفي المجتمعات العربية تلعب دورها بعمق. وهكذا تخلّص الأسد عام 1972 —بتصفيةٍ جسدية– من منافسه الرئيسيّ محمد عمران، ومن بين أصحاب عمران القدامى —علي دوبا وعلي صالح... حتّى لا نذكر غيرهما– وهما اليوم بين أقدم المساندين للأسد...[59]

والحقيقة أنّ علاقات حافظ الأسد بطائفته الأصلية هي علاقات مصلحة، وكان من المستحيل عليه الاستمرار في قيادة سورية لولا دعم منطقته ومسقط رأسه له، ومن الطبيعي أن نجد فيها أفضل دَعْم من الذين هم أفضل معارفه.

وبالمقابل، التأكيد، كما لا تتوقف عن ترديده أجهزة الإعلام الغربية والعربية أو المعارضة السورية، أنّ الأسد يستبدّ به هاجس المصير للطائفة العلوية لدرجة لا تسمح له إلا بالتفكير الطائفي، هو أمر غير معقول؛ وطموحات الرجل لا تتجاوز فقط نظرة ضيقة للعالم كهذه، ولكن ممارسة مثل هذه السياسة أيضاً تُنفِّرُ منه بالتأكيد التيارات السياسية السورية؛ ومن التناقض أنّ بعض النتائج السياسية أثارت ضدّه جزءاً هاماً من الطائفة العلوية التي خشيت بعض إسقاطات مستقبلية لهذه الانتهازية المجرّدة، أو، بكلّ بساطة، عارضتْ كلياً ممارساته للسلطة لأسباب سياسية أو عقائدية، مثل غالبية الشعب السوري.

ومع ذلك وحسب المبدأ الذي يريد في الواقع إدانة تحضير القبائل، لا تقوم التحالفات منذ زمن طويل على أساس حصري، وكذلك يقلّ تدريجياً قيامُها على أساس قرابة الدم. وبالفعل الجماعات والأفراد المنتظمون حول شخصيات قويّة هي التي تضع اليوم بصورة متزايدة القانون في أراضي العلويّين. هذا ما حصل بالضبط مع جماعة الأسد في عام 1983 حين كان مرض الرئيس شديداً، خَلَقَ اثنان من إخوته رفعت وجميل حركة التحرير (المرتضى) داعين الشعب للانضواء تحت "القيادة الثورية الحكيمة لعائلة الأسد". ومجموعة أخرى قادها بعض الجنرالات قامت بعملية مماثلة ودعت للتعبئة لمصلحتها، الضباط العلويين وغير العلويين؛ وبعد شفائه من مرضه وضع الأسد نهاية لمبادرات أَخَوَيْه، وأبعدَ لبعض الوقت خارج سورية ممثّلين للفئتين. وإذا كانت حرب الخلافة قد انتهت في الظاهر، لم تترك آثاراً أقلّ عمقاً على واقع السلطة في سورية. آثار باقية حتى الآن كما سنرى بتفصيل بعد قليل.

المرأة العلوية

على كلّ حال إذا لم يكن في الحياة اليومية للرجل العلوي شيء يثير الحماسة في الثلاثينات من القرن الماضي، فحياة نساء الطائفة كانت تثير القنوط حقّاً. ليس لأنّهن فقط يعيشن الشروط المحزنة لغالبيّة الفلاحين العرب في ذلك الوقت، ولكن لأنّ العقيدة العلوية لا تعترف لهنّ بروح أو نفْس. المسافرون أو الرحالة -الغربيون والعرب- جعلوا لهنّ، من جهة أخرى سمعةً مشؤومة لا تستند في الغالب على أيّ شيء. وفعلاً، وبعكس الأساطير المشؤومة التي توجد أصولها في الاحتقار التقليدي الذي يَكُنُّه أهل المدن

للفلاحين، كانت بلاد العلويين في تلك الفترة إحدى المناطق النادرة في العالم العربي التي لا تعرف، كليّاً، الدعارة ومِثْلِيّي الجنس والأمراض الزهرية و«بعيدة عن عيوب أهل المدن، فالشعب العلوي خشن وصحيح؛» هذا ما لاحظه مغتبطاً أحد الموظفين الفرنسيّين (أَلْبير چرْلِنْ) عام 1931.[60]

حتى ولو استُثْنِيَتْ النساء العلويّات من العيوب التي يحاولون إلصاقها بهن، فهنّ لسن أقل خضوعاً لحياة قاسية بصورة خاصة: الأعمال الزراعية من سن التاسعة، وخطوبة مفروضة في سنّ الحادية عشرة -ليس هناك عزوبية وعنوسة عند العلويين- أمومة مبكّرة... الخ.

بعضهم أرادوا أن يروا في سياسة النظام الحالي بالنسبة للمرأة إرتكاساً في موقف الرئيس الأسد، بالنسبة للمصير المحفوظ للنصف الأضعف من الشعب السوري؛ والحقيقة ليست فقط في أنّ الرئيس الأسد كما يبدو، لم يلعب أيّ دور في إعلاء شأن المرأة، بل من المحتمل أنّه يسّرَ بعض التقهقر. وهكذا وقّع في 31 كانون أول 1975 على القانون رقم 134 للأحوال الشخصية الذي يشكّل تراجعاً بالنسبة للتدابير التي اتّخذها البعث، وبخاصة فريق صلاح جديد بين العام 1964 و1970.[61] وهكذا تبعاً لذلك، على المرأة، مجدّداً، الطلب من زوجها الترخيص لها بالعمل. والشيء نفسه بالنسبة للميراث. فالترتيبات المتعلقة بها هي، بوضوح، أقلّ فائدة.

حافظ... الفتى

القليل المعروف عن حقيقة فترات طفولة ومراهقة حافظ الأسد، وإن لم تكن مراقبة ومراجعة بدقّة، دوّنها بعناية (لوسيان بِتّرلِنْ) رئيس جمعية التضامن

العربي الفرنسي في مؤلّفهِ: (حافظ الأسد... مسيرة مناضل)،[62] وهي نوع من (التقديس) الهادف لتحسين صورة مثْلومة الصيت بدرجة متوسّطة لإنسان لا يعرف عنه الجمهور الفرنسي شيئاً كثيراً.

وُلد عام 1930 وهو الابن الثالث لعلي الأسد؛ الشقيق البكر أبو توفيق لم يرغب قط في مقاربة السياسة، واستمر في استثمار أراضيه بمساعدة بعض العمّال الزراعيين. (بيات) أوّل أبناء ناعسة الزوجة الثانية لعلي الأسد، مات في سنّ الثامنة عشرة، جميل ورفعت الأخوان الأصغران معروفان أكثر من أبي توفيق وحياتهما السياسيّة العسكرية غالباً ما ملأت صفحات الجرائد اليومية التي تدوّن الأحداث المختلفة، أمّا بهجة أخت حافظ فكانت آخر العنقود في العائلة المتوسطة العدد مقارنة بغيرها في تلك المنطقة وتلك الفترة الزمنية.

بعد دراسة ابتدائية حتّى سنّ العاشرة في المدرسة الصغيرة بالقرداحة، حيث أثار ذكاؤه الحاد (!) وذاكرته القوية الاستثنائية إعجاب معلّميه فحثّوه — جميعاً– على متابعة دراسته في اللاذقية. (لوسيان بِتّرلِنْ)، الذي يعرفه جيداً روى أنّ الأسد الفتى كان في السادسة من عمره يحفظ —عن ظهر قلب– ربع سور القرآن الكريم.[63] وهذا لم يمنعه من المشاركة في أعمال الحقل وإنجاز نفس ما ينجزه إخوانه وأخته. وهذا (الموهوب) ترك القرداحة في أوائل الأربعينات—من القرن الماضي– ليحلّ باللاذقية في شقّة مستأجَرة مكوّنة من غرفتين. ودخل ثانوية البلدة وسَجَّلَ فيها نجاحاً حسناً. ويتابع (بِتّرلِنْ): أمّا علاماته في اللغة الفرنسية فكانت ممتازة وأفضل من علاماته في اللغة العربية...

"في أوّل سنواتي بالثانوية، كنت جادّاً ومثابراً على دروسي، ولكن لم يدم

هذا المستوى كثيراً بعد ذلك عندما توجّهت نحو السياسة والحزب. تعلّمنا اللغة الفرنسية في سنين التعليم الابتدائي التطبيقيّة وكنا على مستوى جيّد فيها ولكن لم تكن لدينا بعد ذلك الإمكانات للتحدّث بهذه اللغة."(64)

هذا الإطراء يستدعي مع ذلك بعض الغموض. فحسب أبحاث دقيقة قام بها أناس لا يريدون له بالتأكيد إلا كلّ خير، عندما وصل حافظ الأسد إلى السلطة عمل على تغيير أغلب علاماته في كلّ الصفوف حتى صفّ البكالوريا -الثانوية الموحّدة- باستثناء ما يتعلّق منها بمادة السلوك. وفي هذا الميدان لم ينل إلا درجة -الوسط- ما يعني في الواقع أنّها ليست ممّا يستوجب الإطراء. ولكن كان لهذا "جانب صغير يستعصي على الطبخ"، ولم يكن يزعجه؛ وزملاؤه في الصفّ يروون أنّه في الحقيقة كان متوسطاً وأنّ قوّته الجسمانية النادرة هي التي كانت تعجبهم أكثر بكثير من ذكائه أو ذاكرته.

كان كبير الحجم والعضلات لا تنقصه الشجاعة خلال المظاهرات السياسية التي لا يتردّد فيها عن مواجهة الشرطة وضربهم!... وكان يحمل كذلك، دائماً سكيناً في الجيب كان يستعملها باستمرار حسب ما روى زملاؤه. وعندما انْتُخِبَ رئيساً للجنة طلاب الثانويّة ابتعد عن اللاذقية حيث عُرف نشاطه السياسي وتقدّم إلى فحوص الثانوية الموحّدَة في بانياس المدينة الساحلية إلى الجنوب قليلاً من اللاذقية.

ولما نال شهادة الدراسة الثانوية تردّد بين أن يدرس الطب أو يختار الكليّة العسكرية، ولأسباب عدّة لا يُتوسَّعُ في سرْدها، عَزَف عن كليّة الطب، وتقدّم بطلب دخول الكليّة العسكرية في حمص. وبعد واحد وأربعين عاماً

يُكتفى بذكر أنّ دخول الكلية العسكرية لم يكن سهلاً بالنسبة للبعثيّين. ومع ذلك دخل الكليّة مدفوعاً في الحقيقة على ما يظهر بمشكلات مالية بالإضافة إلى أنّه رغب في الانتقام لفلسطين الضائعة...

وفي تلك الفترة، بداية سنوات الخمسينات تعرّف الأسد على مصطفى طلْاس ابن مزارع سُنّي، والذي انضمّ هو أيضاً لحزب البعث منذ ساعاته الأولى، وطْلاس، الأمين بين الأمناء، صار وزير الدفاع منذ بداية سنوات السبعينات.

وحينما أطاح جمال عبدالناصر بالملكية في مصر عام 1952، كان أسد وطْلاس قد أنهيا الدراسة في المدرسة العسكرية، ونجحا في مسابقة الدخول لكليّة الطيران في حلب التي كانت حديثة الإنشاء. ولكن فيما عاد طْلاس العصبي المزاج إلى حمص ليتخصّص في سلاح المدرعات، بدا أنّ الأسد تأقلم بصورة عجيبة بمدرسة الطيران: "في ذلك الوقت اكتشفنا الطيران، لم أمتَطِ قطّ قبلاً الطائرة. وأول ساعات الطيران خلْف قبطان الطائرة، كانت بالنسبة لي اكتشافاً لعالم آخر. ثم بعدها... الشعور بأنّك السيّد في طائرتك في السماء يُعطي الإنسان أبعاداً أخرى".

طار أولاً في طائرات (سْبتفاير: Spitfire، و (شِب مارك Ship Mark و(فيات 55 و59)، وكلّها طائرات ذات مراوح. ثمّ بعد فترة تدريب في مصر طار في طائرات ڤامْبايِرْ Vampire ومِتيور Meteor أوّل طائرات نفاثة، وخلال دراسته في حلب نال لسنتين متتاليتين الجائزة الأولى في البهلوانيات الجويّة. وتعلّم أيضاً اللغة الإنكليزية استعداداً لفترة تدريب في بريطانيا العظمى، إلا أنّ ذلك لم يحدث في النهاية. في عام 1958 قضى أحد عشر

شهراً في الاتحاد السوفييتي ليتدرب ويتعلّم أيضاً قليلاً من اللغة الروسية. والغريب أنّه رغماً عن نيله مستوى (ممتاز) باللغة الفرنسية ودراسته في الثانوية لم يبد أبداً مرتاحاً في اللغات الأجنبية، لذا لم يتحدّث قطّ في مقابلاته الصحفية بلغة أخرى غير اللغة العربية، والنقاشات التي لا نهاية لها والتي دارت بينه وبين هنري كيسنجر جرت كلها دائماً بوجود مترجم. ولذا لاحظ كيسنجر على كل حال بشيء من الفكاهة أنّ الأسد استغل هذه الاجتماعات الماراثونية لتحسين لغته الإنكليزية: "قلت له، لإثارته، إنّه سيكون القائد العربي الوحيد الذي يتكلم الإنكليزية بلكنة ألمانية".(65)

ولَعُهُ باللغةِ العربية وهمّه فَهْمَها وإفهامها للغير أمران يُساقان باستمرار كسببين حالا دون استعماله لغات أخرى. ربما هذه طريقة للتراجع أمام محاورِه أو لإثبات دور بلده أيضاً في البحث المستمر عن الهوية. لم يكن عند عبدالناصر والسادات أبداً مثل هذا الخَفَر كوارثين هادئين لأقدم حضارات العالم. وعرفات نفسه أبدى تقدّماً مدهشاً في تعلّمه للغة (شكسبير) وللغة (فولتير) التي يفهمها اليوم بشكل تام تقريباً. والأسد الذي كان ملازماً سنة 1955 ونقيباً –كابتن– عام 1958 عاش مهنته خلال هذه الفترة بطريقة عادية كضابط جيد... مع بعض الإزعاج من رؤسائه بسبب آرائه السياسية.

ومنذ الاستقلال وجلاء آخر الفرق الفرنسية عام 1946، عاشت سورية عدم استقرار سياسي مزمن، فبعد عدّة أعوام من الحياة البرلمانية المضطربة عرفت البلاد أوّل انقلاب عسكري واستلم السلطة الكولونيل حسني الزعيم في الثلاثين من آذار 1949، وسَجَن ميشيل عفلق رئيس حزب البعث. وبعد

مضيّ خمس سنوات من أنظمة فردية أو ديكتاتوريات عسكرية، ثار الشعب في شباط 1954، وجرت انتخابات حرّة أسفرت عن برلمان غالبية أعضائه من المستقلّين وبرزت فيه أيضاً تنظيمات سياسية جديدة ومنها حزب البعث. واستمرّ الطالب الضابط حافظ الأسد، بالتعرّف على أفراح الطيران وشعر منذ ذلك الوقت بنفور شديد من عدم ثبات وتلوّن السياسيين سواء كانوا من اليمين أو اليسار، لأنّهم يعرقلون بحسب رأيه كلّ إمكانات التنمية؛ وفي السياسة القاعدة الأولى هي الاستمرار...

دمشق هي مكّة... السياسية والثقافية

من طبيعة غالبية السوريين إذن المقْتُ الشديد لكل ديكتاتورية عسكرية والرفض لكلّ اصطفافٍ مع الغرب. وفي مواقف أخرى تحفظ دمشق (مسافةً) بينها وبين القاهرة، وبينها وبين بغداد؛ بالنسبة للقاهرة لأنّ عبدالناصر، الذي لم يصبح بعد بطل العالم العربي –أصبح بطلاً بعد تموز 1956، عندما أمّم شركة قناة السويس– كان يعتبر نوعاً من الدكتاتور، من جهة أخرى، الإخوان المسلمون الذين ضربهم عبدالناصر بقسوة قبل فترة قصيرة لجؤوا إلى سورية ورسموا (للرئيس) صورة قاتمة...؛ وبالنسبة لبغداد، لأنّ حكومة نوري السعيد كانت تلعب بالأساس ورقة بريطانيا العظمى ومنخرطة كلّياً في حلف بغداد الذي يحاول مواجهة النفوذ المتنامي للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وكذلك الإبقاء على القواعد البريطانية في العراق، لأنّ مدّة المعاهدة الإنكليزية العراقية كانت على وشك الانتهاء.

حافظ الأسد الذي أنهى دراسته العسكرية وتخرّج (ملازماً ثانياً)، عُيّن في

القاعدة الجويّة في المزّة قرب دمشق. وكانت تلك الفترة من التاريخ هي التي شهدت بدء التعاون العسكري السوري – السوفييتي في ظلّ اندفاعة (الملياردير الأحمر) خالد العظم.

وفي مؤتمر (باندونغ) ربيع عام 1955، أكّدت سورية حيادها بعدما قاومت المطالب المستعجلة الضاغطة للقبول بقيادة عسكرية موحّدة مع مصر. وبينما كان الحزبان البعث والشيوعي اللذان يقودان حملة قويّة ضدّ الغرب يشهدان تنامي نفوذهما السريع، فسورية، حين كانت الحريات العامة أمراً معترفاً به، استضافت على أراضيها منفيّين جاؤوا من كل العالم العربي، "وفي تلك الفترة استطاعت (تبيئة پتران) إحدى أفضل الأخصائيين في الشؤون السورية، أن تكتب بحقّ: "إنّ دمشق أصبحت (مكة) السياسية والثقافية للعالم العربي.[66]

ومع ذلك فالعائلات الكبيرة ومُلاّك الأرض الكبار، كانوا يتمثلون في البرلمان بأعداد أكثر مما يستحقون، ويجعلون الحياة قاسية بالنسبة للنقابات – العمالية– واستمروا في رفض أكثر مطالب العمال والفلاحين، وفي آب عام 1955، جرت انتخابات رئاسية وانتخب شكري القوتلي. وبدأ تقاربا حسّاساً مع مصر وسبب ذلك: أولاً لأنّ ناصر التفت نحو تشيكوسلوفاكيا لشراء السلاح وتخلّى عن توجّهه نحو الغرب، ثم رفْض فرنسا بيع السلاح لسورية.

نحو قيام الجمهورية العربية المتحدة

مع تأميم شركة قناة السويس في تموز –يوليو– 1956، انحسر بصورة كبيرة نفوذ العناصر الموالية للغرب وللعراق في سورية لمصلحة جمال عبدالناصر الذي اكتسب شعبية واسعة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي الفارسي.

والبعث الذي حَذرَ لمدة طويلة البكباشي –الكولونيل- المصري الشهير غيّر رأيه تماماً، ظاهراً على الأقل، وذلك لأنّه لا يستطيع السير عكس التيار الحماسي الشعبيّ الواسع الانتشار الذي يَحْملُ البكباشي.(67)

وعام 1957 كان آخر سنة تمثّل فيها سورية ومعها لبنان الفرادة لكونها الدولة العربية الوحيدة التي تعيش حياة ديموقراطية طبيعية تقريباً. ومع ذلك رفْض دمشق، بداية عام 1957، لمبدأ أيزنهاور الذي ادّعى تقديم الحماية الأميركية للبلاد المهدّدة بـــ(الشيوعية العالمية) سيقود الأمريكان والبريطانيين لإعلان حملة شديدة ضدّ سورية أسهمت في إعلان نهاية الأمل بالديموقراطية في تلك البلاد. ولم يتردّد "مراسل جريدة النيويورك تايمز" في الشرق الأدنى (كنيث لوف) بالكتابة أنّ الـــ(سي أي إيه) –CIA- تنقل الإشاعات غير الصحيحة.(68) ومع مساندة العربية السعودية، وبشكلٍ ما مصر، التي كان لها حاجة ماسة للبنك الدولي، استطاع الأنكلوساكسون تقسيم الفريق الحاكم في دمشق الذي يضم البعثيين وأعضاء من الحزب الوطني (يسار الوسط) وشخصيات تقدميّة وعدّة شيوعيين. وكان هدف الأميركان عزل الشيوعيين. وتابعت كذلك الولايات المتحدة حملتها في تقويض كيان سورية الاقتصادي، بإغراق اليونان وإيطاليا بالقمح الأميركي الفائض، وكانتا الزبونتان التقليديتان لسورية؛ حتى ذلك التاريخ كان الإيطاليون يستعملون الدقيق السوري لتصنيع المعجنات الغذائية...

وفي مثل هذا الجو المتأزّم وفي شهر كانون أول، من عام 1957 زار وفد برلماني مصري دمشق وطلب من الحكومتين إقامة اتحاد فدرالي" بينما

الدعايات القاهرية والشارع السوري ينادیان "وحدة وحدة يا جمال"! مطالبين من جهتهم بوحدة كاملة.

وفي 12 كانون ثاني 1958، سافر وفد عسكري سوري مكوّن من أربعة عشر ضابطاً من الرُتَب العالية إلى القاهرة، وطالبوا بدمج الجيشين. ولحق بالوفد وزير الخارجية وأحد مؤسّسي حزب البعث، صلاح البيطار وأعلن أنّه يريد هو أيضاً وحدة كاملة مع مصر، ولم يُستشَر في هذا الخيار الكبير لا البرلمانيون ولا الأحزاب السياسية ولا حتى الشعب السوري. والواقع أنّ البعثيين كانوا مقتنعين أنّهم سيكونون روح ومادة الجمهورية العربية المتحدة، التي أعلنت في 1 شباط 1958. لقد جهلوا تماماً شخصية عبدالناصر.

وأمام قبر صلاح الدين الأيوبي أطلق الرئيس وعْده باتّباع مَثَلِ صلاح الدين –الكبير– وتحقيق الوحدة العربية الكاملة، ولكن من أجل الوصول إلى هذا الهدف لم يوفّر أيّة وسيلة. وعلى أساس الدستور المصري لعام 1956، الذي يعطيه كل السلطات، سَمَّى، وهو السيد المطلق، أعضاء الحكومة المركزية للجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م.) كذلك أعضاء الحكومتين في الإقليمين. ودون اهتمام كبير بمداراة الحساسيات السورية، اكتفى بتوزيع بعض المناصب الشرفيّة على شركائه الجدد: نائبان للرئيس ووزير دولة، وفي أقلّ من ستة أسابيع قبلت كلّ الأحزاب السياسية حلّ نفسها باستثناء الحزب الشيوعي. واختفت هكذا ببساطة كاملة تسع عشرة صحيفة يومية سورية من أصل خمس وعشرين، بينما خضعت الصحف القليلة الباقية لرقابة شديدة من قبل الأجهزة الرقابية المصرية المدقّقة. وكانت ردود الفعل المعادية لهذه

الخطوات قليلة جداً. خالد العظم هو السياسي السوري الوحيد الذي رفض الوحدة مع مصر وتخلّى بعدها عن كلّ نشاطات سياسية، واستقال عفيف البزري قائد الجيش الأول من منصبه احتجاجاً على التسريحات التي قام بها عامر الرجل الثاني في مصر والتي طالت الضبّاط السوريين التقدّميين.(!).

والجهل بحقائق سورية والعجرفة المصرية، واعتقادهم بأنّ قوانينهم وعاداتهم تناسب سورية تماماً خلقت فوراً حالة عدم ارتياح شديد. ولكن شخصية عبدالناصر الكارِزْميّة –التي تستهوي الجماهير– كانت لا تزال تعوّض إلى حدٍ كبير عن أخطاء مواطنيه.

وكان لخلق الجمهورية العربية المتحدة ردود فعل هامّة في كلّ المنطقة، ففي العربية السعودية أجبر الملك سعود على التخلّي عن العرش بسبب ما أصابه من بارانويا –نـــزعة شك وارتياب– وسوء تصرف، لأخيه الأمير فيصل الذي كان يقيم علاقات طيّبة مع عبدالناصر.

ولكن شهر العسل لم يدم طويلاً، وفي لبنان اشترك الأمريكان والمصريون في حلّ مشكلة من سيخلف الرئيس كميل شمعون الموالي المعروف للبريطانيين الذي أراد الاستمرار في السلطة؛ فجِئَ بالجنرال فؤاد شهاب، الذي كان يتمسّك بحياد شديد ويتعلّق بفكرة تنمية البلد على أسسٍ أكثر سلامة وعقلانيّة.

ولكن ما إن جاء تاريخ 14 تموز 1958 في العراق حتى أُطيح بالملكية واستلم السلطة عبدالكريم قاسم الذي لم يُشاطر غالبية مواطنيه مشاعرهم نحو صفارات إنذار القاهرة، كون عبدالناصر يعارض بخاصة ضمّ الكويت للعراق،

وضاعف قاسم اتصالاته ومبادراته الانفتاحية على السوريين ليحثّهم على الخروج من تبعيّتهم لمصر. ولم يجد عبدالناصر رداً على هذا التحدّي الجديد إلا بتشديد قبضته على الإقليم السوري. وهكذا كانت حكومة الإقليم السوري مربوطة بصورة مباشرة بالسلطة المركزية في القاهرة. وكان (رئيسها) أكرم الحوراني الذي أُعفي من كلّ مناصبه، قد دُعي بصورة عاجلة للحلول في القاهرة كوزير للعدل.

وفي بضعة أشهر تحوّلت دمشق الفخورة إلى ضيعة كبيرة بدون أي نفوذ حقيقي. وهجر دبلوماسيو الدول الكبرى والمتوسطة ضفاف بردى ليلتحقوا بضفاف النيل؛ كل شيء أصبح يُقرّر في القاهرة؛ وهكذا انتهت كلّ أوهام البعثيين منذ ذلك الحين، وكانت للإخفاقات المتتالية لحزب البعث آثار شديدة بعد ذلك. ولقد تنازل (الحرس القديم) في أعين الجيل الشاب، واستنكروا، باستثناء الناصريين الأشداء بينهم، قرار قياداتهم بحلّ الحزب قبل ثمانية عشر شهراً.

ولما طفح الكيل عند عبدالناصر من المُعَوّقين الذين جعلوه يدور في حلقة مفرغة، عيّن عبدالناصر المشير عبد الكريم عامر نائباً لرئيس الجمهورية — في الإقليم الشمالي-. وقام هذا بدوره (بتعويم) كبار ملاك الأراضي وبدأ يغازل علناً عالم رجال الأعمال. وكانت هذه نقطة الماء التي جعلت الإناء يفيض بما فيه. وفي الخريف استقال كلّ الوزراء البعثيين في الحكومة المركزية وانفجرت مواجهات طلاّبيّة في جامعة دمشق بين البعثيين والناصريين. وتحوّلت سيطرة ناصر على سورية إلى ديكتاتورية بوليسيّة وبلغ فساد الضباط المصريين المعيّنين في الإقليم السوري حدّاً مرتفعاً: اختلاس وابتزاز وتهريب مخدرات...الخ.

والجفاف الذي ساد خلال هذه السنوات الثلاث زاد من حدّة الأزمة؛ والإصلاح الزراعي [redacted] الذي قادته السلطات المصرية لم يثمر باستثناء [redacted] الفرات [redacted]، والتي بقيت على كل حال أمينةً لعبدالناصر حتى [redacted]

وفي [redacted] 1961، استلمتْ مجموعة من الضباط السوريين السلطة في دمشق بعد [redacted] الوطنيين من تمصير مجتمعهم، وفشلت تماماً محاولات الجيش [redacted] في [redacted] الأمور لرفض الوحدات السورية الأخرى التعاون [redacted] الجمهورية [redacted] للمتحدة، ولكن من الغريب أن يُستبعد ناصر من [redacted] هذه المغامرة والذي عزيَ إلى معاونيه.

حافظ الأسد في ج.ع.م

لا نعلم الكثير عن تصرفات [redacted] خلال هذه الفترة الشديدة الاضطراب. ويجرى الحياة [redacted] طبيعيا تماما [redacted] سوري شاب. في عام 1956 اشترك لأوّل مرّة في [redacted] محدود. فقد ثار عدد من رفاقه البعثيين والتقدّميين عندما قدّروا [redacted]. الواقع أنّهم أطاعوا رئيس البعث، أكرم الحوراني الذي كان [redacted] القوتلي. [redacted] الأسد مع ثلاثين آخرين بالاستيلاء على القاعدة [redacted] قرب دمشق ومَنْع الطيارين الموالين للنظام من استعمال طائراتهم [redacted] وانتهى الأمر في مدّة قصيرة واتخذت بحقّ الأسد ورفاقه [redacted] إدارية [redacted]، قال صديقه القديم مصطفى طلّاس —وزير الدفاع [redacted] أن المدنيين في الحزب وضعوا العسكريين في مأزق بمغامرة رتّبها الحوراني.[69] وهذا درس لن ينساه

الملازم الشاب حافظ الأسد.

وبالنسبة لهذا الأخير كان عام 1958 هامّاً من نواح عدّة، لقد تزوّج من أنيسة مخلوف وأنجبت له بعد ذلك خمسة أولاد: أربع صبية: باسل وبشار وماهر وماجد، وفتاة: بشرى. ولكن الأهم أنّه بعد تدريب دام عشرة أشهر في الاتحاد السوفييتي اختير مع ستّين من رفاقه الضبّاط للسفر إلى مصر، لم تُعْرف أسباب هذا النقل ربّما كان الموضوع الحقيقي رغبة جمال عبدالناصر في اكتساب عواطف البعثيين في الجيش، البعثيين الذي لا يحملهم في الحقيقة على محمل الجدّ، إلا أنّه يحذرهم ويفضِّل وجودهم تحت إشرافه في مصر.

ولقد عهد بمسؤولية المطار الحربي في القاهرة على طريق الإسماعيلية إلى حافظ الأسد، إنّها (يافطة) حزينة بالنسبة لشاب طموح! فالمحيط ليس مفرحاً: "لقد شعرنا أنّنا في وضع دوني ولم نكن نعلم لماذا"، هذا ما ذكره لاحقاً أحد الضباط السوريين المنفيين في وادي النيل. وبالنسبة لهؤلاء الضباط فلقد نما عندهم اليقين بأنّ ناصر لا يستحق شعبيّته. قالوا "ليس لديه حزب مثلنا، وإيديولوجية، وجنوده غير مدربين جيداً مثل جنودنا"، وبتعبير آخر ظهرت بسرعة مشكلات السلطة التي تعارض الفريقين.

ومع ذلك، حتى لو أنّ السفر لمصر استطاع زيادة الشعبية، فالضباط البعثيون في المنفى، المحرومون من حزبهم الذي حُلّ وقت الوحدة الشاملة، شعروا أنّهم أيتام. وبعدما اقتنعوا بسرعة أنّ عبدالناصر لن يحقّق الوحدة العربية قرّروا الدفاع عن حزبهم، والذي بدونه تبقى هويتهم موضع شك، فأنشأ الأكثرهم نشاطاً في هذا الميدان اللجنة العسكرية.[70] ومن بين مؤسسيها نجد

ثلاثة علويين: محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد. وإسماعيليّين. وانضم ضباط آخرون مثل مصطفى طْلاس السنّي إلى الجمعية السريّة. وكان كامل عددهم خمسة عشر، وسيلعب أغلبهم مستقبلاً دون أن يدروا دوراً مهماً في تاريخ بلادهم. وكان لدى الجميع خاصية أساسيّة هي كونهم معارضين للمسؤولين في ج. ع. م، كما يعارضون الآباء المؤسّسين للبعث، وكذلك لكلّ الضباط البعثيين الكبار المرتبطين بأكرم الحوراني.

على كلّ حال، كان الحزب والتجربة الناصرية يشغلان أفكارهم الأساسية، وكما ذكر أحد المراقبين الفكهين للمسرح السوري، لم يجد أيّ ضابط سوري أعزب الوقت للزواج من امرأة في مصر.

وأدّى انهيار ج. ع. م. بالنقيب حافظ الأسد إلى السجن لأوّل مرّة، فلقد سجن ما يقرب من شهرين في معتقل (أبو زعبل) بقرب القاهرة، نتيجة تدابير انتقامية اتخذتها السلطات المصرية. ولقد أطلق سراحه في أوّل أيّام العام 1962 فعاد إلى سورية واستلم وظيفة ثانوية في دائرة صغيرة بوزارة الاقتصاد. ولقد سمحت له وظيفته على ما يبدو بمساحات واسعة من الراحة، لأنّه وجد الوقت اللازم لتحضير مؤامرة في عدّة أشهر ضدّ رئيس الجمهورية ناظم القدسي. وأُجهضت المحاولة عندما رفض أغلب السوريين رؤية العسكريين يعودون إلى السلطة، وأسد الذي تخلّى باحتراس عن قيادة العملية لأصدقائه، وجد الوقت للهرب إلى لبنان حيث قبض عليه في بيروت وسجن تسعة أيام قبل إخراجه من لبنان ليعود لسورية ويسجن لعدة أشهر في المزّة.

"في السجن، يذكر مصطفى طْلاس بعذوبة: كانت معنويات حافظ الأسد

ممتازة ومقتنعاً بأنّ أفكاره ستنتصر يوماً ما، كان من أوائل من أطلق سراحهم، كمدني واستطاع هكذا أن يعمل من أجل (ثورة) الثامن من آذار 1962 مستفيداً من خبرة اكتسبها من الإخفاقات والتجارب السابقة".[71]

فترة الانفصال

خلال الثمانية عشر شـــهراً التي مرّت من 28 أيلول 1961 إلى 8 آذار 1963، والتي عرفت "بفترة الانفصال" كان الجو السياسي الليبرالي نسبياً، الذي ساد تلك الفترة مذكّراً بأجواء سنوات الخمسينات، وفي هذه الفترة تحضّر حزب البعث أساساً لاستلام السلطة.

بعد انتخابهم ديموقراطياً في كانون أول 1962 قام رئيس الجمهورية ناظم القدسي ورئيس الوزراء معروف الدواليبي وأصدقاؤهم في حزب الشعب القديم باستعجال إلغاء تدابير التأميم التي اتخذت في عهد الجمهورية العربية المتحدة، وبذلك أزالوا كلّ فائدة مرجوة من الإصلاح الزراعي، وهذه التنازلات لمصلحة كبار البرجوازيين وكبار مُلاّك الأراضي الإقطاعيين، كانت في الواقع أوّل الأخطاء الكبرى للحكومة الجديدة، وهي كما عرضها بحق (إيتامار رابينوفتش) فكرتا القومية العربية والاشتراكية، وهاتان الفكرتان على ضبابيّتهما أصبحتا متلازمتين غير منفصلتين، وتناسبان ذوق تلك الأيام.[72] وفي الجيش حيث لم يخفي الضباط التقدميّون مواقفهم وتصلّبهم تجاه زملائهم (الرجعيين) انتشر عدم الرضى.

وفي نيسان 1962 اجتمع مؤتمر عسكري في حمص لدراسة الحالة، وكما أشار بعد ذلك اللواء زهر الدين قائد الجيش، كان في قلب المؤسسة العسكرية

تيّار يضم وحدات يقودها ضباط لا يحملون في قلوبهم إلا الحقد والكراهية لدمشق وسكّانها.(73) وهكذا نرى إذن وجوداً متزايداً أكثر من أيّ وقت مضى للتعارض القديم بين الريف والحضر. الفلاحون ضد برجوازية المدن. وبدأت الأمور في التعبير عن هذه المواجهة! وبينما تتابَعَتْ وتراكَمت التعديلات الوزارية، كاد حزب البعث يُصبح مجموعة لا يمكن حكمها حيث يتعايش بصورة حسنة أو سيئة، (والأغلب أنّها سيئة أكثر منها حسَنَة) عدّة حساسيات تتفاوت بين الناصريين الذين أنشؤوا بعد فترة قصيرة حزب الوحدويين الاشتراكيين. والمعادين للناصريين مثل أكرم الحوراني مروراً بالمستقلين وانتهاءً (بالماركسيين). وهذه التيارات الأربع تتواجد في المؤسسة العسكرية كما في المدنيين من أعضاء الحزب.

ويتجنّد الأكثر نشاطاً عند المناضلين القدامى في البعث الذين يريدون لتشكيلهم عقيدة ماركسية عالمية حقيقية، كذلك عند الشيوعيين القدامى الذين لا يقبلون بعد اليوم أن يبقى الحزب الشيوعي السوري (إقطاعاً) لـــ(موسكو). فهؤلاء وهؤلاء ينوون مهما كلّف الأمر الانتهاء من الاشتراكية الغافية للآباء المؤسسين.

وميشيل عفلق المتجاوَز من كل جهة يُسعفه الانقلاب الذي حدث في الثامن من شباط 1963 في العراق، بتنفّس الصعداء. فنجاح (الإخوة العراقيين) والذي أسهم هو فيه إلى حدّ كبير، يسمح له بإعادة اعتباره، ويجبر في الوقت نفسه أعضاء اللجنة العسكرية على إعادة النظر بمخططاتهم في نفس الوقت الذي يتهيؤون لاستلام السلطة في سورية.

ومن الغرابة القول السائد إنّ حزب البعث وصل إلى السلطة في الثامن من آذار 1963، بينما الانقلاب الذي حصل في ذلك اليوم قام به ضباط —غير بعثيين-. وفي مساء الثامن من آذار وفيما يحكم الجيش قبضته على البلاد، دعا النقيب سليم حاطوم الدرزي، باسم المجلس الوطني للقيادة الثورية من على أمواج محطة الإذاعة الرسمية عدداً من الضباط السابقين —المطرودين من الجيش- إلى الالتحاق بالجيش. ومن بينهم كان النقيب حافظ الأسد.

على كلّ حال، رغم أنّ الضبّاط البعثيين كانوا أقليّة إلا أنّهم كانوا بوضوح منظّمين بصورة جيدة داخل المجلس الوطني للقيادة الثورية واستطاعوا توسيع المجلس —الثوري- هذا بإضافة عشرة أعضاء كلّهم من المدنيين ومن بينهم خمسة بعثيين. وأصبح مجموع عدد البعثيين في المجلس ثمانية من أصل عشرين إلا أنّهم استندوا إلى بعض (المستقلين) وحصلوا على منصب رئيس المجلس والذي استلمه صلاح البيطار. وتسلّم زميله المؤسس ميشيل عفلق رئاسة القيادة القومية الجديدة. ولكن اللجنة العسكرية المشهورة هي التي انفردت بالإدارة المطلقة للجناح العسكري في الحزب. وفي عام 1991 أي 28 سنة بعد ذلك... لا زال العسكريون دائماً في السلطة.

وخلال عدّة أسابيع أزاح الضبّاط البعثيون، الذين كانوا هم الأسياد الحقيقيّين في البلاد، منافسيهم الحقيقيين الوحيدين الضباط الأمناء لعبد الناصر. وفي نفس الوقت استلم صلاح جديد الرجل الذي بدأ يرتقي سلّم السلطة مديرية شؤون الضباط وهو منصب استراتيجي رفيع.

وفي صيف عام 1963 تمّ الانشقاق كلياً عن مصر وعن عبدالناصر، وفي

خطابه الذي ألقاه بمناسبة الذكرى السابعة لتأميم قناة السويس هاجم هذا الأخير الطبيعة الملحدة وهرطقة عقيدة البعث. حتّى أنّ أحد الموالين له، وهو الرئيس اليمني عبدالله السلال، تساءل علناً عن الاسم المسيحي لـــ(ميشيل) عفلق مؤسّس الحزب. وردّت أجهزة الإعلام البعثية بحيويّة على هذا التهجّم البائس.[74]

وفيما تزايد بسرعة عدد الملتحقين بحزب البعث، وكذلك هبطت نوعية المنتسبين الجدد، وأظهر المؤتمر القومي السادس للحزب تغيّراً هاماً في الغطاء الإيديولوجي للحزب، وفي تشرين أوّل أكتوبر 1963 لم تظهر قط الفكرة المركزية للوحدة العربية في العقيدة إلا بصورة ثانوية بينما تغلغلت الأفكار الماركسية اللينينيّة شيئاً فشيئاً في فكر ومفردات الحزب.

ويجدر هنا أساساً تحديد المضمون الاجتماعي للوحدة العربية التي هي على كلّ حال حقيقة لا يمكن تجنّبها. وبتعبير آخر لن تتحقّق الوحدة العربية أبداً إلا عبر الاشتراكية العلمية. وهكذا عمد المنظّرون الإيديولوجيون الجدد[75] إلى إقامة المزارع الجماعية. وخلال صيف 1963 بدأ رأساً تأميم مصانع النسيج في حلب.

والواقع، فيما ساعد عفلق والبيطار المذهولَيْن في إعدام (وليدهما)، كان لدى العقائديّين في الحزب أولوية الأفكار الاشتراكية التي تعلو وتسبق كل شيء آخر والتي كان لها الوزن القاطع... إلى أن جاء حافظ الأسد ووضع حداً أواخر عام 1970 لكلّ العناء الضائع الذي دعّم سيطرتهم على أجهزة السلطة. ومنذ عام 1936، وبصورة أوضح في عام 1964 كان هناك تياران

واضحان في قلب حزب البعث: الإصلاحيون المعادون بعنف للشيوعيين والممثَّلين بالحرس القديم، والآخرون وهم عموماً من أصول ريفية أكثر تأثراً بالأفكار الاجتماعية وغير متحمّسين كثيراً لفكرة الوحدة العربية التي يتمسك بها بقوة (قدماء) الحزب. وكان كل أعضاء اللجنة العسكرية من التيار الثاني، وكان أغلبهم علويّين. ولكنهم لم يشكّلوا جبهة مشتركة.

الاستيلاء على السلطة

وبالنسبة لحافظ الأسد الذي، بعد تصفية (يمين) الحزب، تخلّص بعد عدّة سنوات، من كلّ العقائديين اليساريين الصلبين الذين يُثقلون على الحزب: الإصلاح الزراعي والتأميم والتدابير الاجتماعية الأخرى لا تمثل إلا مصلحة محدودة. وفي توجّهه الكامل نحو استلام السلطة أجهد نفسه بخاصة في تلك الفترة في تأسيس زبائنيه حوله: عصبة من الأمناء التي ستسمح له في ما بعد بمناورات لبقة لإبعاد كلّ منافسيه واحداً[76] بعد الآخر.

ففي عام 1963 ورأساً بعد إعادته إلى ثوبه العسكري بدأ الأسد ببناء سلطته الشخصية بمهارة نادرة. فأوعز إلى ملازم شاب (محمد الخولي) الذي يعمل معه لإقامة أسس جهاز مخابرات للقوات الجويّة والذي سيستعين به في أول السبعينات لإنجاز استيلائه على السلطة ثم يُريحه بعد ذلك. ومن المدهش تماماً الملاحظة أنّ الأسد كان الرجل الوحيد في سورية الذي يؤسّس لنفسه، وليس للدولة، جهازاً سرياً! وذلك منذ 1965، حيث شكّل لنفسه ميليشيا (سرايا الدفاع الشهيرة)، والتي شهّرت بعد عشرة أعوام أخاه رفعت.

ومع ذلك إذا صدّقنا رفيقه الدائم وزير الدفاع الحالي مصطفى طْلاس،

كان حافظ الأسد يعلم تماماً مسبقاً في تلك الفترة أين يضع قدميه؛ «يقول في السياسة الخارجية ليس هناك حب أو كراهية خالدَيْن ولكن هناك فقط مصالح دائمة، وعلى هذا الأساس يجب أن ندافع عن مصالحنا والتعامل مع الدول الأجنبية في ضوء مساندهم أو معارضتهم لمصالحنا الوطنية (القومية)». فسياستنا الخارجية يجب أن تكون بمأمن من التشنجات والقفزات المزاجية.[77]

في ذلك الوقت، كان حافظ الأسد في الخامسة والثلاثين من العمر وكان يعرف تماماً أنّ المستقبل هو ملك يسار الحزب، وهذا التكيتكي البارع البعيد قدْر المستطاع من الإيديولوجيات، لم يتردّد في التأكيد متراجعاً: ليس من الممكن الاستمرار في التردّد أكثر من ذلك مع فريق يحمل في طياته تناقضات عميقة على مستوى النظرية الثورية. وفي الثالث والعشرين من شباط 1966 احتل سليم حاطوم وعزّت جديد دمشق وسيطرا على كلّ المحاور والطرق المؤدية للعاصمة السورية وشغلا مبنى التلفزيون، وأوقف رئيس الجمهورية أمين الحافظ وأودع السجن بينما اضطرّ مؤسّس الحزب لترك سورية إلى لبنان.

وبعكس ما روته الأساطير، فلقد بقي دور الأسد في ذلك اليوم (التاريخي) ثانوياً رغم أنّ الرجل الذي سيصبح وزير الدفاع تابع الأحداث عن قرب وأسهم في إنجاح الانقلاب، وفي تلك الفترة كان حافظ الأسد بالتأكيد رجلاً يحظى بأهميّة متصاعدة ولكن رجل النظام القويّ في الحقيقة كان، بدون منازع، صلاح جديد.

شخصية تُثير الفضول، هذا الضابط العلوي الذي خسر المواجهة عام

1970 أمام الأسد، وهو يقبع في سجون غريمه منذ ذلك التاريخ. وهو بعثيٌّ مخلص مقتنع بأنّ الاشتراكية هي الطريق الوحيدة التي تؤدي للوحدة العربية، لم يأبه كثيراً لاحتمال الشك في أنّه يغذي التعصّب الديني، عندما انزعج في عدّة مناسبات، من طائفية بعض رفاقه، يريد صلاح جديد بطريقة معنوية فظة سعادة الشعب. وهو ممثل مناسب تماماً لجيل من الضباط ذي الأصول الريفية والجبلية، وهو يحذر البرجوازية المدينية المسلمة السنية في الأساس كما يحذر الطاعون. ولكنّ موقفه الدوغمائي المتوتّر، هو وزملاؤه، أفقده —وأفقدهم— عطف الغالبية العظمى من الشعب السوري الذي يتمرّد بشدّة على كل محاولات التجنيد والتعبئة.

صلاح جديد الثوري الخالص والقاسي يتخلّى صبيحة الانقلاب -وهو السابع عشر منذ الاستقلال- عن كل وظائفه ومناصبه رغم أهميتها الاستراتيجية في قلب الجهاز العسكري ليصبح أميناً عاماً مساعداً في القيادة القومية لحزب البعث، فمنصب الأمين العام في ذلك الوقت كان محفوظاً لرئيس الدولة. على كل حال، الأمين العام المساعد هو منصب استراتيجي أيضاً، وكبعثيّ جيّد كانت مسيرته متماسكة لأنّه يعتقد بأولويّة الحزب على الجيش تشبّهاً على كلّ حال بالماركسيين اللينينيين الذين تأثر بهم كثيراً. وفي اختياره لهذا الحلّ، ورغم بقاء بعض رجاله داخل الجيش، خسر مسبقاً النـــزال مع حافظ الأسد الذي يؤمن بالقوة العسكرية- ويستعملها كما رأينا، بتأمين المزيد من الضباط الموالين إلى جانبه، فعليهم فقط، حسب رأيه، يمكن الاعتماد حقاً.

وفي هذه اللعبة المعيّنة لا يوجد في سورية منافس للأسد ولقد برهن على ذلك بصورة صارخة يوم حرب 1967. فبينما أُخذت غالبية رفاقه بالدعاية المصرية فوقعوا وعيونهم مغمضة في الأفخاخ المتعدّدة التي نصبها لهم الإسرائيليون، فَهِمَ وزير الدفاع السوري منذ مدّة طويلة أنّ الجيوش العربية لا تستطيع بعد، الانتصار على الجيش الإسرائيلي. ولجنة التنسيق العسكرية التي أقيمت بين القاهرة ودمشق في 4 تشرين الثاني 1966 لم تستطع إقناع هذا المخطّط البارد الأعصاب. كذلك لم يكن لدى السوفييت أيّة أوهام عن هذه اللجنة، وحاولوا بكلّ الأساليب كبح الحماس العسكري عند العرب. وبطلبه إلى قوات الأمم المتحدة الانسحاب من سيناء ومن قطاع غزّة ارتكب عبدالناصر خطأ لا يغتفر، رغم أنّنا نعلم اليوم أنّه لم ينو قط محاربة إسرائيل. ولكن من الناحية السيكولوجية —النفسية- كان التأثير كارثياً في الرأي العام الغربي المقتنع بأنّ العرب ليس لديهم أيّ فكرة أخرى غير تدمير الدولة اليهودية! وكان الرئيس ديغول إذاً هو السياسي الوحيد الذي فهم مآل هذه الدراما التي تتشكل، ولهذا اقترح على القوى العظمى الثلاث الأخرى منْع الفريقين من دخول الحرب. ومن ناحية أخرى عندما خطّأ مسبقاً الفريق الذي يبدأ العدوان، لم يسع الجنرال ديغول فقط للحفاظ على السلم، بل قدّم للعرب مخرجاً مشرّفاً. ولكن الإسرائيليين لم يأبهوا لهذا الاقتراح واستغلوا المناسبة لتحقيق أحلامهم التوسّعية القديمة.

كان تحليل الأسد متطابقاً إلى حدٍ كبير مع رأي ديغول —ولكنه لم يكن يملك كلّ السلطات، وكونه غير قادرٍ على مواجهة العواطف المجنونة التي تحرّك

الشعوب العربية، وقف إلى جانب قرارات الحكومة ورئاسة الأركان في نفس الوقت الذي ضغط فيه لكي لا يُضحّى حقاً بالطيران السوري ولازال خصومه وأعداؤه حتى اليوم يتهمونه خطأ بتراجع لم يكن هو وحده المسؤول عنه. والواقع، يمكن التفكير أنّه باختيارهم الحذر أنقذ حكّام سورية آنذاك — المفروشات!؟[*] وعلى كلّ حال كان واضحاً لدى حافظ الأسد أنّه والمسؤولين السوريين الأخرين كانوا جميعاً سُيكْنَسُون لو أدّت خسارتهم إلى خسارة السلطة!!

ولكن بالنسبة لهذا الرجل ذي السابعة والثلاثين ربيعاً كان الإذلال الذي أصابه أمراً لن ينساه أبداً. ولسنوات عدّة –ودائماً على مسافة معينة من رفاقه المغامرين– تحمّل ذلك دون أن يتذمّر من الحذلقات الأكثر وقاحة والخطابات الفارغة تماماً. وفيما تركهم يثرثرون عمد إلى تقوية أجهزته الأمنية ومليشياته ويجمع حوله الرجال الموثوقين الذين تزايد عددهم باطّراد، ويعرف أنّه بإمكانه الاعتماد عليهم يوماً ما. وضياع الجولان والعدل الضائع لدى المسؤولين الذين يعتبرهم مغامرين خطرين، دفعا بالبلاد إلى حافة الخطر. لذلك وجب عليه أن يمسك بيديه مقاليد السلطة في البلاد. وعمد إذن، ليس لدمقرطة الحزب،(78) مثلما أحبّ أن يذكر ذلك بعد عشرين عاماً، ولكن بركاكة أكثر، بل لتصفية خصومه السياسيين ليضع مكانهم أصدقاءه، ومثلما روى دون مواربة مصطفى طْلاس الأمين الذي أصبح رئيساً للأركان في شباط 1968، وكان حافظ الأسد يعي ما يجول في ذهن صلاح جديد داخل القيادة، ويعرف أنّ سلوك صلاح

(*) أي أنّهم خسروا الدار وحَفَظوا (النظام)!.

جديد جعل سورية مستبعدة من قبل حلفائها المصريين الذين لا يثقون بنا؟ كذلك على الجيش أن يكون ولاؤه لوزير الدفاع، فاتّخذنا الاحتياطات المفترضة بتطبيقنا لمناورة سُمّيت (بالأرضِ شوكي). كل يوم ننقل ضابطاً لم نكن واثقين من ولائه.

ولم يستطع صلاح جديد التدخل يومياً لصالح المنقولين. ولكن في أحد الأيـــام لاحظ أنّه لم يبق له عناصره الموالية له وطالب بتحكيم القيادة القومية.[79] في الماضي، قبل أن يصبح آخر ضحيّة من ضحايا حافظ الأسد، ساعد صلاح جديد، وهو بلا أيّ قوّة، في تصفية أصدقائه الدروز والإسماعيليين؛ وغابت الأقليات السورية التي احتلّت مكاناً عالياً داخل الحزب والجيش، وأخْلَتْ مكانها للطائفة العلوية الوحيدة لتضع الأخيرة يدها على حزب البعث، ومُذّاك بدأت تصفية الحسابات بين العلويين أنفسهم.

في عام 1966 كان صلاح جديد وأصدقاؤه لا يزالون يمثلون قوّة حسب لها الأسد ألف حساب؛ وبسبب مشروعه السياسي، وهو المستوحى إلى حدٍ كبير، من الماركسية، أغرى مجموعات واسعة من الطبقة العاملة ومن المحيط الجامعي. وفكرة جديد هي أن استعادة الأراضي العربية الضائعة في فلسطين، وعام 1967 في الجولان، وكذلك تحقيق الوحدة العربية لا يمكن حصولها إلا عندما يصبح المجتمع السوري والمجتمعات العربية الأخرى اشتراكية حقاً.

وبالنسبة للعديد من العسكريين الذين هم على نفس طول موجة الأسد، فإنّ إيديولوجية الفئة الحاكمة هي ضبابية تماماً. وعندما يرفض الأسد التمييز بين الأنظمة الرجعية والأنظمة التقدّمية يقدّر أنّ الدول العربية لا تستطيع الانتصار

على إسرائيل إلا بتعاونهما. ومنذ تلك الفترة، وهو يدعو لقيام التكافؤ الاستراتيجي مع الدولة اليهودية. ويجب ألاّ يُفكَّرَ في الجيش الشعبي الذي يجب على الفدائيين الفلسطينيين الانضمام إليه، والذي يعتبره جديد رأس حربة الثورة العربية؛ ويجب برأي أسد إلغاؤه بكل بساطة، وعوضاً عنه يجب تقوية الجيش (الكلاسيكي) التقليدي وتوجيهه للتعاون مع الجيوش العربية الأخرى. أما فيما يَخُصّ الفلسطينيين، فلا (جديد) ولا (الأسد) أظهرا أبداً أيّ ثقة زائدة بهم، وأرادا دائماً ضبطهم ومراقبتهم عن قرب. ولكن لــ(جديد) مع ذلك احترام أكيد للقضية الفلسطينية، قاده مثلاً إلى عدم السماح لأيّ جندي سوري بدخول أيّ مخيّم فلسطيني، و لم يكن للأسد أبداً مثل هذا الشكل من الدقّة والتدقيق.

بعد عودة حزب البعث إلى السلطة في بغداد في تموز 1968 ساءت العلاقات بين الرجلين. ورَفْضُ غالبية البعثيين السوريين إعادة الارتباط مع الحزب الشقيق —في بغداد–، جعل الأسد، كممثل للأقلية في الحزب، يستقيل من عضويته في القيادة القطرية. ووجد البعثيون المدنيون أنفسهم غير قادرين على إجبار الأسد على الاستقالة من الحكومة وهو وزير الدفاع. واستغل الأسد الوقت لعزل مناصريهم كلياً داخل الجيش. ومنطلقاً من مبدئه الذي يقول: إنّ مساندة عسكري واحد هي أفضل من مساندة ألف مدني، بدأ مناقلات الضباط المعاندين، بخاصة: عزّت جديد، أخو صلاح جديد وقائد (اللواء السبعين) الهام جداً على المستوى الاستراتيجي؛ وكانت كلّ هذه التنقلات تجري متناقضة كلياً مع الأنظمة التي تجعل القيادة القطرية الوحيدة المؤهَّلة لاتخاذ القرارات فيها.

وفي 25 شباط 1969 وعلى أثر غارات إسرائيلية على قرى قريبة من دمشق، احتلّت المدرّعاتُ النقاط الاستراتيجية في العاصمة دمشق وتسلّم رجالها إذاعتي دمشق وحلب كذلك استلموا يوميّتي (الثورة) و(البعث). وأطلقوا سراح العديد من السجناء السياسيين من الناصريين والبعثيين القدامى والحورانيين. وبنفس الوقت شدّد الأسد قبضته على المنطقة العلوية (اللاذقية) حيث يوجد عدد كبير من مناصريه. ولكن الجنرال الأسد لم يُتِمّ الانقلاب رغم أنّه نجح فيه، فقد اكتفى بتسجيل نقاطه خلال مؤتمر غير عادي للقيادة القطريّة التأم في آذار 1969 والذي أرضاه في عدّة نقاط.

ولقد توقّفت انتقادات الأنظمة العربية، وبدأت خطوات الإطراء للتعاون مع القوى التقدمية السورية الأخرى. وأعلن عن بدْء تحضير دستور مؤقت وتشكيل حكومة جديدة موسّعة تضمّ تشكيلات سياسية يسارية. أخيراً يُدفع الأسد إلى تطمين البورجوازية الدمشقية وكذلك عدد من التجار السُنّة الذين كانوا يميلون بدرجة متزايدة إلى الإيديولوجية الإسلامية. إلاّ أنّ الحرب الأهلية في الأردن وموت الرئيس عبدالناصر في أيلول 1970 أنهيا فترة السلطة التي يقوم عليها رأسان. فأسد يساند شفهياً فقط قرار السلطات السورية بمساعدة الفدائيين الفلسطينيين الذين طردهم الملك حسين من الأردن... والإنذارات الأمريكية والإسرائيلية بالتدخل قادت إلى سحب المدرعات السورية من الأردن، وهكذا وجد الأسد نفسه معزولاً داخل الحزب، واتهم بأنّه أراد إعادة الخط الرجعي الانهزامي، وفُصِل من الحزب في 12 تشرين الثاني 1970، هو وصديقه مصطفى طْلاس بقرار من القيادة القومية للبعث، للأسباب التالية:

1- للتخلّي عن الأهداف الرئيسية للحزب.

2- لتمرّده على الحزب وعلى قرارات المؤتمر ومقاومته للتوجّهات التي قدّرها الحزب.

3- لإساءته عمداً للحزب ولمعنوياته ولشرعيّته.[80]

وكانت ردّة فعل الأسد آنية باحتلال الجيش مكاتب الحزب، بعدما أوقف كلّ الضباط الذين لا زالوا معادين له.[81] وكذلك سجن في نفس الوقت العديد من المدنيين. وبعد عدّة أيّام، مستحضراً موقفه الموجز ومتحاشياً استعمال تعبير الانقلاب، تحدّث عن تطوّر طبيعي داخل الحزب.[82]

وما كاد يستلم السلطة حتى جاءته المساندة الكليّة من اتحاد الجمهوريات العربية الجديدة، الذي كان يضمّ مصر وليبيا والسودان، وبعد تخلّصه من العقائديين المتشدّدين بدأ الشعب في سورية يتنفّس الصعداء... لفترة... لن تدوم طويلاً.

ذهنيّة تآمرية

والآن جاء وقت رسم صورة (پُرْتْرِيهْ) وتحليل مشروع الرجل الذي، بعد امتلاكه السلطة الفعلية في سورية منذ شباط 1966، أبعد بصورة نهائية كل منافسيه الرئيسيّين في تشرين الثاني 1970، وتسلّم رسمياً رئاسة الدولة في آذار 1971.

الرجل في الأربعين من عمره، وإذا كان في العالم العربي العديد من الذين استلموا الرئاسة الأولى قبل هذه السن كالعقيد القذافي والملك الأردني حسين وملك المغرب الحسن الثاني، ولكن في سورية لم يُنْتَخَبْ أبداً في السابق رئيس جمهورية في هذا العمر الشاب. وهذه هي ميزة العسكريين كما يقال...!

طويل القامة،(83) ذو بنية قويّة، إلاّ أنّه لا يملك هيئة عمالقة العائلة السعودية المالكة، ولا جسم العاهل الهاشمي الذي يحاول التعويض عن حجمه الصغير بتصلّب بريطاني تماماً، لم يكن شكله ملفتاً للنظر، ويمكنه بسهولة أن يمر في مكان ما دون أن يلحظه أحد. ولكن هذه الهيئة التي ليس لها أيّ شكل متوسطي، كان لها شيء ما جذب أكثر علماء النفس والهيئة. في هذا الوجه المربّع يُلفِتُ النظر مباشرة جبهة عالية غير عادية، وفكّ قويّ كأنّه كيس صيّاد، والفم واسع ورقيق في نفس الوقت، والأنف أقْنى وكبير. وبعكس غالبية العرب، العيون صغيرة، أمّا النظرة فهي نموذج للشخصية الانطوائية، الحيوية الحركية النافذة. ويرافق هذه الصفات، طاقة غير عادية، وكأنّها

المقطوعة بالمشذب، حسب تعبير طبيب سوري راقبه طويلاً، وغريزة تميل للسيطرة، وطموح فائض عن الحاجة وشهوة تكاد تكون جامحة للسلطة. وفي هذه الناحية، كما يشير بجديّة عالم الاجتماع السوري رشيد الحجار: "إذا فكّرنا بلزوم وجود ذهنية تآمرية للوصول والبقاء في السلطة في العالم العربي فالأسد موهوب جداً في هذا المضمار، إنّه يعرف كيف يصنع الانقلاب بل يعرف بأسلوب أفضل كيف يحبط الانقلابات".[84]

والسلطة طبيعية... ولكنها كثيراً ما تتحوّل إلى قهر وفردية ظالمة، والرجل —وكل الشواهد تتوافق على هذه النقطة– يملك قدرة كبيرة في السيطرة على نفسه وضبط أعصابه، وهذا لا يستبعد غضبه مرّات قليلة بل عنيفة. في تشرين أول عام 1970 مثلاً أثارته اقتراحات مسؤول بعثيّ —هو مالك الأمين–، تعارض وجهة نظره فلم يتردّد في صفعه.

بعد انقلاب آذار 1963، كان يتحاور مع بعض الكتّاب، وفي إشارة إلى لقب جدّه (الوحش) أكّد الأسد: "قريباً سيأتي الوقت الذي لن يتجاسر فيه أحد على تسميتي بحافظ الوحش، إذا لم أستطع حُكْمَ هذا البلد فهذا يعني أنّني أستحق هذا الاسم!".[85]

ورغم أنّ طموحاته تفترسه إلا أنّ هذا الرجل الكتوم قليلاً ما يطلق لنفسه العنان للوصول إلى مثل هذه المواقف. ورغم أنّه ليس عاطفياً إلا أنّ خصوماته شهيرة وعنيدة أيضاً. ويا ويل من يصدّه أو يحاول وضع العصا في دواليبه. ومن بين كلّ معانديه السياسيين. ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير والداهية الحلو اللسان، هو الشخص الذي يكن له الأسد أكبر قدر من الكراهية.

فمنذ خلافهما في بداية الثمانينات لم يستطع أحد –حتى آخر عام 1990– مصالحتهما: لا الليبيون ولا الجزائريون الموهوبون في هذا المجال ولا حتى القليل من الفلسطينيين الذين بقي لهم بعض الرصيد في دمشق. وحالة عرفات هي مثال، يُشير إلى أنّ الحقد في نفس الأسد يستطيع، بصورة استثنائية، أن يقوده إلى اقتراف أخطاء سياسية. ومسلك الأسد هذا أسهم إلى حدٍ كبير في التفاف الفلسطينيين حول رئيسهم –عرفات– ورجال آخرون كان عندهم الشجاعة لمواجهة الأسد فدفعوا (حياتهم) ثمناً لهذا التهوّر، وهذه حالة كمال جنبلاط الذي اغتيل في آذار 1977، على طريق غير مطروقة في مسقط رأسه الشوف.

ففي عام 1976، هاجم جنبلاط بعنف النظام السوري ودعْمه للرئيس فرنجية وللمليشيات المسيحية؛ وعام 1980 اغتال رجال المخابرات السورية صلاح الدين البيطار في باريس. فلقد خاف الأسد –مخطئاً أَمْ مصيباً– إمكانية أن يعود هذا الرجل الكبير السن ليصبح منافساً له.

وبعد هذه الأمثلة يمكن أن يبدو ذكر حكم الجنرال الأسد على رفاقه القدامى في الحزب، غير مناسب وفي غير محله. ولكن رغم أنّه ظهر أحياناً بدون رحمة لمعارضيه. فلقد أظهر دائماً نفوراً شديداً من تصفية رفاقه القدامى. ففي آخر عام 1990، لا زال صلاح جديد حياً ولو أنّه في السجن منذ عشرين سنة، ومئات غيره أقلّ شهرة قضوا سنين طويلة في السجن وغالباً بدون محاكمة، ولكنّه أطلق سراحهم بعد ذلك. وبالمقابل عندما تكون سلطته معرّضة وعندما تكون الدولة –ويعتبر نفسه هو الدولة– مهدّدة، يبقى الأسد غير قابل للين.(86)

الإقناع... قبل الإكراه

حافظ الأسد في الواقع، بخلاف (صدّام حسين) الذي لم يتردد قط في القيام بتصفيات هائلة من أجل البقاء في السلطة —لدى مواجهته خطراً حقيقياً أو مفترضاً[87]– يفضّل الوصول إلى غاياته بنعومة. وكما أشار كريم بقرادوني في كتابه (السلام المفقود)، يُفضّل الأسد استعمال الإقناع قبل لجوئه إلى الإكراه.[88] ويمكن أن نجد في ذلك بعض التقاليد السورية الأقلّ عنفاً مما هو الحال في العراق. رغم أنّ سورية لحظت تقدّماً محزناً في هذا المضمار في السنوات العشرين الماضية ولكن الموضوع هو طبْعُ الرئيس. فكل خصم اليوم قد يصبح لاحقاً حليفاً ثميناً فلماذا العمل على (تصفيته)؟ حتى بعض الإخوان المسلمين التائبين نالوا أخيراً رضى رئيس الدولة.

ربما كان حافظ الأسد سيفقد السلطة منذ زمن طويل لو لم يَضعْ في خدمة طموحاته جهداً هائلاً في العمل. وشهادة كبار موظفي رئاسة الجمهورية الذين خدموا حتى عام 1970؛ الرئيس نور الدين الأتاسي؛ ثم حافظ الأسد في أوائل عام 1971، هي المعبّرة: "خلال عدّة سنوات كان برنامج عملي اليومي مثل أيّ موظف صغير آخر، يقول أحد هؤلاء الموظفين، وفجأة وبقسوة كان عليّ التقيّد ببرنامج العمل اليومي للرئيس الجديد. وأحياناً كثيرة كانت ساعات عملي اليومي تفوق ستة عشرة ليختتم أشغال رئيس الدولة في الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً".[89] صحيح أنّه بخلاف الرئيس الأتاسي، جمع الأسد أعمال رئيس الدولة إلى أعمال الأمين العام للحزب. قدرة هائلة على العمل، سمحت له أن يراجع الملفّات السياسية الأكثر تعقيداً، وأن يستمع

لساعات طويلة لآراء المراجعين من المواطنين الشاكين –البسطاء وغير البسطاء– والذين يستقبلهم كلّ يوم.(90)

لقد تحدّثنا قبلاً عن التأثير الذي تركه الأسد في نفس (هنري كيسنجر)، وأناس من مختلف المشارب والجهات مثل الرئيس (ريتشارد نكسون)، وسفراء فرنسا السابقين في دمشق مثل (فرنان رويون) أو (هنري سرڤان)، لم يُخفوا أبداً بعض الإعجاب بالأسد. ومن المهم مع ذلك تعديل هذا الحماس بشهادة عدّة شخصيات التقوه في ظروف عصيبة وطلبوا أن لا تُذكَرَ أسماؤهم.

مثل تلك الزوجة لأحد المعتقلين السياسيين التي جاءت تطلب من حافظ الأسد تخفيف الحكم عن زوجها الذي حكم عليه ظلماً، حسب رأيها، ولقد دهشت عندما سمعته يذكر لها أدقّ التفاصيل عن حياتها الخاصة الاجتماعية لأولادها: الصعوبات المالية، تاريخ آخر زيارة قامت بها للسجن...الخ، كان الرئيس مطّلعاً على كلّ شيء. ولم يغيّر موقفه الصلب من زوجها قائلاً لها: زوجك بموقفه العنيد سيقضي مدّة الحكم عليه في السجن حتى آخر يوم.

وكوارثٍ جيّدٍ للتقاليد العربية كان الرئيس السوري يجد الوقت رغم انشغاله الذي يمكن تصوّره، للقاء صغار الناس، من العلويّين في الغالب، لأنّهم يعرفونه أكثر من غيره ولا يخافون من المجيء لرؤيته.(91) ولقد روى أحد أعيان العلويين وهو يضحك أنّ أوّل رئيس وزراء لحكومة الأسد الجنرال عبدالرحمن خليفاوي، اضطر أن ينتظر ستة أشهر ليستطيع أن يلتقي –منفرداً– برئيس الجمهورية بينما عشرات القرويين العلويين استطاعوا لقاء الرئيس خلال أيام أو أسابيع قليلة! هذا الميل البارز للتفاصيل عند الرئيس يتجلّى في النهاية في

نتاج اللقاءات التي يسمح بها للشخصيات التي تزور دمشق.

من آلية عمل الإدارة الذاتية في يوغوسلافيا إلى مادّة في دستور الولايات المتحدة الأميركية مروراً بالصراعات العشائريّة لموارنة جبل لبنان، أو التعايش في فرنسا، لا يفلت شيء من ذلك على فضول الرئيس. كذلك يقرأ بانتظام مقالات جريدة (هيرالد تريبيون) الأميركية التي يترجمها ويحضّرها له مكتبه الصحافي. ويعتقد الذي يستمع إليه أنّه طالع كلّ شيء، واستعلم عن كلّ شيء ويرجو باستمرار تعميق معلوماته. والحقيقة تختلف شيئاً ما عن ذلك، ومثل العديد من رؤساء الدولة العرب، كلّ ثقافة الأسد هي شفهية في الأصل. فهو لا يجيد اللغات الأجنبية وليس على اطّلاع على إصدارات الأعمال الهامّة في العالم الغربي بالفرنسية أو الإنكليزية، ولا على المذكرات الشخصية لكبار العالم، ولا على أمّهات الكتب في المكتبات إلا عن طريق ملخّصات وتقارير يحضّرها له بعض كبار المثقفين في حاشيته. ورجل الأعمال عمران أدهم الذي يعرفه جيداً وخدمه لمدّة طويلة كوسيط بين سورية ومجلس الوحدة الأوروبية، يشير مثلاً إلى اهتمام الأسد بما ينشر عن الجنرال دوغول... وليس في هذا شيء كثير من الطرافة. الواقع أنّه خارج اهتمامه بحياة عائليّة —عندما يسنح له الوقت بذلك– لا يُعرف للأسد أيّ هواية قط غير الصيد.

شخصية غامضة مبهمة

يظهر الإبهام في شخصية الأسد، على كلّ حال مع بناء القصر الرئاسي على جبل قاسيون فوق دمشق. وكانت تقديرات تكاليفه في البدء بثمانمئة مليون ليرة سورية (أي ما يعادل ذلك تقريباً بالفرنك الفرنسي القديم)، وأخيراً ارتفعت

نفقات بناء القصر إلى أكثر من 23 مليار ليرة سورية، وأجهزة الأمن التي جاءت من الولايات المتحدة كلّف تركيبها أكثر من 155 مليون دولار. ولقد خطط لأنفاق وملاجئ تقي من الهجمات الذرية. واستورد رملاً خاصاً جداً من اليابان من أجل إحدى واجهات القصر. وأمر الرئيس باقتلاع خمسة عشر ألف شجرة فاكهة، والتي زرعت ابتداءً في محيط القصر ليزرعوا مكانها أنواعاً نادرة من الأشجار، "ضعوا لي شجراً من اليابان، فهذا قصْر وليس مزرعة"، صاح الرئيس بالمسؤولين عن بناء القصر، ومع ذلك يُعرف عن حافظ الأسد أنّه يعيش حياة بسيطة بعكس إخوته الذين يحبون مباهج الحياة. ومن المحتمل أنّ تفسير هذا السلوك هو في الاقتناع الأسطوري تقريباً أنّه هو يجسّد الدولة، بل هو الدولة وليس هناك أيّ شيء أكثر فخامة وجمالاً مما يستحقه.

وإذا كان لبعض الرؤساء العرب أهداف أدبية ثقافية مثل الرئيس اللبناني شارل الحلو، أو أنّهم ضليعون بمعرفتهم بالثقافة العربية مثل الملك الحسن الثاني، فيبدو أن ليس للأسد أيّ ميل خاص للشعر أو للموسيقى العربية. "كلمات الأسد" قطع مختارة جَمَعَها بكل تبتّل منذ العام 1970، وزير دفاعه مصطفى طْلاس، وهي مجموعة صِيغ فارغة نموذجية لِلُغَة خشبيّة تردّدها بصورة دائمة القيادات الرئيسية في النظام. ولنحكم على بعضها: أقوال أسد في الحرية، "الحرية هي قلب وروح الحياة، وإذا توقف القلب توقفت الحياة معه، لذلك يجب أن يحاط القلب بكل العناية ليبقى قوياً ونشيطاً ينشر الحرارة والحركة في حياة الناس جيلاً بعد جيل".(92)

وبالنسبة للشباب: "أنتم الشباب، جمال وزهرة الحياة في هذا البلد، أنتم

العطاء والحياة ومنهما يبدأ وينمو ويتحقق الأمل"،[93] وبالنسبة للمرأة: "المرأة إنسان مثل الرجل ويشتركان معاً في بناء الوطن والعائلة والمستقبل، أوافق تماماً على الفكرة التي تدعو المرأة للانطلاق سريعاً من أجل أن تحتلّ المكان المناسب الذي تستحقه، على غرار أخيها وأبيها وزوجها في بناء الحاضر والمستقبل.[94] وليس في الصفحات المئتين ذرّة من الابتكار مع أنّها مختارة بعناية.

كان على حافظ الأسد التوجّس والحذر من أصدقائه وكان لهنري كيسنجر الذي قضى معه الساعات الطوال أكثر من أيّ مسؤول غربيّ آخر، الحقّ في الواقع بالحديث عن المزاج الشرير أو الساخر للرئيس السوري.[95]

في ربيع عام 1974، فيما كان سكرتير وزارة الخارجية الأميركية يتابع رحلاته المكوكية بين القدس ودمشق، كان أندريه غروميكو وزير خارجية الاتحاد السوڤيتّي ينتظر طويلاً في السفارة لقاءه بالرئيس السوري، الذي كان يتباحث مع (العزيز هنري). وعندما أثار هذا الأخير، مخادعاً، الوضع غير المريح لغروميكو ردّ الأسد مقاطعاً لا بأس ستأكل أنت عشاءه!".[96]

وفي فترة استرخاء يروي كيسنجر أيضاً للأسد أنّ غروميكو حدّثه عن عصفور من سيبيريا يجتذبونه عندما يقلدون غناءه الغرامي، ثم سأل كيسنجر، ممازحاً، الرئيس السوري إذا كان قد سمع هذا الغناء: فأجابه حافظ الأسد بنفس الأسلوب: "إنّ غروميكو لا يغنّي إلا في حضورك". ولقد توطّد توافق مدهش بين الرجلين –كيسنجر والأسد– «إنّ جنودي يحبون الروس كما تحبّهم أنت تقريباً، إنّهم واقعيون. هنا العقائديون هم الساسة ووزير الخارجية هو الذي يجب أن يُخيفك". وحتى في سوريا، والغريب أنّ من الممكن أن

يحدث ذلك في نظام لم يعرف عنه أنّه يستطيب المزاح بخاصّة، حفظت مساحة للحريات في التلفزيون، بخاصّة في اسْكِتْشات الكوميدي المشهور (دريد لحام). وبموهبة بارزة لا يستطيع أشدّ أعداء النظام منافسته في هذا المجال، استنكر لحّام بشدّة لسنوات كل عيوب النظام: لغته الخشبية... وبيروقراطيته... الخ. وفي حوار بين أبٍ وابنه كان يهزأ علناً بشعارات حزب البعث الثلاثة: "وحدة عربية واشتراكية وحرية". ولقد وصل به الأمر إلى تصوير حالة لـــ(كافْكَا) في مواطن عربي حُصر على الحدود السورية الأردنية بعدما أضاع أوراق هويته. إزعاجات مهمَّة في سياق الدعوة إلى الوحدة العربية. إلا أنّ الشجرة الواحدة يجب أن لا تحجب الغابة، كذلك يجب ألا نخدع ببعض التنْفيسَات التي تخرجها بلباقة أجهزة الأمن.

مفاوض بارع

رغم أنّ السنوات الثلاث الأولى لرئاسة الأسد، كانت أبعد ما يمكن عن الصفاء والرواق بخاصة على الصعيد السياسي، حيث كان عليه التخلّص من المنافسين المحتملين، ومن معارضة لم تُجرَّد تماماً بعد من أسلحتها؛ فبعد حرب تشرين 1973 فقط، استطاع حافظ الأسد أن يبدي أقصى ما عنده من إمكانيات، فالجيش السوري انهزم ولكن بشرف! وإسرائيل وللمرة الأولى منذ إنشائها لامست حدود الكارثة، ولولا الجسر الجوي الأمريكي –لتزويدها بالسلاح– ولولا تهديد أرييل شارون الذي نجح هذه المرة، ولولا الأخطاء الشنيعة لقيادة الأركان المصرية والسورية، لدفعت الدولة اليهودية ثمناً أغلى بكثير مما دفعته فعلاً.

ولكن إذا كان الثمن الذي دفعته إسرائيل من رجالها وعتادها باهظاً -أكثر من 2500 قتيل وضياع سيطرتها على قناة السويس- فإنّ الأمر بالنسبة لسورية كان أشدّ قتامة، فبعد التقدّم الإسرائيلي على هضبة الجولان أجبرت على التخلي عن مناطق جديدة للعدو؛ ودخول حافظ الأسد المفاوضات مع هنري كيسنجر جعله لاعباً كبيراً -على المستوى الدولي-؛ وفي الصالة -الصالون الصغير- الذي استقبل فيه الأسد وزير خارجية أمريكا كانت لوحة موضوعة في مكان بارز تظهر الجيوش العربية التي احتلّت آخر قلاع الصليبيين. وبالنسبة للأسد، كما هو الحال بالنسبة لغالبية السوريين ليس هناك أيّ شكّ في أنّ إسرائيل ستلقى يوماً ما نفس المصير.

وبانتظار ذلك، ولوجود القليل من (أوراق) اللعبة بيده، عمد الرئيس السوري إلى الخداع، فهو يعلم فقط أنّ للولايات المتحدة الأمريكية دوراً غالباً في المنطقة وتحجيم النفوذ السوفييتي إلى حدّه الأدنى عليها أن تعطي ضمانات جدّية للأطراف العربية. وحتى يكون كلّ شيء واضحاً أعلن على الفور لكيسنجر: "ليس من الضروري لنا الحصول على حقنا اليوم فبإمكاننا الحصول عليه في الغد. ولكن أن تنتهي هذه الحرب إلى استعطاف إسرائيل فهذا أمر مستحيل. وهناك فرق بين السلم وبين الاستسلام". [97]

لم يشْدَه كيسنجر مع ذلك بهذا الاقتراح الظاهر الصلابة، وبسرعة لمس نقاط الضعف في سورية وفي رئيسها إنّها على ثلاثة أنواع: أولاً: البلاد بحدودها الحالية: "لا تمتلك التقاليد الطويلة الأمد لاستقلالية الحكم الذي أضفى على مصر منظورها التاريخي"، أنتم السوريون أقرب إلى فلسطين

وأوضاعكم هي أكثر تعقيداً، أنتم لا تفاوضون على صحراء والموضوع منطقة أصغر حجماً. وهذا يعرّضكم لمخاطر، ولكم جيران أكثر ممّا لمصر." هذا ما استطاع تأكيده بهدوء لمضيفه[98] رئيس الدبلوماسية الأمريكية.

ولقد اقتنع بعد ذلك هنري كيسنجر أنّ سورية ليست بالقوة التي تستطيع توحيد الشعب العربي، وهي بحاجة على كلّ حال لاستعادة كلّ أو جزء من أراضيها التي فقدها، قبل متابعة الطموحات الواسعة. وأخيراً يعرف سكرتير نظارة الخارجية الأميركي أنّ سورية لا تستطيع استعادة حياتها الطبيعيّة طالما تعسكر القوات الإسرائيلية على أبواب دمشق، والأسد أيضاً، كما دوّن كيسنجر في كتابه، مرغمٌ على التفاوض لفكّ الارتباط مع قوات حاضرة أمامه.[99]

وكان لكيسنجر مع ذلك أسباب قويّة لمعالجة هذا المفاوض الاستثنائي الذي لم يتردّد بتَشْبيهه بـــ(لو دوك تو) المفاوض الفييتنامي الشيوعي —الذي عرفه—، فبالإضافة لموضوع عودة الدبلوماسية الأمريكية بقوة إلى الشرق الأدنى، شعر كيسنجر بتحفظات الأسد تجاه الاتحاد السوفييتي. وبعكس عدد من مواطنيه —الأمريكان— يُقدِّرُ كيسنجر أنّ رئيس الدولة السورية ليس دمية تتحرَّك بإشارة من الكرملن.[100]

ويقدّر كيسنجر أيضاً معاداة الأسد لمنظمة التحرير الفلسطينية ولمنظمة ياسر عرفات (فتح) أهم المنظمات الفلسطينية. ولقد أكّد له الأسد أنّ الصاعقة -المنظمة الفلسطينية المربوطة عضوياً بسورية- هي مهمة مثل منظمة فتح، "وأكثر منها تدريباً"؟ على كلّ حال، وكما دوّن ذلك كيسنجر "لم تقترح سورية عام 1974، أيّة خطّة ملموسة لصالح المسألة الفلسطينية".[101]

وأخيراً بعدما فهم كيسنجر من عديد المؤشرات -بخاصة بعد محاولة فاشلة لاغتيال الأسد عندما كان يتحضّر لزيارة المسجد الأموي- وَضْعَ أسد الهشّ على المستوى الداخلي، أصبح مستعداً لتسهيل مهمة الأسد، واحتاج الأمر لستة أشهر من المناقشات الطويلة والسهرات المضنية ليصل الرجلان أخيراً إلى تفاهم. ولقد اعترف كيسنجر أحد الأيام للأسد المتوهج —سروراً-: أنت المفاوض الوحيد الذي ألقى بنفسه في الهاوية آملاً أن يتعلّق بشجرة يعلم بوجودها لإيقاف سقوطه.(103)

ولقد دوّن كيسنجر في مذكراته: طريقة الأسد التفاوضية لم تكن تختلف كثيراً عن طريقة الإسرائيليين، كان يبدأ بإعلان مستوحى من مواقف غاية في التطرف ليرى ما المدى الذي نستطيع قبوله (...). وفي الحقيقة في إطار الوضع السوري كان -الأسد- معتدلاً يتمتع بذكاء من الدرجة الأولى (...). على كل حال كان عليه التغلّب على كراهية موروثة لإسرائيل التي ضربت جذورها بعمق في البلاد".

طبعاً لا يجب إعطاء ملاحظات كيسنجر المعجبة بالأسد أكثر ممّا تستحق من الاهتمام، وسياسة الخطوة خطوة العزيزة على قلب وزير الخارجية الأمريكي المشهور ربّما أعادت وَضْعَ الولايات المتحدة على صهوة جوادها في الشرق الأدنى، فهي لَمْ تدفع الخطوات في اتجاه السلام، بل على العكس باستبعاد الاتحاد السوفييتي من اللعبة بِحَثٍّ مصرْ للسير وحيدة، وبتجاهل منظمة التحرير الفلسطينية أسهم كيسنجر إلى حدٍ كبير في خلق عدم الاستقرار في منطقة أوضاعها هشّة.

كذلك وضع سكرتير نظارة الخارجية الأمريكية حدود تحرك الرئيس السوري، ومتأسّفاً لمحدودية الرؤية لدى حافظ الأسد —ربما لأنّ الأخير لم يرغب أو لم يستطع لعب دور (سادات سوري)، كتب كيسنجر محلّلاً بعد سنوات عدّة مباحثاته مع الرئيس السوري كما يلي:

"أشكّ فيما إذا كان عنده أيّة فكرة عمّا سيفعله بعد انتهاء عملية فكّ الارتباط"،[104] ويشعر المرء في الواقع باستمرار كما لو أنّ كيسنجر يبدي نوعاً من الأسف لأنّ الأسد لم يمتلك الوسائل لتحقيق طموحاته. وهل على المرء أيضا الاقتناع بطموحات حافظ الأسد؟

طبيعة النظام

النظام السوري هو قبل كلّ شيء نظام ديكتاتوري، بتعبير آخر لا يمكن فهْم كيف يعمل هذا النظام دون الأخذ بالاعتبار شخصية من يقوده؛ حافظ الأسد، هو مثل الكثير من الحكّام الفرديين أو الطغاة، فالأسد رغم بساطة أذواقه التي قد يتصور البعض من خلالها أنّه يأنف الدعاية، إلا أنّه فرض صورته في كلّ مكان، وعند عودته لبيروت في شباط 1987 عمد الجيش السوري، بعد استئصال كلّ أثر لمنافِسين محتملين، بما فيهم الإمام الخميني، إلى تعليق مئات الصور في كلّ أنحاء بيروت لرئيسه الأسد. صور ناجحة تقنياً إلى حدّ ما، ولوحات بألوان صارخة رسمها فنانون بعثيّون جُدد، كلّها تسعى لتذكير أناس لا مبالين أو متعبين أنّ ليس هناك إلا سيد وحيد وخَطِرٌ في تلك المنطقة.

وفي سورية نفسها تأخذ الدعاية المفروضة بالقوّة بعداً آخر فالرئيس حاضر بصورة دائمة على شاشات التلفزيون، وكلّ نشاطاته حتى البسيطة وغير

المهمّة تنقل في أدقّ تفاصيلها في أعمدة الصحف الرسمية، -وهي الوحيدة على كلّ حال- حيث تحتل اقتراحاته الأكثر تفاهة الصفحات الأولى والعناوين الرئيسية اليومية. وهناك أيضاً مكتبة الأسد في دمشق في ساحة الأمويين وبحيرة الأسد التي تعلو سدّ الأسد. وأماكن ومحلات الأسد بالمئات وشوارع الأسد بالآلاف وطوابع عليها صورته بالملايين. بل هو على قِطَعِ عملات معدنية، وهذا ما أثار فضيحة كبيرة لأنّها ليست تقليداً لا سورياً ولا عربياً. ولقد سحبت القطعة المعدنية لليرة السورية عندما ظهرت ردود الفعل السلبية لدى المناضلين البعثيين. ولقد احتفظ بها بعض المعارضين "كبرهان للأجيال القادمة".

وعبادة الشخصية هذه التي ليس لها مثيل في العالم العربي باستثناء ما فرضه صدام حسين على 17 مليون عراقي (على الأقل حتى كتابة هذه السطور)، لا تُفَسَّرُ فقط (بالأنا) الخارقة الشخصية المتأكدة من حقها في ذلك، الغارقة في يقينها، ولكن تُوحي أيضاً بنوع من عدم الصلاح والأهلية، لتديرَ بصورة صحيحة علاقاته بالرأي العام العالمي أو الداخلي؛ وشخصية حافظ الأسد المنطوية على نفسها لا تملك الجرأة الهائلة، ولا الوحشية الصريحة لرصيفه العراقي، المستعِدّة لكلّ التبجُّحات والانحطاطات لمحاولة إغراء مستمعيه المختلفين. وبخلاف شخصيّة عرفات أو شخصية السادات في عهده، والذي فهم جيداً سلطة الإعلام الأمريكي التي أطراها بعناية، انطوى الأسد على نفسه تاركاً لأجهزة إعلامه الهجوم اليومي الحادّ (على الإمبريالية الأمريكية) إلى أن حدث الانفراج في العلاقات الثنائية كما جَرَى آخر صيف عام 1990.

وإذا حدث له واستجاب للشارع، أو تخلّى عن رأيه أو خفّف الشدّة فليس ذلك أبداً لتقوية الإجماع الوطني، ولكن ليتوقّى خلق مواجهة قد لا تكون في صالحه. وعلى كلّ حال لقد برهن مرّات عدّة مدى استهانته بشعبه عندما قمع بوحشية لا تصدَّق بعض المظاهرات الشعبية. "عندما تكون مع الأسد تكون مع نفسك وإذا كنت ضِدّ الأسد فأنت ضدّ نفسك"، هذا ما تُعيد تكراره، متنافسة أجهزة المخابرات، التي جهدت من أجل تَجْيِيشِ الشعب خلال الأزمة مع "الإخوان المسلمين".[105] أمّا أخوه رفعت فلقد كان من جهته أكثر وضوحاً وتحديداً وإيجازاً عندما أكّد: "كلّ من ليس معنا... فهو مع الإخوان المسلمين"، ولا يمكن أن يكون الأمر أكثر وضوحاً من ذلك".

خطأ الأسد الأساسي، بل (جريمته) كما يقول خصومه العنيدون هي في تخفيف التمثيل الشعبي إلى درجة الصفر تقريباً. ويذكر أحد المنفيين السوريين أنّه قبل استلام الأسد للسلطة، كان هناك أحد ما يُمَثِّلُكَ -أمام الدولة-. ولكن بمجيئه عدنا إلى القرون الوسطى؛ فليس هناك من يتقدم ويترشح لتمثيل الشعب انتخابياً إلا من يختارهم الحزب أو أجهزة المخابرات.[106] وبنسْخ (الموديل) السوفييتي ألغى النظام السوري كلّ فسحة للحريّة، حتى النوادي الرياضية المرتبطة ببعض الجاليات، صار يديرها أعضاء حزب البعث.

وليس مفاجئاً في هذه الشروط أن تبقى المساجد آخر الأمكنة الوحيدة للقاءات الحرّة نسبياً. ولكن هنا أيضاً وضع النظام النهاية لَها بتعيينه المنظّفين فيها كمخبرين أو بكل بساطة بتبديل المشايخ غير الموالين حسْبَ تعليمات وزارة الأوقاف.[107]

والأسد الشكّاك حَذِرٌ بطبعه لا يحب قط الشخصيات الفردية المستقلة، ومن هنا كان همّه تجنيد أقصى ما يستطيع من أفراد. وهكذا هناك الآن ما يقرب من مليونين من الأشخاص الذين يعتمدون كلياً على الجهاز العسكري: 500.000 خمسمئة ألف من الجنود وعائلاتهم، أي تقريباً سدْس السكان! ولهؤلاء جميعاً امتيازات عديدة حسب الرتبة التي يحتلّها في الهرمية العسكرية؛ "النظام السوري هو الإرهاب بالإضافة للفساد". يُقدّر مَنْفيٌ سوريّ آخر ويضيف، ومع ذلك يعيش الرئيس حياة بسيطة "فما يهمه هو السلطة وكل ما يتعلّق بها، إنّه يسخر شخصياً من الحياة الفاخرة.

فعندما كان طالباً كان يُعرف ببساطة عيشه وذوقه وقلّة مصروفاته، فكيف تُفسَّرُ بعد ذلك حياة البذخ وتسامحه الذي يبديه بالنسبة للعديد من مسؤولي النظام —وليس فقط إخوته– الذي يملكون الفيلات الواسعة والحدائق والسيارات الكبيرة المقفلة (المصنوعة في برلين) التي تناسب أصحاب الملايين الأمريكيين؟ ولنكرر مرة أخرى أنّ الأسد بالإضافة إلى أنّه لا يعرف كيف يقيم وزناً مناسباً ولا يحسب حساباً معتبراً للرأي العام عنده، فإنّه لم يجد طريقة أفضل للاحتفاظ بحاشيته.

شعب ساخر

أمام تمادي تجاوزات النظام من كل نوع لم يجد السوريون شيئاً آخر لإعادة التوازن غير مضاعفة النكات —السياسية–، وهذا مثل لواحدة انتشرت لمدّة طويلة في دمشق: "عندما وعى النظام الحاكم أنّ مشاهدي التلفزيون المتعبين لا يستطيعون متابعة برامج القناة الأولى أو الثانية إلا ليجدوا فيهما

الرئيس ووزراءَه قرّر إنشاء قناة ثالثة. ومحمد، الذي فرح لذلك، أدار مفتاح التلفزيون: في القناة الأولى: الرئيس يفتتح مزرعة للدولة في شمال البلاد، تنهّد قائلاً يا للإزعاج، وتحوّل إلى القناة الثانية، فكان الأسد يخطب أمام لجنة محلية للمزارعين في درعا. يا للجرح! فعمد محمد إلى زرّ القناة الثالثة —الجديدة— ليكتشف رأساً، أحد رجال المخابرات يصرخ في وجهه عُد أيّها الأهبل مباشرة إلى القناتين (إرجع وْلا ع المحطتين!).

كلّ المدن كبيرة أو صغيرة تبارت في نصب تمثال للرئيس في مكان مناسب وأحياناً يُواجَهُ النحاتون بحالات قاهرة، وهكذا في عام 1986 في السويدا جنوب البلاد، أُجبر اثنان منهم للعودة إلى أزاميلهم نتيجة إثارة قام بها بعض الصغار المازحين الذين لم يجدوا شيئاً يتلهون به أفضل من تعليق (سطل) من السمنة —البلدية— وسطلٍ آخر من الصابون على الذراعين الممتدَّتين نحو السماء للبطل القومي. وهاتان المادتان كانتا شحيحتين في السوق آنذاك. فتداعى أعضاء فرع حزب البعث المحلي إلى اجتماع عاجل لدراسة ومتابعة ما يجب القيام به لهذه الإهانة التي لا تحتمل، واستدعوا النحاتَيْن اللذين أجبرا على قطع الذراعين البرونزيّتين ثم تركيب أُخريين في وضع عادي على جانبي التمثال. وبدون الوصول إلى مساخر (كيم إيْلْ سونغ) في كوريا الشمالية و(تشاوسسكو) في رومانيا فإنّ عبادة الشخصية ليست أقل قرباً من البشاعة المنفّرة.

ولقد وجدنا على كلّ حال نكات دريد لحّام اللاذعة، الذي استطاع انتقاد العديد من المواضيع —والجهات— إلا شخصية الرئيس. وفي هذا العالم المركز

فقط على شخصية الرئيس، يعجب المرء من ملاحظة الأهمية التي تُولّيها بعض الأوساط الدبلوماسية أو الإعلامية لتصريحات مسؤولين في النظام، سواء كانوا من الصف الأول أم لا. في شهر آب 1987، وفي نفس الوقت الذي انتهت فيه تقريباً الاضطرابات الخطيرة في مكة ضاعف عمران أدهم، رجل الأعمال السوري القريب من الرئيس، تصريحاته في إعلان الحرب على حزب الله اللبناني وعزمه خَلْقَ جمهورية إسلامية في لبنان سنذهب لتحرير المخطوفين بالقوة، إذا طلب الغربيّون منّا ذلك... ولكنّهم لم يَطلُبوا منّا شيئاً؛ هذا ما أكّده أيضاً عمران أدهم، وكثيرون هم الذين رأوا حينذاك تغييراً حاسماً في السياسة السورية تجاه إيران وأصدقائها اللبنانيين، ولكن في نفس الوقت ضاعف السوريون والإيرانيون لقاءاتهم، واتهم رئيس الدبلوماسية السورية فاروق الشرع الولايات المتحدة بأنّها وراء الاضطرابات التي حصلت في المدينة المقدسة (مكة).

والحقيقة أنّ عمران أدهم والشرع يعبّران جيداً عن أفكار الرئيس الذي لم يتفوّه بكلمة مكتفياً بإرسال بالونات الاختبار أو تلمّس أرضية الأحداث. أدهم هو أذكى من أن يجهل أنّ الغربيين لن يطلبوا من سورية تحرير مخطوفيهم بالقوة خوفاً من تعريض حياتهم للخطر، ويعلم أيضاً وكذلك الإيرانيون أنّ الأسد لا يتحمل أبداً قيام جمهورية إسلامية في لبنان تعرقل سلطته في المنطقة.

والواقع أنّ الأسد المُربَك في تحالفه المزدوج مع طهران والرياض، يتدبّر باباً للخروج من هذا الوضع، إلا أنّ تحوّلاته السياسية لا يمكن رؤيتها مسبقاً إلاّ عندما يتكلّم كلّ من حوله من الحاشية بصوت واحد. وبصورة عامّة في تلك الحالات النادرة نسبياً يكون الرئيس نفسه هو الذي يعلن اللون الجديد.

مـــا بين 99 ٪ - 99.9٪ من الأصوات خلال الاستفتاءات الرئاسية، حتى لو أنّ عدد الناخبين المعلن، والمخفى بعناية يلامس أحياناً حدود المهزلة.

لم يكن التمثيل الشعبي أقل (تنمية) مع إيجاد، بعد عام 1973، مجلس الشعب، ومجلس في كل محافظة، ومجالس محلية في كلّ منطقة أو ناحية: وهكذا يعمَّم التجنيد والتعبئة ونظام الحكم في هذا الواقع يستطيع أن يشكّل الانطباع بأنّه نجح في تحسين التواصل والمشاركة السياسية وإيجاد علاقة أوثق بين المواطنين والدولة. إلاّ أنّ هذا محض خداع يقصد منه خداع الخارج بينما نتيجته الأساسية، بسبب القهر المفروض في كل مكان، هو تنمية جامحة للجهاز البيروقراطي والتلقين العقائدي.

قوات الميليشيا

والخاصية الأخرى لنظام الأسد كانت التأسيس الاستعراضي المذهل لقوات شبه عسكرية (ميليشيات). فبموازاة الأسلحة الثلاثة التقليدية؛ ظهرت بعض فرق مليشيات الدفاع ويقودها كلها القريبون من الرئيس وأشهرها —سرايا الدفاع- التي أنشأها الأسد بصورة غير شرعية عام 1965، كما بيّنا سابقاً وكان يقودها حتى شهر شباط عام 1984 أخوه رفعت، ولقد استطاعت في ذلك التاريخ تجنيد خمسين ألف رجل مسلحين بأحسن أنواع المدرعات السوفيتية ودبابات T52 وصواريخ ومظلّيين. ولسنوات عدّة أرهب رجال رفعت الشعب السوري. وبعد مرض الأسد وأمام الارتجاجات العنيفة التي أثارها سلوك رفعت خلال تلك الفترة قرّر حافظ إبعاد أخيه المشاكس لأوروبا لمدّة غير محدّدة، وحلّ سرايا الدفاع، والتحق جزء صغير منها بالحرس الرئاسي

ولكن الانفتاح الذي قام به لغير البعثيين كانت له حدوده مع ذلك: وهكذا، وبعد قيام الجبهة الوطنية التقدّمية في عام 1971، كان من المتعارف عليه أنّ لحزب البعث وحده الحق في العمل داخل الجيش والجامعات. من ناحية أخرى إذا استطاع الشيوعيون والناصريون طبع مجلاّتهم بحرّيّة، كان من المستحيل عليهم توزيعها في الأماكن العامة ولا حتّى بيعها. ولا تزال هذه المواقف سارية المفعول، كما هو على كلّ حال قانون الأحكام العرفية الذي فرضوه عام 1963 والذي لم يُرفع قطّ منذ ذلك التاريخ. ودستور عام 1973 يمثّل (الجزرة) بينما قانون الطوارئ والأحكام العرفية فيمثّل (العصا)، كما لاحَظ بسخرية عالم الاجتماع السوري رشيد الحجار، والذي حسب رأيه: "إنّ الأسد أمضى أعوام رئاسته للدولة عاملاً على تفريغ كلّ الإصلاحات التي أكّد رغبته القيام بها، من أيّ مضمون".(108)

وبالإضافة لقانون الطوارئ (الأحكام العرفية) الذي يخوّل الاستعانة بالجيش من أجل القمع في الداخل، والذي أدّى إلى عدم لزوم وجود الدستور، بذل الأسد ما في وسعه لجعل مؤيّديه بدون سلطة أو هيبة، فدستور عام 1973، مثلاً، أقرّ أنّ أكثر من نصف المقاعد النيابية –البرلمانية– يجب أن يخصّص للعمال والفلاحين. أي بتعبير آخر، كما كتبت (إليزابِت بيكار)، بما أنّ هؤلاء (العمال) أو هؤلاء الفلاحين هم كلّهم من المنتسبين مباشرة، إلى حدّ ما، للحزب ضَمِنَ بصورة آليّة الأكثرية البرلمانية.(109) فإذا أضفنا لهذا أنّ عملاء السلطة يَحْضَرون كلّ الانتخابات ليتأكّدوا من أنّ الناخبين يصوّتون (بالطريقة المناسبة) فليس من المدهش أبداً أن يحصل الأسد بصورة دائمة على

سلطة لا تصدّع فيها

طبعاً لا تكفي حملة الترويج الملحّة والدائمة للتأكّد من إخلاص رعاياه. فلقد قال وكرّر الأسد كثيراً، ليس هناك رئيس جيد بدون سلوك -جيد-، وليس هناك مؤسسة قابلة للحياة بدون سلوك -جيد-. والسيطرة التي يمارسها على الجيش وعلى حزب البعث تسمح له تماماً بفرض سلطة لا تصدع فيها على الشعب السوري. ونلاحظ ابتداءاً أنّ حافظ الأسد ليس فقط رئيس الدولة ولكنّه أيضاً القائد الأعلى للجيش وأمين عام حزب البعث والجبهة الوطنية التقدّمية، التي تجمع بالإضافة لحزب البعث عدّة تشكيلات سياسيّة يساريّة أغلبها، كما يقال بين قوسين معترضتين، منقسم على (نقطة) دعم أو عدم دعم الرئيس الكلّي القوِي. فالناصريون في الاتحاد الاشتراكي العربي انسحبوا بأعداد كبيرة من الجبهة الوطنية التقدّمية عام 1973، بينما الشيوعيون من جماعة رياض الترك وهم في السجون، حتى ساعة كتابة هذه السطور، انفصلوا كذلك عن الجبهة بعد عدّة سنوات.

ولقد أُعلن بوضوح في تشرين أول -أكتوبر- عام 1970، قبل سقوط صلاح جديد، برنامج الأسد كما نتذكّر، وفيه يُتوقّع فتح باب النقاش السياسي لتشكيلات تقدّمية أخرى. بينما صلاح جديد وأصدقاؤه كانوا على قناعة كـــ(ستالينيين جيّدين)، أنّ على حزب البعث أن يكون المحرّك الوحيد للعمل السياسي في سورية، والأسد الذي يشكّ في الدوغما الإيديولوجية، لم يرَ أيّ مانع من توسيع القاعدة الاجتماعية لسلطته بدعوته حركات أخرى لدعم نشاطاته.

الذي يقوده عدنان مخلوف ابن شقيق زوجة الرئيس. وأكثر من (15000) شاب علوي الذين بلغوا -بالكاد- سن السابعة عشرة أعيدوا إلى قراهم.

ولكنّ اختفاء سرايا الدفاع لا يعني نهاية (النواة الصلبة) للنظام، ففي هذه الساعة، حوالي خمسة عشرة بؤرة من أجهزة الأمن، أشهرها إثارة للحزن هي بدون شك القوات الخاصة التي يقودها علي حيدر، والتي تميّزت في حالات كثيرة بخاصة في حلب عام 1980 وحماه عام 1983. وإذا كانت القوات الخاصة تقوم بالدور العسكري والمخابراتي معاً فإنّ أجهزة المخابرات الأخرى تقوم فقط بدور الاستعلامات والاستخبارات. وأكبر هذه الأجهزة وأكثرها إرعاباً هي المخابرات العسكرية للقوات البرية، التي يقودها اللواء المشهور علي دوبا وكلّ الناس -على الأقل حتى صيف عام 1990م- يعتبرونه الرجل الثاني في النظام.[110] ومع ذلك بعض وحدات الجيش تلعب دوراً أساسياً لحفظ أمن السلطة الحاكمة الحالية. وهذه هي حال الفرقة الثالثة المدرّعة وقوامها أربعون ألف جندي وقاعدتها في القطيفة على بعد 40 كيلومتراً شمال دمشق ورئيسها شفيق فياض الذي تزوّج أحد أبنائه من إحدى بنات رفعت الأسد، وهو علوي من أقوى الرجال في البلاد. وقائد الكتيبة الأولى المدرعة وقوامها ثلاثون ألف جندي وخمسمئة دبابة، كذلك صواريخ أرض أرض هو اللواء إبراهيم الصافي، وهو علوي أيضاً ويضع دمشق في مرمى مدرّعاته، وبهذه الصفة هو رجل يُحسب حسابه، وفي دستة الرجال المؤثّرين حقاً يظهر اسم ضابط سني هو رئيس أركان الجيش حكمت الشهابي، وأهميّته تكمن في علاقاته مع الولايات المتحدة، حيث درس، وما تزال تدرس غالبية أولاده.

والواقع أنّ المؤسسة العسكرية، تجمع حوالي الأربعين رجلاً الذين يسيطرون على (طقس) سورية الجيد أو الماطر. وبالإضافة لبعض الأسماء المذكورة أعلاه يجب إضافة رؤساء الكتائب الأخرى في الجيش، -رؤساء أجهزة المخابرات الأخرى- بخاصة القوات الجوية.

وكون مسؤولية هذه الأجهزة هي أمام الرئيس وليس أمام وزير الدفاع مصطفى طْلاس، الذي وجَدَ الوقت لينشغلَ بدار النشر الخاصة به وبإدارة ثروته، فإنّ تكاليف هؤلاء الرجال وأجهزتهم عالية جداً... وكلّها من خزانة الدولة، وحسب ما ذكر (جيمس بول) مؤلف كتاب قيّم عن حقوق الإنسان في سورية، على الأقل (750) مليون دولار هي المخصصات السنوية لحُسن سير هذه الأجهزة المختلفة، أمّا ميزانية الجيش فتمثّل أكثر من نصف مصروفات الدولة كلّها. يبقى كلّ هذا في الواقع نظرياً تماماً في حال التدخّل الدائم في حياة المواطنين اليومية، وممارسة الفساد بدرجات عالية.

أكبر وأغلب هؤلاء (المسؤولين) جمعوا ثروات طائلة، علي دوبا يملك قصراً حقيقياً في بانياس، محمد الخولي الملازم الشاب الذي (دفع) الأسد إلى الأعلى عام 1963، بعدما كان لمدّة طويلة رئيس جهاز مخابرات القوات الجويّة، وُضع الآن جانباً إلى حد ما، وبنى مثل علي حيدر داراً فاخرة في بيت ياسوت بالقرب من جبلة. أمّا بالنسبة لإبراهيم الصافي فله قصر صغير يسكنه في شراشير بالقرب من جبلة أيضاً. وهوى كثير من هؤلاء لمنطقة جبلة يَجعل العلويين مقتنعين بأنّ إخوتهم في الدين بجبلة هم الذين يحكمون البلد.

سقوط رفعت ونتائجه

في تشرين الثاني عام 1983، وبعدما استهلكته ثلاث سنين صعبة جداً أجبر خلالها مرّة بعد مرّة على سحق ثورة الإخوان المسلمين، وتحمّل ذلّ الغزو الإسرائيلي للبنان في صيف 1982، وتحضيره للردّ على الاتفاق الإسرائيلي اللبناني الذي فرضته واشنطن، مرض الأسد مرضاً شديداً، مرض السكري مع مضاعفاته في أزمة قلبية استخلص منها الناس أنّ الرجل قد يموت قريباً.

وبالنسبة (للمؤسسات) أي بِضْعُ عشرات من الرجال الذين يحكمون سورية بالفعل كانت المفاجأة الكاملة، لم يتجاسروا قبلاً قطّ على مواجهة مثل هذه الفرضية؛ وعندها اكتشفوا أنّ رفعت الأسد، الذي قدّم نفسه كخلفٍ محتمل، يشكّل حقيقة دولة داخل الدولة. ومع إظهار ولائهم لأخِ الرئيس الشاب اجتمع القادة الرئيسيون للجيش والاستخبارات سراً وبينهم علي دوبا وعلي حيدر وإبراهيم الصافي وشفيق فياض، لتنظيم معارضتهم لطموحات رفعت.

وفي 30 آذار عندما استعاد حافظ بعض نشاطه، لعب رفعت ورقته علناً دون أن يدري أنّ أخاه وأغلب المسؤولين في النظام يراقبونه منذ مدّة ليست قصيرة. وبعدما أرهب هو ورجاله دمشق لعدّة ساعات، سقط بصورة يرثى لها، وبعد عدّة أسابيع عيّنه حافظ نائباً للرئيس ونفاه إلى أوروبا.

هذه الحادثة التي أثارتها الصحافة الغربية بشكل واسع، والتي رواها (باتريك سيل) بتفصيل في كتابه عن حياة الأسد،[111] كان لها مع ذلك نتائج

لم يعرفها إلا القليلون. لقد كشفت المؤسسة العسكرية بالفعل في تلك المناسبة أين هي القوى الحقيقية في السلطة. ولن تنساها بعد ذلك، وهكذا في الأيام القليلة التي تلت المحاولة الانقلابية، ذهب علي دوبا إلى حافظ الأسد، وأكّد له إنّه ورفاقه لن يرضوا أبداً باستلام رفعت رئاسة الدولة، "لقد قام بانقلاب ويجب معاقبته، يجب ألا ترى فيه أخاً لك فقط"، قال له علي دوبا قبل أن يطلب منه (تصفيته)، ويرضى بقبول برنامجه "لتحييد أصدقائه الأمـــريكان والسعوديين". (112) وبينما كان الأسد يميل لجعْل رفعت نائب شرف للرئيس، وضَبْطِ عن قرب لمليشيات سرايا الدفاع، فرضَ دوبا حلّ هذه المليشيات، وتأثر الأسد بحزم زائره، وَقَبلَ الأسد عندما اكتشف الحجم الكبير للقوة التي يمثّلها دُوبا.

وفي آخر عام 1984 جمع علي حيدر سراً في القابون قرب دمشق أهم ممثلي (المؤسسات)، وأقسم الحاضرون أنّهم متّحدون في مواجهة الرئيس، وإنّهم سينفّذون الأوامر التي لا تقسم (المؤسسة)، ويهملون الأوامر التي قد يكون لها تأثير سلبي عليها. والواقع لم يعد الأسد طليق اليدين حرّ التصرّف.. إذا لم يشأ أن يصبح (آلة) المؤسسة العسكرية. وسبق أن اكتشف قبل أشهر إلى أيّ حدّ وضعه أخوه في موقف ضعف. وعندها استدعى الأسد أحد أكبر المستشارين العسكريين السوفييت العاملين في سورية ليطلب منه التدخّل مع علي دوبا حتى يستطيع أخوه رفعت البقاء في سورية، كان جواب علي دوبا للمستشار: "إذا أراد بقاء رفعت فإنّ حافظ سيغادر إذن معه، إنّه خائن، إنّه جاسوس أمريكي". (113)

في تلك الفترة نشر دوبا وأصدقاؤه خبراً يقول إنّ رفعت وعصابته قتلوا أكثر من 400 شخص بتغطيسهم بأيديهم، في حمام من (الأسيد) الأحماض في سجن المزّة. وكان بينهم الشاعر مُحسن الغيّار صديق الطفولة للرئيس. وبعد فترة وجيزة جاءت أرملة الغيّار تطلب مقابلة رئيس الدولة لتتحدّث إليه عن ظروف اختفاء زوجها. وبعدما أعلن لها الأسد أنّه مقتنع بأنّ الإخوان المسلمين هم الذين قتلوه، أعلمها أنّها تستطيع اعتباره هو أباً لأولادها، فاستنكرت الأرملة الشجاعة هذا العرض، وأجابته إنّها لا تفتش عن أب لأولادها، ولكن بكلّ بساطة تفتّش عن أبيهم، ثم تضيف أنّها مقتنعة بأنّ رفعت، أخا الرئيس هو الذي قتله. فغضب حينئذ الأسد والتفت إلى أحد حرّاسه، وطلب منه إخراج هذه المرأة الكيّسة! من حضرته.

الأسد والمؤسسة العسكرية

مع ذلك لم يعِ الأسد تماماً ضعفه النسبي إلا في الربع الأخير من عام 1987، في تلك الفترة كان رئيس الوزراء هو عبدالرؤوف الكسم، ومهما بدا الأمر غريباً ففي سلّة (السلاطعين) هذه كان الرجل أميناً نـــزيهاً، وكانت المشاريع العقارية (للنومانكلاتورا) أي مراكز النفوذ الحزبية التي تستغل نفوذها في الفساد والإفساد، فضيحة بالنسبة له، ويبدو أنّه قرّر التضييق عليها إن لم يستطع منعها. فأعطى الأوامر بتوقيف امرأةٍ، هي بنت عمّ زوجة وزير الدفاع مصطفى طْلاس التي تمارس التهريب، وتضرب بالقوانين عرض الحائط بكلّ خفّة.

في ظاهرها أثارت هذه الحادثة فضيحة حقيقية في قلب المؤسسة العسكرية التي يخاف أغلب أعضائها من أن تصبح امتيازاتهم موضع تساؤل؟ وكان

أكثرهم غضباً هو طْلاس الذي صرخ في كلّ مكان: "نحن لسنا عائلة مهرّبين"، أنا أدير كلّ عام ميزانية من 25 مليار ليرة سورية، ولست بحاجة لهذا (...) إنّها إهانة للجيش وللحركة التصحيحية، ولكلّ من قام بحرب أكتوبر"!.

ولأوّل مرّة منذ عام 1970، تجتمع المؤسسة العسكرية بكاملها وتقرر إرسال طْلاس لمقابلة الرئيس، والطلب منه رحيل الكسم، وجادله الرئيس في ذلك، ولكنّه قَبِلَ أخيراً الطلب... بعد يومين عدّل رأيه فاستدعى الرئيس طْلاس، وقال له إنّه قرّر اختيار الكسم مجدّداً لرئاسة الوزارة، وإنّه رجل أمين وكفء، وأنّه لم يجد من يخلفه وله نفس صفاته. بعد ساعتين هتف إبراهيم الصافي للكسم بعدما أعلمه طْلاس بنتيجة المقابلة مع الرئيس، وهدّده بالحرف الواحد: "إذا كنت تريد رؤية زوجتك وأولادك أحياء ننصحك برفض اقتراح الرئيس".[114] وبعد أيّام قليلة سُمّي محمود الزعْبي رئيساً للوزارة.

هذه الرواية التي تمثل سلوكيات أصحابها تظهر، بطريقة ما، ضَعْف النظام. ونتيجة المراقبة المتبادلة على بعضهم البعض وتحييد قوى بعضهم البعض يسهم هؤلاء (بؤرة المؤامرات هذه) في خلق مناخ من (البارانويا)، وهكذا يصل غول النظام إلى التهام أولاده ذاتهم، كما يصوّر ذلك بحق جيمس بول في كتابه.

الأكيد أنّ الأسد يبقى سيّد (اللعبة) لعدم بروز شخصيات قويّة نسبيّاً من داخل المؤسسة العسكرية، التي لكلّ واحد من أعضائها التُهَمُ التي تلوّثه. ولكن، مع ذلك، ليست باستطاعة الرئيس بعد الآن أن يهاجم مواجهةً ائتلاف المصالح الهائلة التي يمثّلها بضع عشرات من الرجال الذين يدينون له

بكلّ شيء.

دولة الحق الذي لا وجود له

هذه الصراعات المسلحة على السلطة، وهذا السلوك المتعجّل يقودنا بصورة طبيعيّة للتساؤل عن أوضاع الحريات الفردية والعامة في سورية. بالتأكيد الخطابات الأخيرة، بخاصة في آذار 1990 بمناسبة مرور 27 عاماً على وصول البعث إلى السلطة، أرادت أن تكون مُطمئِنَة. يطلب الرئيس، إذن من الحكومة الحدّ من تطبيق قانون الطوارئ المفروض على البلاد منذ ثلاثين سنة. قال الرئيس يجب ألا يكون قانون الطوارئ «مطبّقاً» إلا على المشكلات الأكثر أهمّية: أمن الدولة والنظام العام إذن! الواجب أيضاً التحديد الدقيق لهذين الموضوعين...

وقبل أسبوع من ذلك وفي خطاب ارتجالي أمام البرلمانيين، ترك حافظ الأسد لنفسه التعليق على "(الحرية)": "لا أريد أن أقول أنّ عندنا كلّ الحريّة المرجوَّة، ولكننا نريد دائماً المزيد. نحن لا نخشى من الحرية... فموضوع الحرية ليس موضوع خلاف بيننا ونحن نُفتّش عن صِيَغ مناسبة حسنة الإعداد". حتماً أجادت قريحة الرئيس في ذلك اليوم، فلقد أكّد أنّه منذ مجيئه إلى السلطة عام 1970، تقرّرت التعدّدية الحزبية: وهذا جواب للأسئلة التي تُقدّم إلى سورية سواء منها الصادق أو التي تحمل أفكاراً مسبقة، بعد التطورات التي حدثت في البلاد الاشتراكية".

لم يكن لأحد طبعاً الشجاعة لتذكير الرئيس أنّ في قلب الجبهة الوطنية التقدّمية، أعلى إطار سياسي في سوريا، الذي شُكّل عام 1971، ويضم ستة

أحزاب، لدى البعث الغالبية المطلقة فيه، أما هذه التنظيمات الأخرى فيقتصر دورها على إكمال (الديكور).

أو عندما لا يكتفون بهذا الدور، كما كان الأمر في أيلول 1979، عندما دعوا بحيويّة النظام "إلى التطبيق الحازم لمبدأ سيادة القانون و"دعم سلطة واستقلالية القضاء" و"احترام وتنفيذ الأحكام القضائية"، و"حصر سلطة محاكم الأمن الخاصة بالجرائم المرتكبة ضدّ أمن الدولة فقط"، عادوا واستنكروا ذلك بفظاظة بعد عدّة أشهر. وفي الواقع بدل الإنصات إلى التمنيات الورعة للجبهة الوطنية التقدّمية عمد النظام إلى حلّ نقابات المحامين وسجن ستين محامياً.

على كلّ حال كان من الأولى لحافظ الأسد أن يبدأ التنظيف والكنس أمام بابه الخاص، -كما يقول المثل- فكيف يمكن في الواقع أن يبقى في عام 1990 صلاح جديد السابق عليه، ومحمد عيد عيشاوي ومحمد رباح الطويل رفيق صلاح جديد في حظّه السيئ ووزير سابق للداخلية، ومراد حديثي وزير سابق، ونور الدين الأتاسي رئيس سابق للجمهورية، أن يبقوا كلهم في السجون دون محاكمة بعد عشرين سنة من الاعتقال، وآخرون مثل محمود فيّاض ومصطفى فلاح وحسين زيدان وجلال مرهج الذي حُكم عام 1970 بالسجن لخمسة عشر عاماً، بسبب ميولهم -بمشاعرهم- لبعث العراق وأُبقوا في السجن بعد أن انتهت مدّة حكمهم! (أمّا حسين زيدان فلقد مات في السجن من الإنهاك والإرهاق في نيسان 1991) وهذا ما قرره الأمر... أما بالنسبة ليوسف زعيّن الوجه الآخر البارز في البعث اليساري، فلقد أطلق

سراحه عام 1985 في حالة لن تمثّل أيّ تهديد، لماذا كلّ هذا العنف والضراوة؟ ربما هي طريقته في ردّ الصاع صاعين للرفاق القدامى في الحزب الذين كانوا يكرهون انتهازيته والذين كانوا في الغالب أعلى منه ثقافة وفكراً و لم يكنّوا له أيّ احترام، إلا أنّه كان هو نفسه معجباً بهم إلى حدّ ما.

في عام 1977 وفي الوقت الذي بدأ يبتعد فيه عن الكتائب اللبنانية، وحيث تراكمت المصاعب على سوريا بسبب (كامب ديفيد)، أرسل الأسد أحد المقرّبين منه —وهو من المعتدلين– للتباحث مع صلاح جديد؛ كان يريد توسيع الحزب وفتح الجبهة الوطنية التقدّمية لمزيد من الفئات، فيرد جديد بفظاظة كما فعل آخرون ممّن أرسل لهم الرُسُل: "إذا وصلت البلاد إلى ما هي عليه الآن فأنت السبب في ذلك، لقد أغْرَقتْها بالأوحال، ولا تعتمد علينا لمساعدتك على الخروج من هذه الأوضاع".

وبعد سنوات قليلة أرسل عدّة مبعوثين لزيارة رياض الترك رئيس الحزب الشيوعي (المكتب السياسي المنفصل عن الحزب الشيوعي السوري بزعامة خالد بكداش) والذي سجنه الأسد أيضاً، ومن بين المبعوثين علي دوبا نفسه. وبداية عام 1987 حاول الأسد مرّة أخرى إغراء رياض الترك وأرسل له يوسف فيصل عضو الحزب الشيوعي الموالي لموسكو وكان يُعتبر رجل الـــ(ك.ج.ب.) —المخابرات الروسية– و لم يلاق النجاح. رياض الترك أحد المسؤولين السياسيين البارزين في سوريا والعالم العربي طلب ضمانات جادّة فيما يخصّ الحريات الشخصية ثم أنهى حديثه مع المبعوث إليه —يوسف فيصل– بنفور قائلاً له: "لقد عرض عليّ علي دوبا أكثر ممّا تعرض".[115]

وبالنسبة لرياض الترك، كانت النكتة التالية —صحيحة أو غير ذلك– متداولة لبعض الوقت في دمشق. فيما كان حافظ الأسد يتناول فطوره مع زوجته وأولاده أعلنت ابنته بشرى فجأة أنّ "أغلب الوزراء والضباط هم لصوص"، فغضب الرئيس وأجاب بخشونة: "وضعْت رياض الترك في السجن، وها أنا أسمع صوته في عقر داري".

سقوط حزب البعث

تجب هنا أيضاً بعض الملاحظات السريعة عن حزب البعث، وهي موجودة في جميع أجزاء هذا الكتاب، ولكن لا يجب في النهاية المبالغة في تقدير أهميّتها مع أنّها صحيحة، فكما لاحظت (إليزابيت بيكار) وهي اختصاصيّة ممتازة بموضوع سوريا المعاصرة: لقد فشل حزب البعث في مهمته لتقوية الصلة بين القادة والشعب.(116)

نحن لا نضيف هنا بعداً آخر لعقيدة البعث التي رتّبها أساساً ميشيل عفلق والتي تتلخّص برمز وحدة، حرية، اشتراكية، فليس لهذا الشعار أيّ تأثير الآن على السوريين الذين أرادوا الانتقام من نظام يمقته الكثيرون، فبدّلوا كلمة (حريّة) بكلمة حرامية. هناك فكرتان رئيسيّتان تهيمنان على الميثاق المؤسِّس لحزب البعث؛ من جهة: العرب يشكّلون أمّة واحدة موحّدة سياسياً واقتصادياً؛ من ناحية أخرى: الإنسانية تشكّل مجموعة، مصالحها متضامنة وقيمها ومدنيتها مشتركة. فالعرب يغتنون بالمدنية العالمية وهم بدورهم يغنونها. ومن هنا التركيز على أمجاد العرب الماضية بما فيها بالطبع مكوّنها الإسلامي.

وأشار عفلق دائماً وهو من الطائفة الأرسوذوكسية إلى أهمّيّة الإسهام الإسلامي في الحضارة العربية. وحزب البعث كذلك مقتنع بأنّ الاشتراكية "هي ضرورة نابعة من أعماق القومية العربية نفسها"، ولكن كلّ هذه هي كلمات و(إليزابيت بيكار) تستطيع بحق أن تقدّر: بالرغم من ضعفها البنيويّ فإيديولوجية البعث لا ترفضها الجماهير العربية لأنّ هذه الكلمات المنظمة لا يمكن مهاجمتها ولا تبلى".[117] ومنذ عام 1970، فإنّ انتصار الجنرال الأسد "هو بوضوح، انتصار رجل واقعي براغماتي لا يُربكه الجدل النظري".[118]

وبُنية حزب البعث هي منقولة إلى حدٍ كبير من بنية الأحزاب الشيوعية في الديموقراطيات الشعبية لأوروبا الشرقية. فكلّ ما هو مهم مدوّن في كراسات... وهكذا تمتع البعثيون بامتيازات مفرطة. والحزب هو وسيلة للترقي ولكنه أيضاً وسيلة للإقصاء لأنّه لا يحبّ قطّ الأفكار الجريئة والابتكار، وعلى هذه النقطة سنترك (لإيليزابيت بيكار) مهمّة الاستنتاج: "في ممارسته للوظائف المتنوعة التي أسنَدها له الديكتاتورية، يبدو حزب البعث متواضع الوسائل بسبب النواقص في مضمونه الإيديولوجي، كما في إخلاصه بعملياته في اختيار النُخب وعدم قدرته على تحريك وتجنيد القوى المجتمعية (...). والنظام السياسي الذي شُكّل في سوريا في الستّينات –من القرن العشرين– تطوّر إلى دكتاتورية الفرد التي أرادت "الشعبية" حيث فشل البعث في رسالته للوصل بين الشعب والقادة: لأنّه كان على تناقض مع مبادئه نفسها وأضعفَ بذلك شرعيّته؛ ولأنّه كان غير موثوق كجهاز للسلطة، خسر بذلك وسائله. وهذا التطور القاسي هو علامة جديّة على هشاشة النظام".[119]

الشعب السوري هو الضحية الأولى

كلما ازداد شعور النظام بهشاشته، تنامى القمع في مستوياته. تحدّث الناس كثيراً وبحق عن الاستخفاف والصلف والشراسة —الوحشية— التي أظهرها حافظ الأسد ومعاونوه تجاه اللبنانيين والفلسطينيين، ولكن في الواقع حتى لو أنّه رَمَى بكثير من الزيت على النار المشتعلة، ليس على الرئيس السوري مسؤولية قطّ في الدراما الفلسطينية، والمسؤولون اللبنانيون بحماقتهم وأنانيتهم فعلوا الكثير من أجل تسهيل عمَلِه في لبنان. ولكن بالمقابل يجب عليه يوماً تقديم الحساب عند مساءلته عمّا فعل بالمجتمع السوري. ومنذ العام 1970، وضحايا القمع يُعدّون بعشرات الألوف؛ كلّ الطوائف بما فيها طائفة العلويين، وهي التي نشأ فيها، دفعت قسطها. كلّ التشكيلات السياسية المرخّصة وغير المرخّصة أصابها أيضاً ما أصابها منه، بما في ذلك حزب البعث. ومع ذلك من كلّ الفرق السياسية والإثنية والدينية المصابة لا جدال في أنّ وحشيّة النظام طُبّقت في أعنف صورها على الإخوان المسلمين.

ولكن قبل متابعة الموضوع من المناسب التذكير بأنّ حافظ الأسد لم يبتكر في هذا المجال، وأكتفي بالقول إنّه منذ بداية الستينات تواجه في أحداث عنف في اللاذقية طلاب بعثيون، غالبيتهم من العلويين مع الإخوان المسلمين المتعصّبين تماماً! فضلاً عن ذلك، تعصّب بعض الأوساط السنيّة —وليس فقط داخل حركة الإخوان المسلمين—، عبّر عن نفسه في أوائل السبعينات ضدّ تعديلات الدستور الشديد العلمانية لعام 1969؛ ولقد قام حافظ الأسد بالتعديل لتهدئة الغالبية السنيّة في البلاد. وبهذه التعديلات عادت مجدداً المادة

التي تنص على وجوب أن يكون رئيس الدولة مسلماً حتى ولو لم يعتبر الإسلام دين الدولة الرسمي. ولكن هذا التنازل وغيره لعلماء السنّة[120] لم يكن كافياً لتهدئة المشنّعين عليه. فبالنسبة لهؤلاء الأخيرين الأسد بكل بساطة اغتصب كعلوي السلطة –التي لا تجوز له– وينسى أو يتناسى أصحاب هذا الرأي تاريخ بلادهم نفسها، ففي عام 1936 ونتيجة لدعوى قدّمها مسلم سنّي، معتمداً على أقوال ابن تيمية طالباً الاعتراف بأنّ قتل العلوي يتماشى مع الشريعة!، صَدَرتْ فتوى لأحد مشايخ السنّة اعتبر النُّصيريين –أو العلويين– من المسلمين الكاملين.[121] كذلك في الدستور السوري (أيلول عام 1950)، السنة والشيعة والدروز والعلويون والإسماعيليون يعتبرون كلهم مسلمين.[122] وأخيراً في قانون 17 أيلول 1953، المتعلّق بالأحوال الشخصية ليس هناك فرق بين المسلم (سنّة وشيعة وعلوي وإسماعيلي) وبينهم وبين غيرهم. والوضع الخاص كان هو فقط للدروز والمسيحيين.

والأزمة الكامنة منذ عدّة سنوات انفجرت بطريقة عنيفة في آذار 1979 في الوقت الذي جرت فيه محاولة إجرامية غاية في التطرف أدّت إلى موت ثمانين من الطلاب الضباط كلّهم من العلويين في الكلية العسكرية بحلب. والذي دبّر العملية إبراهيم يوسف ضابط مدرِّب، فسّرها بعد مدّة من حدوثها على أنّها احتجاج على السياسة الطائفية للنظام: "أردتُ لفت انتباه الرأي العام على واقع غير مقبول في وجود (267) علوي من أصل 300 طالب ضابط في تلك الدورة مع أنّ الطائفة العلوية لا تمثّل إلا 10 ٪ من الشعب السوري. هذا ما جاء في تصريحه للجريدة الإسلامية النذير. ومنذ ذلك الحين بدأت حربُ لا

"تسَرُّب العناصر الرجعية إلى هذه الجمعيات"، وفي أواسط شهر نيسان أعلن عن قيام جمعيات نقابيّة جديدة مضبوطة تماماً بالسلطة الحاكمة. ولقد تعرّض للتعذيب عدد كبير من المحامين والمهندسين والأطباء، بل بعضهم اغتيل بوحشية. الدكتور عمر الشيشكلي وجه بارز ومحترم في الجسم الطبي السوري، ورئيس الجمعية السورية لأخصائيي أمراض العيون قُتل في أحوال شنيعة ثم سُحبت جثته في شوارع مدينة حماه.[127]

ولا يمكن الانتهاء أبداً من تعداد حالات التعذيب والإعدامات الجماعية والتغييب (والاختفاء) التي بقيت حتى اليوم دون تفسير، في السنوات الأولى لعقد الثمانينات.

وبسبب إظهاره كثيراً من استقلالية الفكر عُذّب الأستاذ سليم اللوزي رئيس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية ثم أعدم، ومثّلوا بجثته. كان منفياً في بريطانيا العظمى ولقد اعتقله عملاء المخابرات السورية في لبنان عندما عاد ليحضر جنازة أمّه! كان ذلك في الرابع من آذار 1981م، وقبل تسعة أشهر من هذا التاريخ تعرّض أيضاً رياض طه للتصفية، وكان رئيساً لنقابة أصحاب الصحف في لبنان، وكثيراً ما تدخّل لصالح زملائه اللبنانيين الذين كان عملاء المخابرات السورية يوقفونهم.

ومن أجل أن يضمن حافظ الأسد جامعات هادئة، عمل في نيسان 1975 خلال المؤتمر القطري السادس لحزب البعث على تسمية أخيه رفعت الأسد رئيساً لمكتب الدراسات العليا في القيادة القطرية. وبهذا أصبح رفعت رئيس كلّ الجامعات السورية. ولكي يعطي (العريف القديم) المصداقية! لمنصبه

الولايات المتحدة: "في الوقت الذي تتكلمون فيه عن الدفاع عن الحريات والعدالة وحقوق الإنسان وفي مكافحة الإرهاب العالمي تدعم أميركا الإخوان المسلمين وتكلّفهم القيام بأعمال التخريب في بلادنا. واعترافات بعض الإخوان، والعتاد المصادر، من أصل أمريكي، وتصريحات نظارة الخارجية هي البرهان لهذا التواطؤ"، هذا ما صرّح به الأسد لباتريك سيل.[125]

ولـــ(لوسيان بيتر لِنْ) أكّد الأسد (أنّ الأميركان والإسرائيليين أرادوا إضعاف سوريا بحيث لا تستطيع معه أيّ مقاومة لاتفاقيات كامب ديفيد)، فسوريا في الواقع تمثّل العمود الفقري لمعارضة هذه الاتفاقيات رمز إذلال الشعب العربي واغتصاب حقوقه".[126]

العلمانيون أيضاً أُصيبوا بشدّة

ولكن إذا لم يتوقف الإخوان المسلمون عن دفع الثمن المرتفع، فبقية المعارضة أو بتعبير أدق كلّ من عارضوا هذا النظام الذي لا إيمان ولا قانون له، دون أن يكون لهم دافع يجعلهم خصوماً سياسيين، تأثّروا بشدّة من عمليات القهر والقمع. وفي (31 آذار 1980)، وبعد عدّة أشهر من الإضرابات والمظاهرات طالبوا خلالها بإنهاء الأحكام العرفية (وحالة الطوارئ) بخاصّة، و"أصحاب المهن" أي المحامون والأطباء والصيادلة والمهندسون الذين انتظموا في نقاباتهم الوطنية، قرّروا الإضراب احتجاجاً على توقيف بعض قيادييهم، وفي الأيام التالية أُوقف معظم هؤلاء الزعماء وأودعوا السجون، بينما صدر قرار نُشر في 8 نيسان بحلّ كلّ النقابات المهنية على المستوى الوطني، والمناطقي، والمحلي، أمّا الذريعة التي قدّمها النظام لتعليل ذلك فهو:

رحمة فيها بين النظام والأصوليين المسلمين. وبينما اغتال هؤلاء شخصيات علوية وأعضاء في حزب البعث، عمدتْ سرايا الدفاع وغيرها من المليشيات العسكرية التابعة للنظام إلى مئات الإعدامات الجماعية وآلاف الاعتقالات في حلب وتدمر وحماه -منذ ذلك التاريخ- وعرفت مدينة جِسْر الشغور عام 1980 و1981 عمليات صَلْبٍ حقيقيّة ولكن كانت مدينة حماة في شباط-آذار من عام 1982، هي التي جَرتْ فيها الحوادث التي لا يمكن تبريرها والتي عرف الناس أحزانها منذ ذلك التاريخ. إذا كان الأمر دقيقاً كما أكّد الأسد بعد ذلك لجريدة (لوموند)، أنّ "عصابات من الإخوان المسلمين هاجمت بيوت عدد كبير من أعضاء حزب البعث والقوى التقدّمية الأخرى، من العمال والمهنيين وقتلوهم في منازلهم. فمن الخطأ القول كما فعل الأسد: "بأنّ الدولة قامت بواجباتها وبذلت أقصى جهدها للحدّ من الخسائر".[123] ولا نتجاسر في الواقع تصوّر الخسائر لو أنّ الدولة لم تبذل، في إطار تسامحها! أقصى الجهد للحدّ من الخسائر. وما من أحد يستطيع أبداً إعطاء أرقامٍ دقيقة عن عدد الضحايا والخسائر خلال تلك الأسابيع المخيفة؛ ومع ذلك تتكلم المعارضة الوطنية الديمقراطية والممنوعة -لأكرم الحوراني المنفي في فرنسا- في ملف قويّ الإسناد، عن خمسة وعشرين ألف قتيل، وأكثر من ألفي اسم مدونين مع عناوينهم الأصلية في أحيائهم،[124] ولكن هناك مئات العائلات التي لم تشأ الشهادة خوفاً من ثارات جديدة.

ولقد وُجِّه لأسد أكثر من مرّة أسئلة عن هذه الأحداث الدامية، فقدّم دون أن يطرف له جفن حق الدولة في ذلك مع إلقاء أكبر قدر من المسؤولية على

الجديد، عمل من خلال سمسرة قذرة مع جامعة موسكو لتسليمه شهادة دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية. أمّا أطروحته والتي يعرف كلّ واحد من الناس أنّه لم يخطّ سطراً واحداً فيها، فلقد طبعت ككتاب في دمشق. على كلّ حال بعدما قوّى النظام وجود مكاتب المخابرات والاستعلامات في حرم الجامعات، وجنّد مئات المخبرين ليأخذ فكرة أدق عن إمكانات المعارضين في الجامعات، بدأ رفعت بطرد العناصر غير الموثوقة، ثمّ، مقابل مختلف أنواع الامتيازات والتسهيلات في الامتحانات وتسهيلات السفر والبعثات، والرواتب الأعلى... الخ، بدأ ضغوطه على الأساتذة والطلاب معاً للالتحاق بالحزب.

كلّ هذا لم يمنع الطلاب من مضاعفة المظاهرات الاحتجاجيّة في بداية عام 1980. فاعتقل أكثر من ألف من الطلاب في جامعة حلب حيث دخل الجيش الحرم الجامعي منتهكاً حرمة الجامعة بلا خجل، ونفس السيناريو حدث في دمشق واللاذقية. واتخذت قرارات عجيبة في بعض الأحيان. وهكذا وخلال عامين لم يبق واحد من أساتذة علم التشريح في كليات الطب في الجامعات مع أنّ الأمر كما يلاحظ (جيمس بول) بسخرية لم يكن بالتأكيد بسبب نقص في الجثث...[128] أخيراً، عندما فشل رفعت في إذلال وقهر الجامعات حلّ محلّه عام 1980 رئيس مخابرات آخر، هو أحمد دياب. وهكذا تعمل الجامعات المزروعة بالمخبرين، بعد التخلّص من أكثر عناصرها معارضةً للنظام، منذ ذلك التاريخ بصورة تتراوح بين السوء والجودة. وتجري الدراسة تحت رقابة شديدة!.

في الواقع، (خليط من الإرهاب والسيطرة الأبوية، من سلطة شديدة الجفاف مع بعض إشارات انفتاح)،[129] إلا أنّ النظام لم يتوصّل، حتى أواخر الثمانينات، إلى خنق كلّ أطياف الحرية. وهكذا في 24 آذار 1989، نشر خمسون من المفكرين والكتّاب والمخرجين السينمائيين والشعراء والأساتذة المدرسين المشهورين الذين يعيشون في سوريا وفي المنافي بياناً في جريدة السفير اللبنانية، أعربوا فيه عن دعمهم لسلمان رشدي باسم الحرية الفكرية، والذي دافع عنه على كلّ حال حزب البعث، ولسوء طالعهم عندما سألت مجلة التايم الرئيس الأسد قبل أيام أبدى انتقاده لرشدي. فأرسل البوليس السري بسرعة إلى هؤلاء المعارضين المخيفين ليسألوا هل موقّعوا البيان فعلوا ذلك قصداً لمناقضة رئيس الدولة: "لا، أجابوا بصوت واحد، فالعريضة نشرت قبل عدّة أسابيع!"، واضطر رجال المخابرات الحانقون، لسوء حظهم قبول الجواب بنيّة طيبة.

يجب أيضاً تخصيص دراسة شاملة لكلّ ما نشر في الإعلام الرسمي أو كلّ ما هو موجود في المكتبات. بالتأكيد لم يكن هناك انتقاد للرئيس ولا مديح للنظام العراقي ولا لإسرائيل. وفي نفس الإطار لا يمكن إثارة مناقشات دينية ولا يمكن في سوريا توسيع معلوماتك عن الطائفة العلوية. أخيراً، إذا فتّش البعض في دمشق أو حلب عن نصوص أساسية مكتوبة عن حزب البعث بقلم ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار فلن يجدوا شيئاً. الأول اختار أن يقضي بقية حياته في بغداد حيث مات عام 1989، والثاني اغتاله عملاء أمن النظام في باريس عام 1980. وكلاهما (غير موجود) بالنسبة للسلطات السورية الحالية. والرقابة الإعلامية تعمل بطريقة غير متماسكة إلى حدٍ بعيد، فرواية (ماكْبث) أو

ريتشارد الثالث يمكن تمثيلها أو عرضها بدون مشكلة في سوريا لأنّ الطريقة التي تتعامل فيها هاتان الروايتان مع موضوع الطغيان واغتصاب السلطة حاذقة إلى درجة أرقى بكثير ممّا تستطيع سلطات الأمن فهْمَها، وهذا ما يلفت للضعف الإيديولوجي للنظام وعدم قدرته على الاحتواء الكامل للمعارضين المثقفين.

ولكن، عندما نتصور مليارات الليرات السورية التي يبتلعها النظام لتعبئة وتجنيد الشعب في سوريا، يمكننا أن نردد مع (إليزابيت بيكار) أن جيشاً يخصّص هذا الكمّ من قدرته ونشاطاته للصراعات الداخلية ليس هو في وضْع يسمح له بتأدية واجبه لضمان سلامة الدولة والوحدة الوطنية.[130]

خمس عشرة سنة في لبنان

عندما وصل حافظ الأسد إلى السلطة في تشرين الثاني 1970، كانت الفرصة قد سنحت له قبلاً بتحديد الخطوط الكبرى للسياسة السورية الجديدة، وكيف يجب أن تكون عليه في نظره هو. قام بذلك خلال المؤتمر الاستثنائي للحزب (تشرين أول/تشرين ثاني 1971)، ممّا أدّى إلى استبعاده مع صديقه طلاس من القيادة. وقام بذلك أيضاً، خلال العديد من خطبه التي ألقاها بعدما قام بالانقلاب، والذي يلفت النظر بشدّة لدى قراءة هذه الخطب هو التركيز الذي وضعه باستمرار على موضوع (حريّة) أو (كرامة) المواطن، التخلّي عن فكرة صراع الطبقات التي كانت عزيزة على قلوب سابقيه –في الحزب والدولة– لمصلحة فكرة مبهمة من الأنسنة Humanism التي ليس هناك بداهة أي شيء ضدّها ليُعاد ذكره. وإعادة التضامن العربي تشكّل النقطة القويّة الثانية في خُطَبِه فأسد يريد إنهاء عزلة سوريا وإحدى مبادراته الأولى ستكون الالتحاق باتّحاد الجمهوريات العربية الذي ضمّ مصر وليبيا والسودان. وعلى الصعيد الاقتصادي كانت الثقة الجديدة بالفرد التي تُرجِمَتْ في (الانفتاح) الاقتصادي الذي سيسمح لكلّ فرد بإظهار إمكاناته دون أيّ عائق لديناميّته بتدخل كثير من الدولة.

أخيراً، على الصعيد السياسي، قبلَ البعث بالتخلي عن احتكاره للسلطة لمصلحة الجبهة الوطنية التقدّمية التي يستطيع الانتساب إليها كلّ التيارات اليسارية إذا شاءت ذلك، وبالتوازي في منظور النظام الرئاسي الذي يريد

تبنّيه، يتعهّد بقيام دستور دائم.

وبالنسبة للمعارضة السورية آنذاك التي كانت تعبّر عن نفسها من خلال الجامعيين، كانت —خطّة الأسد- عبارة عن ستارة عريضة من الدخان غايتها تغطية شهوات طاغية. ويلومونه على انفتاحه للبرجوازية المحلية وعلى (الرجعية العربية) وإرادة التصالح مع (الإمبريالية العالمية) وبجعل الحكومة أو السلطة كهدفٍ نهائي بحد ذاته، وباختصار، إنهاء (الطليعة الثورية) للحزب بقطع روابطه، بخاصة مع الجيش، الذي أصبح وحده سيّد (اللعبة).

على الصعيد العربي عندما استلم حافظ الأسد مقاليد الحكم السوري في 16 تشرين الثاني 1970، كان ذلك بعد شهر ونصف من وفاة عبدالناصر الذي لم يترك وراءه وريثاً، حتى ولو أنّ السادات أظهر أنّه أقل غباءً بكثير ممّا أراد الكثيرون اعتقاده.

وبتخلّصه من ظلّ عبدالناصر الهائل، وكبعثيّ جيّد —على الأقل في هذه النقطة- لم يُحبّه. وبعد استبعاده لمنافسيه ثَـبَّتَ الأسد بصبر ومنهجية سلطته. كان همّه الأول ليس إدارة سوريا بنـزاهة —مع أنّه عمد إلى اتخاذ تدابير عدّة لتخفيف الجو الضاغط الذي تركه سابقوه- ولكن، إنْ لم يستطع الحلول في المكان الذي تركه (رجل السويس) فارغاً، فعلى الأقل أخذ مكاناً له بين الرجال الذين يجب أن يُحسب لهم حساب في هذا الجزء من العالم.

ففي نفس أسد "ديغول ضال"، وكون ديغول أباً "لفرنسا الحرة" لم تهمُّه المصلحة الإدارية قط، ولكن بخلاف الجنرال ديغول، كلّ (الوسائل) عنده جيّدة ليستطيع تكريس نفسه للواجب الوحيد الذي يظنّ أنّه يليق به: جعْل

سوريا قوّة إقليمية لا يمكن إغفالها.

وهكذا يحضّر الرئيس السوري للحرب مع إسرائيل بترابط وثيق مع أنور السادات، وسلوك قواته المشرّف عام 1973 وصفاته كمفاوض سمح له باكتساب (البُعد) الدولي الذي طمح له. فإعجاب هنري كيسنجر به وترديد الأخير المديح له في بلده، وزيارة (ريتشارد نكسون) لدمشق في 14 و15 حزيران 1974، عندما كان الأخير متأكداً من أنّ فضيحة ووترغيت ستبتلعه، أراحت أسد في دورهِ كزعيم إقليمي ورجل دولة على المستوى العالمي. وفي هذا السياق بدأت أوضاع لبنان بالتدهور، ومنذ تلك الساعة ارتبط قدرُ رئيس دولة سوريا بصورة حميمة، بمصير هذا البلد التعيس.

دخول سوريا إلى لبنان

انفجرت الحرب الأهلية في لبنان في 13 نيسان 1975، وكان الأمر متوقّعاً منذ مدّة طويلة. فقَتْلُ 27 فلسطينياً على يد الكتائب، بعد ساعة ونصف من محاولة اغتيال بيير الجميل رئيس الكتائب اللبنانية، والتي أدّت إلى مقتل أربعة، أشعل برميل البارود.

والجزء الأول من الصراع المخيف، المستمر بأشكال أخرى وبصورة متقطّعة... حتى هذه الساعة، دام ثمانية عشر شهراً، ومنذ البداية، كان حافظ الأسد، في قصر الرئاسة بدمشق على اطّلاع دائم بتطوّرات الأوضاع، وبدون أيّة توجّهات نفسيّة خاصة، ساعد الأسد بالضربات الأولى لوحدة ما سمّاه البعض تعسّفاً (سويسرا الشرق الأدنى). وفي ثلاثة وخمسين شهراً اكتسب عبر محن قاسية مثل حرب أكتوبر، تجربة لا مثيل لها. وإذا استطاع التفاوض على

اتفاق مشرّف! بفكّ الارتباط مع إسرائيل فإنّه كان على علم تام بأنّ شيئاً لم يحسم بعد تماماً، وأنّ حلّ صراع الشرق الأوسط يعتمد دائماً على الأماني الورعة. ومن المؤكّد أنّ الفلسطينيين كانوا في الموقف الأسمى فقضيّتهم لم تكن أبداً بهذه الشعبية من قبل، بعد خطاب رئيسهم ياسر عرفات في تشرين الثاني 1974، أمام الجمعية العامّة للأمم المتحدة.

ولم يكن عند الأسد أوهام بالنسبة للحماسة التي يثيرها في العالم الثالث وفي الأوساط الغربية التقدّمية موضوع الفدائيين —الفلسطينيين—، أمّا بالنسبة للأميركان والإسرائيليين فتبقى منظمة التحرير الفلسطينية مأوى الإرهابيين الخطرين والتفاوض معهم غير وارد. وكان لدى الأسد نفسه تحفّظات بالنسبة لعرفات وأصدقائه. فنشأته البعثية، ومهنته العسكرية ومزاجه الشخصي كرجل نظام، كلّ ذلك جعله لا يقدّر أبداً الفوضى الوديعة التي نشرها الفلسطينيون في لبنان منذ طردهم من الأردن عام 1970-1971. من جهة أخرى وقبل هذا التاريخ، أودع الأسد وأصدقاؤه السياسيين الفلسطينيين "المشاغبين" السجن مرّات عدّة بمن فيهم مسؤولين مهمّين مثل جورج حبش. أضف إلى ذلك كان الأسد يكره بصورة متناهية شخصية ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وشخصية الأسد المتزهّدة المنطوية المتصلّبة لم تنجذب لهذا الفلسطيني. فهو يحكم على هذا الممثل الكوميدي المتزلّف ذي اللسان العذب بأنّه غير أمين.

من ناحية أخرى، فهم الأسد منذ نهاية 1973 أنّه لا يتوقع أيّ فائدة من مصر بعد أن قرّر رئيسها أنور السادات أن يعمل لوحده مصطفاً بكلّ عزم وتصميم في المعسكر الأمريكي. ولكن إذا لم يستطع شيئاً كثيراً في مواجهة

السياسة المصرية فقد نوى بالمقابل، تنمية نفوذه في المنطقة التي يعتبرها محفوظة له، ولبنان يشكّل (العقدة الغوردية Le Noeud Gordien)[*] والواقع أنّه رغم حدوث هذه الخلافات بصورة هادئة تماماً، لم ينتظر الجنرال الأسد عام 1975 ليظهر اهتمامه بلبنان. فبعد حرب أكتوبر –تشرين أول– مباشرة وفي بداية عام 1974، أغلق حدود سوريا مع لبنان لمدّة طويلة لكي يضغط على حكومة بيروت لتسليح جنوب لبنان، وكان رئيس جمهورية لبنان آنذاك ومنذ العام 1970 سليمان فرنجية الصديق الشخصي للرئيس الأسد، إلا أنّه اضطر إلى رفض هذا العرض تحت ضغط غالبية المسؤولين الموارنة، على كلّ حال فهم الأسد وهو الاستراتيجي الجيد أنّ كلّ خصومه ومنافسيه سيركّزون هجومهم على (الحلقة) اللبنانية، وهي الأضعف في العالم العربي؛ والواقع أنّ البعد الدولي للرئيس الأسد الذي أكتسبه خلال وبعد حرب أكتوبر –تشرين أول– يزعج الكثير من الناس: إسرائيليين وفلسطينيين وعراقيين واليمين واليسار اللبناني، حتّى لا نذكر إلا أكثرهم فاعلية... إذا لم ننس أنّ كلّ هذه الأطراف وعملاءها يعملون على أرض ملغومة بتوازنات مختلّة خطيرة على الأصعدة السياسية والاجتماعية، يمكننا أن نفهم بصورة أفضل لماذا تفسّخت أيضاً الأوضاع بسرعة في لبنان.

تلك الساعة، لم يكن للرئيس السوري أبداً وسائط ليمنع أعمال التخريب التي كانت تقوم بها إسرائيل والعراق، وكان مشغولاً بصورة رئيسية بالحلف الذي أقامه رئيس م.ت.ف. مع كمال جنبلاط سيد دروز الجبل ورئيس

(*) العقدة الغوردية، هي عقدةٌ قطعها الإسكندر الكبير بسيفه.

اليسار اللبناني، هذا الحلف بدا له مشبوهاً سيّما وأنّه كان لزعيم الدروز طموحات قوية. كان متمتعاً بشعبية كبيرة تذهب لأبعد من منطقة نفوذه في الشوف، وكان جنبلاط يحلم بسحق اليمين المسيحي ليصبح ملهماً لدولة لبنانية علمانية وعصرية. وفي ربيع 1976 أخذ الحلم تقريباً الشكل الواقعي؛ فالهجمات على القوى المسيحية جاءت من كلّ جانب، بينما الأحزاب التقدّمية اللبنانية المدعومة بقوّةٍ من قبل الفدائيين بدأت زحفها على المناطق المسيحية في الجبل. وكان همّ حافظ الأسد قبل كلّ شيء ألاّ يرى قوّة نامية قابلة لمنازعته سلطته. لذا اختار أن يصطف بجانب اليمين المسيحي ضدّ اليسار اللبناني وحلفائه الفلسطينيين. كان التأثر والانفعال كبيرين في سوريا حيث لم يفهم المواطنون كيف يقدر الرئيس على نجدة التشكيلات المسيحية التي تحظى أصلاً بمساعدة إسرائيل. في الواقع كان السبب بلا شكّ خوفه من أنّ انتصار الفلسطينيين وأصدقائهم قد يقود إسرائيل إلى التدخّل مباشرة في الصراع دون أن يستطيع جيشه رفع إصبعه فقرر الأسد التحرك. وفي تحليله للوضع ولردّة الفعل المحتملة في سوريا فكّر الأسد أنّ لا الولايات المتحدة ولا إسرائيل سيحتملان هزيمة في المعسكر المسيحي.

دخل الجنود السوريون لبنان في 31 أيار 1976. وارتفع عدد القتلى رأساً إلى عشرات الآلاف، أمّا الجرحى فكانوا بمئات الألوف والخسائر والأضرار بمليارات الليرة اللبنانية في وقت كانت قيمة الليرة لا تزال 30 سنتيماً.[131] والتعايش الديني الهشّ كان قد انفجر وتشظّى منذ مدّة طويلة. بعض المذابح المروّعة، مثل مذبحة "السبت الأسود" في آخر عام 1975 حيث دفع مئة من

المسلمين حياتهم في شرق بيروت ثمناً لاغتيال ثلاثة شبان مسيحيين، كانت كافية لتقسيم شعب لم يكن أبداً متحداً حقاً. ومذابح أخرى ذات طابع سياسي أكثر، إذا تجاسرنا في استعمال التعبير، أتمّت تقطيع البلد إلى نصفين: وتدمير أكواخ الكرنتينا، جزيرة صغيرة كردية بائسة تؤطرها بعض العناصر التقدميّة في قلب القطاع المسيحي، تبعها بعد قليل من الوقت تدمير مدينة الدامور المسيحية في قطاع سُمّي إسلامي تقدّمي.

وفيما يخصّ هذه المذبحة الأخيرة التي أدّت لمقتل عدّة مئات، أكّد اللبنانيون أنّ عبدالحليم خدّام، وكان عندئذ وزيراً للخارجية في سوريا ومُكلف من قبل الأسد بالملف اللبناني، ترك منظمة الصاعقة لتعمل في هذه المذبحة – وهي منظمة فلسطينية موالية لسوريا، لأنّ رجل الدامور القوي، كميل شمعون الماروني رئيس حزب الوطنيين الأحرار (اليمين المسيحي) سخر منه قبلاً، شمعون كان سياسياً عجوزاً، مكّاراً وفاسداً، ولكن لم تكن تعوزه الشجاعة والنكتة، فلقد أعلن بالفعل أنّ خدّام... تخرّج من جامعة سعسَعْ (وهي قرية صغيرة في هضبة الجولان).

عامل آخر قاد إلى التدخّل السوري —في لبنان–: الصداقة القديمة التي تربط الأسد بالرئيس اللبناني سليمان فرنجية، وهو ماروني من شمال لبنان قريب من دمشق بصورة تقليدية. لذا، بعد عامين، وعندما حصلت القطيعة الكاملة بين الأسد والجبهة المسيحية، تخلّى فرنجية عن كتائب بيير الجميل، و(نمور) كميل شمعون، ولقد حافظ دائماً على علاقات طيبة مع رئيس الدولة السوري. و لم يكن من الصعب على جنود الأسد إعادة التوازن العسكري في لبنان، فوقّع

اتفاق بين النظام السوري والمقاومة الفلسطينية في دمشق في 29 تموز 1976، بينما استمر في بيروت حصار مخيّم تل الزعتر من قبل المليشيات المسيحية، هذا المخيم الذي كان يأوي عشرة آلاف شخص نصفهم من الفلسطينيين ونصفهم من اللبنانيين، كان آخر بقعة (معادية) في القطاع المسيحي، ولم يتحرك السوريون المعسكرون بالقرب من تلّ الزعتر ولا الإسرائيليون القليلون المرابطون هناك كمراقبين لإنقاذ حياة مئات المدنيين عندما سقط المخيم بأيدي مليشيات الكتائب وحلفائهم بعد أكثر من خمسين يوماً من المقاومة.

ومن 16 إلى 18 أكتوبر تشرين أول التالي نظمت المملكة العربية السعودية اجتماع قمّة مصغّر حضره بالإضافة لمنظمة التحرير الفلسطينية، لبنان ومصر وسوريا، وتشكّلت قوّات الردع من ثلاثين ألف جندي غالبيتهم من السوريين مع فرق سعودية وسودانية ومن الإمارات العربية المتحدة وموّلتها دول الخليج البترولية لتقف بين المتصارعين. وهكذا انتهى رسمياً الجزء الأول من الحرب الأهلية.

مستودع حاجيات حقيقي Un veritable capharnum

بالإضافة لآثارها الدراماتيكية على لبنان وشعبه تركت الحرب الكثير من الصدمات والكبت والحرمان، بعدما نجوا آخر الأمر على يد سوريا، أراد المسيحيون الاستفادة من ذلك حتى النهاية، ولكن الأسد ما أراد أكثر من انتصار لحلفائه الجدد، وكل ما أراده أن لا يُهزموا. وبالنسبة للفلسطينيين الذين كادوا أن يصبحوا فعلاً الأسياد الحقيقيين للبنان عن طريق القوى التقدّمية اللبنانية التي ساندوها، فكانت مرارتهم كبيرة، فقد فاتتهم فرصة

السيطرة على بيروت. فالجيش السوري الذي تعلمّوا كُرْهَهُ تموضع على طول الطريق الساحلية حتى نهر الزهراني على بعد عدّة كيلومترات جنوب صيدا، أمّا جنوب هذا الخط الأحمر فلا وجود لأيّ من جنود حافظ الأسد حسب اتفاقية غير مكتوبة مع إسرائيل، بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية، وكلّ خرق من طرف دمشق لهذا التراضي يعتبر سبباً للحرب من قبل جيش إسرائيل. ومنذ عام 1976 إلى 1982 عاش لبنان في حالة عدم استقرار مزمن تحت سيطرة مزدوجة مباشرة أو غير مباشرة لسوريا ولإسرائيل.

وبالفعل فلبنان الذي كان حتى عام 1975 خاضعاً للعبة القوى الكبرى العالمية والإقليمية وجد أنّ اعتماده على الخارج ينمو باطراد يوماً بعد يوم. ليس هناك تشكيل سياسي ولا طائفة لم ترتبط مالياً وعسكرياً بالاتحاد السوفيتي، أو الولايات المتحدة الأمريكية، وسوريا والعراق والعربية السعودية والأردن وليبيا ومصر، وإسرائيل، أو من أكثر من واحد من هذه الأطراف الأجنبية... إذا كانت بعض المنظمات الفلسطينية مرتبطة عضوياً ببعض الدول مثل (الصاعقة بدمشق) وجبهة التحرير العربية ببغداد، وإذا كانت بعض المليشيات تستلم أسلحة من هذه أو تلك من الدول في نفس الوقت أو بسبب تحالفات أو توتّرات محلّيّة وإقليميّة، فإنّ عمليات تهريب السلاح الهائلة بسبب هذه الارتباطات المدهشة كانت تجري بصورة عامّة بسريّة تامة. كلّ هذا يكلّف بالتأكيد مبالغ طائلة، ولا تستطيع إسهامات بعض أصحاب البلايين كفاية صيانة هذه الآلة –الحربية–.[132]...إذن الدولة اللبنانية هي التي تدفع أوّلاً مصاريف هذه العمليات المرية. وفي هذا الأمر المليشيا المسيحية التي كانت تسيطر على نصف

مرفأ بيروت وموانئ سرّيّة! غير شرعية عديدة تقع بين بيروت العاصمة ومدينة البترون الساحلية 60 كيلومتراً شمالاً – تحظى بحصّة الأسد.

ومن التناقض أنّ بين كلّ العناصر المسلحة في لبنان كان الجنود السوريون في الغالب هم الأكثر حرماناً والأقلّ تسلّحاً. وفي بيروت هذه حيث لا زالت أيضاً آنذاك ثروات كبيرة أو ظهرت ثروات أخرى جديدة بسبب الأحداث، وحيث الحياة الليلية بالرغم من الفوضى العامّة احتفظت ببعض جاذبيّتها، يمكن التصوّر بسهولة الخيبة التي لبست القوات السورية، فمع راتب شهري يوازي 300 فرنك فرنسي، كانت مباهج الحياة بالتأكيد أبعد من أن يصلوا إليها. فإذا استطاعوا رغماً عن كلّ ذلك الحصول آخر الشهور الصعبة على تغطية نفقاتهم عن طريق سمسرات قذرة خبيثة فإنّ ضباطهم بالمقابل فهموا بسرعة كيف يستفيدون من هذا الوضع.

زهير محسن رئيس الصاعقة كان فاسداً إلى حدّ أنّ زملاءه الفلسطينيين الذين يكرهونه لقّبوه (زهير عجمي) أي زهير الفارسي بسبب تذوّقه الفاضح للسجّادات الجميلة... وانتهت حياة محسن بعملية اغتيال في مدينة (كان) الفرنسية في 25 تموز 1979 عندما كان خارجاً من إحدى الدور الفخمة في المدينة.

وآخرون غير معروفين مثله استولوا على شقق وأجّروها بعد ذلك بأسعار مرتفعة، أو نظّموا عمليات تهريب واسعة للسيارات التي تظهر بعد عدّة أيّام في هذه أو تلك من القرى النائية في البقاع. وعندها يحاول الصاحب الأصلي للسيارة شراءها مرّة أخرى بأسعار عالية، أو أنّها تُرسل بعد تغيير ملامحها

الخارجية عبر الحدود السورية ليتمتع بها هذا الكولونيل أو ذاك الجنرال. رئيس جمهورية سوريا لا يتعاطى هذه الأعمال، إلا أنّه يغلق عينيه على هذا النهب المؤسَّسي حيث اشتهر فيه أخوه رفعت والكثير من أتباعه وخدّام هذا النظام العجيب.

كامب ديفيد أو دبلوماسية إسرائيل الظافرة

في الحقيقة في رأس الرجل الأول في سورية كثير من هموم أخرى غير الانحرافات السلوكية لقوّاته، في بلد تبيّن أنّه ليس إلا مصدر إزعاجات. وما كاد يتخلّصُ من كمال جنبلاط الذي اغتيل في مسقط رأسه في الشوف في 16 آذار 1977 على يد عملاء سوريين،[133] حتى استقبل أنور السادات وعلم منه، بذهول شديد أنّ (الريّس) قرّر الذهاب إلى القدس في الأيام القادمة من أجل أن يخلق صدمة نفسية تؤدي إلى إطلاق عملية السلام.[134]

وفي 19 نوفمبر 1977، يذهب السادات فعلاً إلى القدس حيث يلقي خطاباً أثّر بعمق في الرأي العام الغربي. هذه (المبادرة التاريخية) حسب رأي الغربيين، وهذا التنازل العبثي على حدّ تعبير ناقديه العرب الأقل تشدّداً تبعه ردّ كردّ السمّان: لم يعرف مناحيم بيغن في أيّة مناسبة، أن يرتفع إلى مستوى ضيفه، وحتى قبل توقيع اتفاقيات كامب ديفيد بعد عشرة أشهر من ذلك التاريخ، كان الشعور العام أنّ الموضوع قد ضاع. فمناحيم بيغن –السمّان– يريد الزبدة وثمنها –أيضاً–، وسيحصل على ما أراد.

ودون أن يفاجأ في الواقع بمبادرة السادات الذي تعوّد على الحذر منه خلال حرب تشرين 1973،[135] فهم الأسد مباشرة مدى قسوة الردّة

المصرية. فهي لا تقسم فقط العالم العربي بل تضعفه بشدّة على المستوى العسكري. وحتى قبل أن يذهب في أيلول إلى كامب ديفيد، رضي السادات مجبراً بلا تردّد رؤية خمسة وثلاثين ألف جندي إسرائيلي في آذار 1978 يجتاحون لبنان ويصلون حتى نهر الليطاني، مما أدّى إلى نـــزوح مئات آلاف اللاجئين –لبنانيين وفلسطينيين– من جنوب لبنان باتجاه بيروت حيث احتلوا الشقق الفارغة.[136]

أمّا بالنسبة للأسد، فحلْمهُ بسياسة إقليمية كبيرة يكون هو محرّكها... قد أبعد إلى... زمن لا وجود له بسبب انسلاخ (فارس) مصر الوحيد. ومنذ ذلك الوقت، كان على الأسد أن يركّز على الدفاع والتخلّي عن أخذ المبادرات، على الأقل كان يفكّر بكيفية الاستفادة إلى الحد الأقصى من ذلك الحدث.

وعندما يركّز المؤرخون للقـــرن الحادي والعشرين على تسجيل العلاقات الدولية في النصف الثاني من القرن العشرين، ليس هناك أدنى شكّ بأنّهم سيعتبرون اتفاقيات كامب ديفيد ليس فقط معلماً تاريخياً بارزاً لتلك الفترة الزمنية، بل هي في الدرجـــة الأولى ظفر دبلوماسي لإسرائيل، وردّة شديدة للعالم العربي كلّه بما فيه مصر.[137] ومنذ العام 1972 عندما طرد السادات خمسة عشر ألف خبير عســـكري سوفييتي، أظهر السادات الطريق التي ينوي سلوكها والجهة التي يريدها: انقلاب كامل في التحالفات... لمصلحة الولايات المتحدة. وحتى في الطريقة التي قاد بها حرب أكتوبر –تشرين أول– عندما رفض المزيد من النجاحات التي حققها –الجيش

المصري- في الأيام الأولى، أظهـــــر بوضـــوح همّه في ألاّ يتواجه مباشرة مع واشنطن. عام 1975 خطا خطوة جديدة بتبنّيه لسياسة الانفتاح الاقتصادي، الانفتاح الشهير الذي أرضى فيه رغبات أصدقائه الأمريكيين الجدد.

ولقد صيغت بشكل يدعو للإعجاب من أجل إغراء رأي عام غربي مستعد دائماً ليلتهب حماسة لمبادرات لا يعرف أبعادها الحقيقية؛ وزيارة القدس شكّلت النقطة القوية لهذه السياسة ذات الارتـــدادات. ولم يبق أمام خليفة عبدالناصر إلا الذهاب إلى (كامب ديفيد) للتوقيـــع على"اتفاقيات العار"،[138] أو بالمقابل الاعتراف العلني أنّه سلك الطريق الخطـــأ. وكون مصر استعادت شبه جزيرة سيناء لا يغيّر شيئاً من القضية. والواقع أنّ السيادة التي يمارسها على هذه المنطقة هي محدودة بمعاهدة السلام، ونصوصها حيّدت مصر عسكريّاً. ولسوريا الحق في استخلاص أنّ إسرائيل التي تعتمد أصلاً على الولايات المتحدة الأمريكية في المراقبة الدائمة لحُسنِ تطبيق مصر لنصوص المعاهدة المتعلقة بالشؤون العسكرية،[139] سيكون بوسعها من الآن فصاعداً التفرّغ كليّة للجبهتين الباقيتين اللتين تزعجانها، الجبهة الشمالية اللبنانية السورية الفلسطينية، والجبهة الداخلية في الضفة الغربية وغزّة المحتلّتين. ولكن الفوائد لا تنتهي هنا، فالسلام المنفرد مع مصر يسمَح لإسرائيل باللعب على الانقسامات العربية التي أخذت أبعاداً غير مسبوقة لم تصلها من قبل. ووزن وادي النيل داخل العالم العربي هو من الثقل الفريد بحيث أنّ دول المشرق العربي ودول المغرب العربي لا تستطيع قطع علاقاتها

تماماً مـــــع القاهرة إذا ما أرادت ذلك أصلاً. وزيادة في التناقض والإبهام، أغلب الدول العربية —دون أن ننسى م. ت. ف– أعـــــادت تدريجياً علاقاتها الطبيعية مع مصر– على الأقل حتى تاريخ غزو العــــــراق للكويت في آب —أغســـــطس– 1990م، مع الدولة العربية الوحيدة التي فتحت سفارة لها في تل أبيب واســــــتضافت في عاصمتها بعثة دبلوماسية إسرائيلية!...[140]

وكما كان متوقّعاً، رحلة السادات إلى القدس لم تجلب معها لسوريا إلا مضايقات متتابعة. فبعد غزو إسرائيل للبنان في آذار 1978 واحتلالها شريطاً حدودياً لم تسمح حتى لقوات الأمم المتحدة -FINUL بالدخول إليه؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فلقد تدهور الوضع أيضاً بالنسبة للجنود السوريين العاملين في قوات الردع في بيروت الشرقية إلى درجة أنّهم أجبروا على الجلاء عن هذا القطاع بدون أيّة أمجاد في بداية العام 1979. وبموازاة ذلك تسارع بناء المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة إلى درجة جعلت الرئيس كارتر، من قلقه على تأثيراتها على عملية السلام، يحتج رسمياً على ذلك في 18 كانون الثاني 1979.

وفيما العراق وسوريا تصالحتا مؤقتاً بعد اتفاقيات كامب ديفيد ووقّعتا في 26 تشرين أول —أكتوبر– 1978 ميثاقاً للعمل القومي لم يدخل أبداً حيّز التنفيذ، عاد آية الله روح الله الخميني من (نوفلْ– لوشاتو) في فرنسا ودخل من ناحيته، منتصراً إلى طهران في (1) شباط 1979.

الخميني... أو الانتقام من كامب ديفيد

بعد أقل من خمسة أشهر على انتهاء حالة الحرب بين إسرائيل ومصر، جاء سقوط شاه إيران ليقلب مرّة أخرى كلّ المعطيات في الشرق الأوسط، وإذا استقبل العالم العربي المسلم بحماسة انتصار الإمام الخميني، لأنّه رأى فيه انتقاماً من اتفاقيات كامب ديفيد، فإنّ العديد من الحكّام العرب لم يخفوا قلقهم بخاصة في الممالك البترولية الخليجية، حيث هم يتوجّسون دائماً من أهل فارس سواء كانوا متديّنين أو غير ذلك. ومع ذلك، فمن بين كلّ الزعماء العرب كان صدّام حسين الأكثر قلقاً، فهو الذي طرد الخميني قبل عدّة سنوات، من منفاه في النجف بعدما أصبح عبئاً ثقيلاً؛ وهو يحمل له حقداً عنيداً. وهكذا شهدت العلاقات بين البلدين تدهوراً سريعاً. وبذريعة لها بعض الأساس، لإنهاء الإثارات المتعدّدة للعملاء الخمينيين في العراق، ولكن في الحقيقة للأمل الضمني بتحطيم نظام لم يبق له من الجيش إلا ظلاله، أقدم صدّام على غزو إيران في أيلول عام 1980.

إذن، وفي الوقت الذي يبدو فيه أنّ الظرف معاكس لكلّ تمنّياته، وأنّ المصاعب الداخلية تتراكم أمامه، كما رأينا، والإخفاقات في لبنان تتضاعف، في ذلك الوقت بالذات اختار حافظ الأسد أن يقف إلى جانب إيران ضدّ العراق. وفي الوقت الذي كان يخوض فيه حرباً بلا رحمة ضدّ الإخوان المسلمين في بلده، لم يتردّد لحظة واحدة في تقديم دعمه لآية الله الخميني، بينما كانت اتفاقية السلام الإسرائيلية المصرية تعزله بشكل خطر على المسرح الدولي، لم يتردّد أيضاً في ركوب المخاطرة التي قد تزيد عزلته، تاركاً وراء

ظهره كفلاءه الماليين الأساسيين في الخليج، وداعماً لنظام الملالي في طهران. وكما فسّر الأسد الأمر بعد مدّة قصيرة لأحد سفرائه في أميركا اللاتينية الذي رغب في فهْم أفضل للخطط الرئاسية حتى يستطيع نقل الرسالة للجالية العربية هناك، بأن العراق هو المعتدي بكلّ وضوح.

وبعد ذلك وجدت سوريا الفرصة لتتحالف مع القوى الجديدة المناوئة للأمبريالية والصهيونية. هذا الموقف الحاذق، والذي بدا، بعد عشر سنوات عند التصالح المدهش بين بغداد وطهران كالرؤى لدى استعادة الماضي؛ حافظ الأسد، الذي لعب بالمناسبة إحدى أجمل ضرباته الدبلوماسية، وجد أيضاً فوائد أخرى مثل وضْع نفسه وسيطاً بين إيران والممالك العربية البترولية في الخليج.

بالنسبة للبنان كانت آثار هذا التحالف السوري-الإيراني اللافت للنظر سلبية مرّة أخرى، في النمو المخيف لحزْب الله.

أرييل شارون في بيروت

مع ذلك، جاء الاجتياح الإسرائيلي للبنان، في حزيران 1982، ليهدّد مجدّداً التوازن الهشّ القائم، وخلال أيام، مئة ألف جندي إسرائيلي تقريباً استُقبلوا —ويجب التذكير بذلك– بقبضات الأرز من قبل العديد من الشيعة، وطردوا الفدائيين من جنوب لبنان. وكان للجيش السوري المرابط على طول الشريط الساحلي، من بيروت للزهراني الوقت الكافي للقيام بانسحاب تكتيكي لا يشرّفه كثيراً. ولم تقم الوحدات المدرعة والمدفعية مرة واحدة بنجدة المقاتلين الفلسطينيين حقاً. ولكن السلاح الجوي تدخّل بشكل واسع

إلا أنّ سيطرة الطيران الإسرائيلي فاقته تقنياً فتعرّض لخسائر فادحة: حيث أسقطت له أكثر من ثمانين طائرة.

وفهم الفلسطينيون أنّ عليهم ألاّ ينتظروا أيّة مساعدة لا من (حلفائهم) اللبنانيين، بل وأقل من ذلك من (حُماهم) السوريين. فجَلَوا بانتظام عن أغلب مواقعهم ليعودوا إلى بيروت، حيث بدأ حصارهم القاسي، وهكذا دكّت مدرعات وبطاريات مدفعية أرييل شارون التي احتلّت كلّ الهضاب المشرفة على العاصمة اللبنانية المخيّمات الفلسطينية والعديد من أحياء بيروت الغربية بدون توقّف.

وأثناء ذلك، كانت الوحدات البحرية الإسرائيلية أمام شواطئ بيروت، تترك انطباعاً لدى سكان بيروت أنّهم واقعون في فخ لا يمكن الخروج منه. والكتائب الذين يرأسهم بشير الجميل، المرشح لرئاسة الجمهورية، أرادوا الحفاظ على المستقبل فتحفّظوا على التدخّل إلى جانب جحيم رئاسة الأركان الإسرائيلية.

وبالنسبة للأسد الذي خسر دفعة واحدة السيطرة على ثلث لبنان، كانت (البرشامة) التي ابتلعها مُرّة حقاً، ولكن لم تنقصه بواعث الرضى غير المعلن، فالذي لم يستطع جيشه القيام به في ست سنوات من تواجده بلبنان من 1976-1982، نجح الإسرائيليون فيه خلال أقل من ثلاثة أشهر: وهو تصفية الوجود الفلسطيني بين بيروت وصيدا. وأنهى الأسد في خمسة عشرة شهراً من أيلول 1982 إلى كانون الأول 1983 في باقي لبنان، العمل الذي بدأته إسرائيل.

بعد ثمانية أيام من رحيل باقي قوات الردع السورية من بيروت إلى البقاع في 22 آب 1982، مودّعة بسيل من هتافات عرفات ورجاله، بطلب رسمي من الرئيس سركيس. وهذه هي المرة الأولى حقا التي يستجيب فيها الرئيس السوري لتمنيات رئيس الدولة اللبنانية... والحقيقة أنّ المبعوث الأمريكي فيليب حبيب كان قد مرّ بدمشق قبل أيام.

وبعدما توصّل "بالطريقة اللبنانية"[141] إلى أن يضمن أصوات ثلثي المجلس النيابي لصالحه، كما ينص الدستور على ذلك، انتُخب بشير الجميل رئيساً في 23 آب 1982، وكما أشار غسان تويني مدير جريدة النهار: "بشير ممزّق بين متطلبات تحالفه مع إسرائيل، وعزمه على اتّباع سياسة انفتاح على العالم العربي والإسلام اللبناني، وهذا ما أشار عليه به باستمرار سركيس والأميركان".[142]

وفي الثاني من أيلول التقى بشير (سرّاً) في (نهاريا) في شمال إسرائيل مع مناحم بيغن. وكما ذكر أيضاً تويني، الخطاب الذي وجّهه له الرئيس السابق (للإرغون) "جعله يعي فجأة التعارضات بين مركزه الجديد وأصدقائه القدامى". وبعد عودته لبيروت شكا بشير لأصدقائه أنّه عومل من قبل بيغن كــ(بلْنَطُون)[143] –أي آذن–.

رغم الرضى المشروع الذي يمكن للأسد الشعور به بعد تقرّبه لإيران، والضربات الشديدة التي حلّت بمنافسه ياسر عرفات، بقي لبنان شوكة مؤلمة للأسد. والصعود الخاطف لبشير الجميل الشاب، الرجل الذي قال له وكرّر منذ سنوات: "لا"، يعارض مشاريعه على المدى المتوسط، وكلّها تمرّ عبر لبنان

ضعيف، وبالتالي من السهل التلاعب به والهيمنة عليه. والرئيس السوري بالإضافة لذلك، أكثر قلقاً من الابن الثاني لمؤسس الكتائب اللبنانية الذي يحظى بشعبية حقيقية لدى الكثير من اللبنانيين بما فيهم المسلمين. كان شعب لبنان الصغير تعباً من سبع سنوات من الحرب الأهلية، ومنهكاً من الحضور المزدوج الفلسطيني السوري، والذي يُحِسّه احتلالاً، أقول كان هذا الشعب الصغير يتطلّع إلى أن يحكمه رجل القدر... رجل قوي قادر على استعادة الثقة بين الطوائف وإعادة رخائه الماضي. والليرة اللبنانية لا تزال تحتفظ بقوّتها، وكان لا بدّ من بعض التفاؤل.

وفي هذا الوضع اغتيل بشير الجميل في أواسط أيلول، خمسون كيلوغراماً من مادة شديدة الانفجار وضعها في الغالب حبيب شرتوني،[145] لبناني عضو في منظمة موالية لسوريا، حوّلت المركز العام للقوات اللبنانية، إلى تلّة من الرُكام؛ وكان مجيئ بشير من أجل توديع أصدقائه القدامى في الميليشيا، بعد ثلاثة أعوام من اغتيال ابنته الصغيرة (مايا) في سيارة على يد أناس ظنوا أنّ أباها موجود بها. ودفع بشير الجميل ثمن الأحقاد التي أثارتها قناعاته الراسخة، وظهرت سوريا فوراً كمتّهم أوّل، ولكننا نجد أيضاً أنّ بعضهم أشار بإصبع الاتهام لإسرائيل التي لم تُسَرّ للتحوّل الحديث لأصغر أبناء الجميّل.

وكان لموت بشير آثار هامّة، فلقد اهْتَبَلَ الجيش الإسرائيلي الحادثة وجعلها ذريعة للدخول إلى بيروت حتى لا يحصل -كما ادّعى- حمّام دم. وفيما كان الإسرائيليون ينهبون بمرح واستخفاف مؤسسات الأبحاث الفلسطينية وغيرها من الهيئات الفلسطينية، كان حلفاؤهم اللبنانيون بقيادة إلياس حبيقة —الذي

نقل ولاءه بعد ذلك للسوريين- يقترفون المذابح المشهورة المخزنة في مخيمي صبرا وشاتيلا تحت سمع وبصر العيون غير المبالية لعدّة ضباط إسرائيليين من الرتب العالية. وكانت الصدمة مع ذلك في إسرائيل بحيث قادت تحت ضغط القوى الليبرالية، إلى الانسحاب المتنامي لجيش إسرائيل من لبنان؛ ولكن إذا شَعَرَ العديد من الإسرائيليين بعدم الارتياح لهذه "الحرب القذرة"، لم يستطيعوا منع المسؤولين المدنيين والعسكريين من متابعة سياسة الضلال والصلافة بتواطؤ نشطٍ مع الدبلوماسية الأمريكية البعيدة ألف ميل عن الحقائق على الأرض.

وفي 17 أيار 1983، وُقِّع اتفاق إسرائيلي-لبناني برعاية واشنطن سمّته المعارضة (المحلية) اللبنانية "كامب ديفيد مُصَغّر" ورَفَضَه بصورة مطلقة الوطنيون المعتدلون مثل ريمون إدّه؛ وهذا الاتفاق لا يهين فقط السيادة اللبنانية، ولكنّه يعرّض قطعاً للخطر فرص أمين الجميّل بخاصّة لتقديم نفسه كجامع وموحّد -للبنانيين- ويوقظ ويثير من ناحية أخرى الانفعالات —وهي دائماً المستشارة السيئة في الشرق-. وربما كان هذا الاتفاق السبب المباشر وغير المباشر للدراما المزدوجة التي عاشها (90000) تسعون ألف مسيحي من الشوف وأرغموا على هجرة مأساوية، كذلك كان الأمر بالنسبة للجنود الأمريكيين والفرنسيين في القوّة المتعدّدة الجنسية.(146)

وأمين الجميّل، الذي استفاد ومنذ البداية من كثير من الأوراق الرابحة بالمقارنة مع أخيه، لم يبدو أبداً منذ تلك الساعة إلا كسمسار (بدون قدرة) حقيقيّة لسياسة أمريكية (متهافتة غير متماسكة). وفي بداية عام 1984 تفاقمت حالة الرئيس اللبناني الشديدة —إذا كان هناك مجال زيادة- بإعطائه

الأوامر للجنود الذين بقوا موالين له، بتحييد حركة أمل التي تسيطر على كلّ الضاحية الجنوبية لبيروت. ولما خسروا المعركة مع المليشيات الشيعية والدرزية أُجبرت الوحدات المسيحية على التقهقر نحو المنطقة المسيحية فيما تشظّى وتفجَّرَ الجيش اللبناني مرّة ثانية.

ثأر حافظ الأسد

عام 1983، إذن كان لحافظ الأسد سنة الثأر، فالفلسطينيون الملاحقون — المطاردون- من العالم كلّه في سهل البقاع أُخرجوا —بضغط سوري من طرابلس —المدينة اللبنانية الثانية- بعدما اضطرّوا للخروج من بيروت بضغط إسرائيلي قبل ستة عشر شهراً؛ وواتت الرياح سفينة المتحالفين مع سوريا، دروز الحزب التقدّمي الاشتراكي والشيعة من حركة أمل، فاندفعوا للسيطرة على بيروت، وأخيراً القوّة المتعدّدة الجنسية، التي عانت الشدائد، وإسرائيل تهيّئتا لترك لبنان، حيث لم يطِبْ العيش فيه منذ مدّة طويلة.

وبعد استخلاصه العبر... ولو متأخراً، من إخفاقاته، ألغى أمين الجميل في 15 آذار 1984 الاتفاقية اللبنانية —الإسرائيلية. وفي ابتعاده عن المساومات على لبنان لم يحتج الأسد إلا أقلّ من عشرة أشهر للحصول على ثأره المدوّي، والعودة مجدّداً للسيطرة من دمشق على (صيده المحفوظ). ومع ذلك مهما كان الرجل صلباً ومقاوماً... هناك حدود لا يستطيع تجاوزها، فحافظ الأسد الذي يمسك بزمام سوريا منذ ثلاثة عشر عاماً، بعمله الدائب (كالحمار)،[147] وبتدْخينه اليومي لعلبتين أو ثلاث من السجائر، ربما تغلّب على العديد من خصومه أو أعدائه، ولكنّه لم يستطع التغلّب على مرضه. فضَعْفُ قلبه،

ومرض السكري الخفيف، عقّدا الحالة الصحيّة، كلّ هذا بقي بطبيعة الحال، سرّاً بينما كانت الإشاعات الأكثر جنوناً تنتشر في طول البلاد وعرضها. فهل الأنباء الحسنة الواردة من لبنان ستساعده على اجتياز هذه المرحلة الصعبة؟ والتي عادت للظهور خلال الثلث الأول من غام 1984 بعد ما حلّ، كما رأينا، الأزمة السياسية الأخطر التي عرفها نظامه. فزيارة مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي في أيلول وزيارة رئيس دولة فرنسا في نوفمبر تشرين الثاني ساعدتا في إعادته إلى صهوة جواده. فلقد ذكر فرنسوا ميتران الدور الخاص لسوريا في المنطقة كلها وفي لبنان بخاصة.

وزن الإسلاميين

مع ذلك، وبالرغم من إعادة الأمور غير المؤملة إلى نصابها، بدأت الآلة السورية بالتعطّل تدريجياً بصورة أكيدة؛ بدأ أنصار عرفات إعادة تجميعهم لقواهم، وغفل الإسرائيليون وميليشيات حركة أمل عن بعض مخازن الأسلحة. وعادت بعض الكوادر الفلسطينية، بهويّات مزوّرة عن طريق مطار بيروت، ووجدت نفسها بسرعة كالسمك في الماء في مخيمات اللاجئين في ضاحية بيروت الجنوبية وصيدا وصور، وبعد ذلك وصلوا بالمئات عن طريق جونيه: المرفأ المسيحي الرئيسي، على مسافة عشرين كيلومتراً شمال بيروت. ومن أجل إضعاف السوريين كانت المليشيات المسيحية التي تسيطر على جونيه مستعدّة لكلّ شيء، بما في ذلك تسهيل عودة الذين كانوا يكرهونهم، قبل فترة أكثر من أيّ فئة أخرى.

ووجد المستشارون الإيرانيون بصورة متنامية آذاناً صاغية في الأوساط

الشيعية اللبنانية، والتي بدأت بدورها تتخذ مواقف راديكالية لأسباب تتعلّق بالمال كما بالدين أو الإيديولوجية. ومنذ عام 1982 بدأ النظام السوري —كان إلى حدّ ما، سجين تحالفه مع إيران– يسمحُ بدخول عدّة آلاف من حرّاس الثورة الإيرانية إلى لبنان. مناضلون إسلاميون قدماء، أو مؤمنون متحمّسون جدد قادمون بعض الأحيان من الماركسية، أو أيضاً وصوليون عديمو الذمّة.(19) هؤلاء الباسداران المختارون بدقّة هم في الغالب دعاة بارزون للجمهورية الإسلامية، بينهم العديد من الأطباء والمدرّسين والمهندسين الذين بدؤوا يدرسون السكّان المحرومين في سهل البقاع، وأنشأوا المستوصفات الصحية وتعاونوا مع المزارعين في حقولهم. كان تأثيرهم كبيراً وتضاعف عدد مريديهم اللبنانيين سواء من المخلصين أو غير ذلك، وعدم اهتمام البعض أو انتهازيّة البعض الآخر لا يضاهيه إلا عدم اكتراث وشراسة وفساد الكثير من الضبّاط السوريين. فبالنسبة لهؤلاء الأخيرين كان لديهم عدم قدرة شبه تامّة على فهم طريقة عمل هؤلاء الأغراب الممسوسين —المصابين بمسّ–. ولقد تعوّدوا على نهب لبنان بهدوء منذ سنوات عدّة إذ كانت القيادات العسكريّة السورية لا تستطيع تصوّر أنّه من الممكن قيام علاقات بين (هذه النماذج) والأناس الآخرين.

وعندما بدأ الإسرائيليون الانسحاب من النصف الجنوبي من لبنان سرعان ما تسلّل العديد من الباسداران إلى صفوف الشيعة اللبنانيين مسهمين هكذا في نمو حزب الله على حساب حركة أمل الموالية لسورية، وأظلّوا بذلك أيضاً العلاقات السورية الإيرانية. وفي هذه الفترة الزمنية أيضاً تكرّرت أولى عمليات

اختطاف الغربيين: تيري أندرسون في (16) آذار 1985، مراسل الأسوشيتدْبرس الأمريكية[149] ومارسيل كارتون ومارسيل فونتين: الدبلوماسيان الفرنسيّان في (22) آذار 1985، والباحث ميشيل سورا والصحافي جان بول كوفمان، في 22 أيار 1985.[150]

إذا كانت الفوضى مُعطىً دائماً في الحياة العامة للبنان منذ عام 1975، فلقد وصلت مع ذلك مستوى أصبحت معه منذ العام 1985 تهديداً حقيقياً لسوريا. وإذا شكّل اختطاف الغربيين الجزء المرئي من جبل الثلج العائم، فلقد كانت الحالة أخطر من ذلك بكثير على السكان المحليين، وكانت دمشق ترى حلفاءها اللبنانيين يتقاتلون بتمزيق بعضهم البعض فيما يدور معوِّقوها الخالدون في حلقة مفرغة سواء اليمين المسيحي أو الفلسطينيون ويستعيدون قواهم ويفرضون أنفسهم بصورة متزايدة كقوى معارضة مؤثرة، وخلال عام 1985 كلّه جهد الأسد ومساعده الأمين نائب الرئيس عبدالحليم خدّام الخبير القديم بالملف اللبناني، في إقامة تحالف بين ثلاث مليشيات رئيسية لبنانية: مليشيا الحزب التقدّمي الاشتراكي بزعامة وليد جنبلاط، وحركة أمل الشيعية بزعامة المحامي نبيه برّي، والقوات اللبنانية التابعة لإيلي حبيقة. ولكن ما كاد توقيع الاتفاق يتمّ في 28 كانون أول –ديسمبر- 1985، حتى نقضه الرئيس أمين الجميل تحت ضغط المتشدّدين من أتباعه، وبضمانات أمريكية محتملة.

وفي نفس الوقت تقريباً طُرد حبيقة مع أتباعه من المناطق المسيحية، وفي هذا الموضوع ارتكب الأسد بلا شكّ مرة أخرى غلطة نفسانية (بسيكولوجية). بالفعل لا يمكن ادّعاء ترميم المؤسسات اللبنانية وإعادة

العلاقات الأخويّة بين الطوائف بالاعتماد على شخص مطعون فيه مثل حبيقة، أو على رؤساء صغار مثار جدلٍ مثل نبيه برّي ووليد جنبلاط، ورغم تعب الكثير من اللبنانيين من سنوات حربٍ أهلية طويلة جداً، فإنّهم لم يكونوا حتى ذلك الحين مستعدّين لقبول قوانين رؤساء عشائر متشيّعون لدمشق.

(ضعف) وعجز حركة أمل الشيعية حطّم المقاومة الباسلة للمخيمات الفلسطينية والإثارات المتنامية لحزب الله الموالي لإيران، والذي أغرى عدداً كبيراً من مليشيات أمل، وزاد في الارتباك العامّ سنة 1986؛ وعلى هذا النسق سيصبح لبنان بسرعة عصيّاً تماماً على كلّ انضباط.

في أول عام 1987 أكثر من عشرة آلاف جندي سوري من النخبة دخلوا بيروت بعد أقلّ من خمسة أعوام من طردهم منها. فاستقبلوا بارتياح من قبل مليون بيروتي منهكين من عنف شبه دائم، مهلّلين لمرآى الخمينيين الملتحين يغيبون باتجاههم نحو الضاحية الجنوبية للعاصمة. ولقد زاد ارتياحهم في البداية عندما أعطى الجنرال غازي كنعان رئيس القوات السورية، الأوامر المشدّدة لرجاله لكي يكونوا مؤدّبين في تعاملهم مع السكّان المدنيين.[151] ولكن تكرار تعرّضهم للإثارات وتعرُّضهم للإزعاجات المستمرة من أعداء غير مرئيين، جعل الجنود السوريين يعودون بسرعة إلى عاداهم السيّئة حيث يطغى الشك والغلظة على اللطف والتأدّب. وربما استطاع حافظ الأسد إنقاذ الأساسي، ولكنّ ذلك لم يخفّف من ثقل الحساب؛ فإذا احتفظ عن حقّ أو عن باطل بالورقة اللبنانية سيخسر الورقة الفلسطينية، ومنذ أن أعادت منظّمة التحرير الفلسطينية في نيسان 1987، وِحدها في الجزائر في نيسان عام 1987، لا

يستطيع الأسد بعد ذلك الاعتماد إلا على سند بعض المنظّمات الهامشية المكروهة من قبل الشعب الفلسطيني. أمّا علاقاته بالشعب اللبناني فهي ليست أفضل بكثير. وباستثناء مليشيا حركة أمل التي أنقذها من الكارثة، فبقية التشكيلات يتّهمونه ليس فقط بمواقفه المعادية للفلسطينيين، بل أيضاً بسماحه بقيام الحركة الأصولية الموالية لإيران –أي "القوى الظلامية" حسب تعبير الحزب الشيوعي اللبناني – دون قدرته على ضبطها.

"القوات السورية لا تقاتل أحداً في لبنان، إنّها هناك، ومنذ دخولها، لحماية اللبنانيين والفلسطينيين من الدمار ومن بُرَكِ الدماء التي لا يقدرون على تحاشيها بدون مساعدة القوات السورية. نحن مسرورون لأنّنا نجحنا بتقديم هذه المساعدة للأطفال اللبنانيين والفلسطينيين...".[152] كم من المرات ردّد حافظ الأسد هذه التعابير، مع غياب أي دليل على ذلك. فلقد استخدم مرات ومرات المليشيات المسيحية ضدّ الفدائيين الفلسطينيين، وكذلك على العكس استخدم المليشيات الدرزية ضدّ الكتائبيين، ومجدّداً استخدم حركة الأمل الشيعية ضدّ المخيمات الفلسطينية (غير الخاضعة له)، أو من أجل تحييد مناصري حزب الله؛ فأسد لم يتوقّف عن اللعب بهؤلاء ضدّ أولئك حسب مصالحه، ومبدياً عدم مبالاة تامّة بعذابات المدنيين اللبنانيين.

وإذا حدث مرّة أن استطاع إعطاء الانطباع بأنّه يسير في (الطريق القويمة) عندما أغلق مثلاً بداية صيف 1987 مكاتب الإرهابيّ أبي نضال في دمشق، لم يكن ذلك لتصفية منظمة ضارّة أو من أجل سرور الأميركان –بسبب عدم وجود فائدة صغيرة– بل ليؤدي زعيم الإرهابيين الثمن بسبب دعمه

للمنظمات الفلسطينية الأخرى التي دخلت في شتاء 1986–1987 معارك شديدة لا رحمة فيها مع دمشق من أجل حياة سياسية لشعبها!.

"وفي لبنان نحن نتابع عملنا لضمان الوفاق بين اللبنانيين، نحن نعمل على أن تعود هذه الدولة الشقيقة، وتستعيد مؤسّساتها، ويسود السلام فيها وتستعيد دورها إلى جانبنا في المنطقة العربية (...).[153] ومن التناقض أنّ هذا الاعتراف المعاد ألّف مرّة بلهجة منــزعجة ومزعجة أكثر ممّا هي بصراحة منافقة، هو في طريقه إلى التحقّق بعد ستّة عشر عاماً من الحرب الأهلية بسبب الانقسامات في المعسكر المسيحي بصورة أساسية.

سوريا تدخل بيروت... مرّة ثانية

عاد السوريون إلى بيروت، واللبنانيون سيعيشون فترة من الهدوء النسبي حتى انتخاب من يخلف أمين الجميل في أيلول 1988. وكما كتب لوسيان جورج في جريدة (لوموند): "ولم يبق أيّ تساؤل عن السلطة التي ظلّت في يد السيد الجميّل بعد كلّ هذه التقلبات، ودخلت الحرب في لبنان "حالة" من الفتور والسبات، وخفّت الحدّة على (خطوط التماس)! وحلّ نوع من التوازن بين سلطة الدولة وسلطة المليشيات".[154]

ولكن الرئيس اللبناني الخارج من الحكم، والذي أسهم بصورة واسعة في زيادة انقسام البلد خلال سنوات حكمه الستّ بسبب قلّة في الذكاء والتبصّر، بدا غير قادر على ترتيب من سيخلفه. فتخندق خلف حرفيّة الدستور، وأهان نفسه بتسميته رجلاً عسكرياً، هو الجنرال ميشيل عون كرئيس للحكومة. فرفض القسم المسلم من البلد هذا الاختيار وبات لبنان بحكومتين دون رئيس.

والأشهر الستّة التي تلت لم تشهد أيّ أحداث عسكرية، و لم يخسر اللبنانيون شيئاً في فترة الانتظار هذه. ولكن عندما أعلن الجنرال عون في أواسط آذار 1989 (حرب التحرير) أغرق البلد مرّة أخرى -وأوّلها المناطق المسيحية- في حمّام دم. وبقي خطابه على كلّ حال، متماسكاً ووجد أصداءاً إيجابية في الغرب، بل ولدى العديد من اللبنانيين غير المسيحيين، بأن الجيش السوري يتصرف مرّة أخرى بوحشيّته المعتادة.

وفي 22 أيلول 1989 توصّلت لجنة الجامعة العربية إلى وقف للنار. وبعد ثلاثة أسابيع اتّفق النوّاب اللبنانيون في الطائف بالمملكة العربية السعودية أن يكون التمثيل النيابي من الآن فصاعداً متساوٍ في عدد نوابه بين المسيحيين والمسلمين، وتوافقوا على مبدأ انسحاب القوات السورية من لبنان، ولكن لم يضعوا جدولاً زمنياً لذلك. ورفض الجنرال عون الاتفاق بينما حلفاؤه في المليشيات المسيحية كانوا أكثر انفتاحاً وقبلوه، في بداية عام 1990.

وبعد بضعة أشهر، قرّر الجنرال عون، وكان لا يزال متمسكاً بموقفه، التخلّص من المليشيات المسيحية التي كان على كراهية دائمة لها... وتناسى الصراع المشترك ضدّ العدو السوري وانطلقت أفواجه لتهاجم المواقع المحصّنة للقوات اللبنانية. ويذكر المسيحيون اللبنانيون -وهم الذين شاهدوا الحرب منذ العام 1975- أنّ بيروت الشرقية وضواحيها المسيحية لم تعرف قط مثل هذا العنف. وليس لهذه الحرب الصغيرة Mini War ما تحسد الحرب الحقيقية الكبيرة عليه، فالمعارك كانت قاسية جداً، والدمار هائلاً وهرب عشرات الألوف من المسيحيين من بيروت الشرقية ليلجؤوا لغرب بيروت إلى القطاع

المسلم حيث استقبلوا على كلّ حال استقبالاً حسناً.

وفي هذه المشكلة، فقد الجنرال عون الذي كان رفضه أصلاً لاتفاق الطائف سيّئ الوقع، الأساسي من الثقة به. ومن المؤكّد أنّ الناس العاديين المسيحيين لم يحبّوا أبداً المليشيات، وكان سلوك العسكريين دائماً موضع تقدير، والمؤكّد أنّ الجنرال استطاع الاعتقاد بأنّه سينهي منافسيه خلال أيام قليلة، ولكن المسيحيين لم يكونوا مستعدين إلى الدرجة التي يمنحونه فيها (شيكاً على بياض). وكما هو الأمر دائماً في لبنان، عندما تتفجّر الصراعات داخل طائفة واحدة، يبلغ الرعب ذروته وبسلوكه كرئيس فظّ لعصابة، لم يزد قليلاً في تدمير أبناء دينه المسيحيين فقط، بل خسر الحقّ في ادّعائه تمثيلهم والدفاع عنهم.

حافظ الأسد والورقة اللبنانية

لِفهم طريقة عمل الرئيس السوري ونظامه، المأساة اللبنانية والمراقبة الواعية للأحداث التي وقعت منذ عام 1975 في وطن جبران خليل جبران هي مثل تنويري توضيحي بصورة خاصّة. في محاولة مبدئية لإعادة ترتيب تسلسل الأحداث التاريخية للشرق الأدنى؛ نلاحظ أنّ الحرب الأهلية في لبنان بدأت حقيقة في ربيع 1975، بعد سنة تقريباً من اتفاقيات فكّ الاشتباك السوري – الإسرائيلي وتاريخه 31 أيار 1974، وبعد عامين تماماً –باليوم– في 31 أيار 1976، دخل الجيش السوري إلى لبنان، وليس في نيّتنا التأكيد هنا أنّ سوريا هي في أصل الحرب الأهلية بلبنان، فهذا يكون حمقاً وغباءً. فكلّ الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت بالفعل مجتمعة لكي ينفجر الصراع

عنيفاً؛ وإذا رمت دمشق، مثل كثير من الأطراف الأخرى، قليلاً من الزيت على النار، فلقد كانت النار كامنة منذ مدّة طويلة. فحرب عام 1973 لم تسهم بشيء لحلّ المسألة الفلسطينية، وكان من المحتّم أن تنبعث المسألة في أضعف دول المنطقة.

والواقع أنّ هناك عوامل ثلاثة دفعت حافظ الأسد للتدخّل في لبنان؛ أوّلها: وفي نظرنا من بعيد أنّه العامل الأهم، هو الخوف من أن يرى الفرصة تفوته بعد صعود قوة الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين. ومثل صدّام حسين يكره الأسد الأوضاع التي لا يستطيع السيطرة عليها، حتى لو اختلفت أساليبهما في المعالجة. العامل الثاني: يتعلق برغبة الرئيس السوري في تحسين الدفاع عن حدود دولته. فهو مهموم أصلاً بإقامة تكافؤ أصلي استراتيجي مع إسرائيل، وأوجد الأسد ميزة في تركيب مقاعد إطلاق صواريخ على بعد بضع عشرات من الكيلومترات من (إصبع الجليل) في أقصى شمال إسرائيل... وآخر عامل يتعلق بهمّه في إشغال جيشه. وعند كلّ قيادات المنطقة كان وجود جيش قوي يثير دائماً مشكلة. وفي سوريا والعراق كانت المشكلة أكثر حدّة ممّا هي عليه في الدول الأخرى، واحتاج الأمر دائماً للسهر لكي لا يهتم كبار الضباط كثيراً وعن قرب بعمل حكومتيهما. وللوصول لذلك ليس لدى الديكتاتورية من وسائل أخرى غير مضاعفة التسريحات، أو التنقلات، أو استعمال الجيش لتثبيت النظام، أو قمع الشعب. وغالبية كبار الضباط (المدلّلين) و(المشبوهين) في آنٍ معاً، سرعان ما يجدون أنفسهم بدون أي هامش للمناورة. بالنسبة للأسد دخول جيشه إلى لبنان قدّم امتيازين له:

إشغال العديد من جنوده، والسماح لضباطهم -كما رأينا سابقاً- بالاستفادة إلى الحد الأقصى من معيشتهم في هذا البلد الجميل والغنيّ...

بالمقابل، الادعاء بأنّ دخول القوات السورية إلى لبنان بطلب —ولنذكرها مرّة ثانية- من القيادات المسيحية،[155] مطابق للإيديولوجية البعثية التي لقّحت أفكار رئيس الدولة، هو ادّعاء —غير معقول-. أسد الذي استخدم حزب البعث للوصول والثبات في السلطة هو النقيض للعقائدي. "فإذا كان صدام حسين مدنياً يحاول لعب دور عسكري، حافظ الأسد هو عسكري حقيقي يحاول أن يتلبّس دور المدني"، هذا ما لاحظه بسخرية وحقّ هيثم منّاع.[156] ويضيف منّاع: "أسد لا يحسّ بنبض الشارع ولا يفهم أو يتوجّس من حماس أو غضب الجماهير". هذا التصلب العسكري مَنَعَهُ من التقييم الصحيح في أيار 1976 لعمق السخط الذي هزّ سوريا بعد إرساله الجنود إلى لبنان. فالأسد لا يهاجم فقط الهدف المقدّس للفلسطينيين، بل يتجرّأ على نجدة الانعزاليين المسيحيين حلفاء إسرائيل! والضوء الأخضر الأمريكي من أجل تدخّله في لبنان لم يُدبّرْ الأمور. وفي عام 1976 في الواقع، وليس العام الذي تلا، حين سافر أنور السادات إلى القدس، بدأت حقاً (متاعب) الرئيس السوري، فلا القطيعة مع القوات اللبنانية (اليمين المسيحي)، ولا إعادة العلاقات الطبيعية تقريباً مع المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني كانت كافية لإعادة النظام في سوريا. كما لو أنّ الشعب السوري إلى حدّ ما، اتّخذ بصورة مفاجئة نفس تدابير رئيسه الجنرال. وهكذا (الاستراتيجي الرفيع) الذي أصمّوا آذاننا — بِمَدْحِه- في الغرب، تحوّل تدريجياً إلى (تكتيكي) أسبوعي، ومن (بِسْمارْك)

كما أراد المحلّلون السياسيون التافهون تشبيهه به؛ وليس (للأسد) أيّ قرب منه سوى بعض الوحشية، فمؤسِّس الإمبراطورية الألمانية ليس فيه أساساً أي شبه برجل قسّم العرب، ودمّر جزئياً المجتمع المدني في سوريا.

ومنذ العام 1977، لم يبق عملياً شيء من الطموحات الكبيرة للبداية، ويضيع الأسد في الفوضى اللبنانية، وهو الآن في موقف دفاعي. لقد طُرد جنوده كشرطة مسلّحة من القطاع المسيحي في بيروت، فانتقم الأسد بِتَرْك مخابراته تدبّر الاعتداءات في الطرف المسيحي كما في الطرف المسلم، وهدفه الوحيد التقسيم، ليسهل عليه الحكم. هناك فوضى ناعمة إلى حدّ ما، ومنضبطة أيضاً إلى حدّ ما تستقر في مجمل البلد. وخلال الغزو الإسرائيلي في صيف عام 1982، كان على آلاف العسكريين السوريين مغادرة غرب بيروت على عجل، كذلك المنطقة الساحلية الممتدة من العاصمة إلى نهر الزهراني جنوب صيدا. كذلك دمّر الطيران الإسرائيلي مرابض إطلاق الصواريخ التي كانت في سهل البقاع، هذا الإذلال الذي حدث بعد شهور قليلة فقط من مذابح حماه الفظيعة تعطي صورة رديئة للجيش السوري. أمّا عن رغبة الأسد في الوصول إلى التكافؤ الاستراتيجي، فبدت كأنّها بمثابة تمنّيات وَرِعة، وهكذا قفزت فجأة إلى عيون العالم الطبيعة الشرسة لنظام الأسد.

في الحقيقة كان أسد في موقف الدفاع عندما برهن مرّة أخرى عن ماكيافيلّيته. فمثلما جرى عام 1974، في الامتحان المحبّب لقلب هنري كيسنجر، نجح في تحويل موقف عسكري كارثي، إلى نصف نجاح سياسي.(157) وأسد الذي سخر منه الإسرائيليون، واعتبره الأميركيون والفرنسيون

الذين اشتركوا في القوة المتعدّدة الجنسية عام 1982 كمّاً مهملاً، ثار بصورة صارخة في أقل من ثلاث سنوات، وتحت ضغط مقاومة لبنانية سلّحتها وأدارهًا دمشق إلى حدّ كبير، أجبرت إسرائيل على ترك لبنان في جزيران عام 1985، بعدما خسرت مئات من رجالها. قبل ذلك كان لبنان قد ألغى معاهدة السلام مع إسرائيل، وانسحبت القوّة المتعدّدة الجنسية. ولكن ردّة الفعل الحيّة هذه، من أجل تذكير كلّ الأطراف المعنيّة بدور سورية الذي لا يمكن تجنّبه... لا تشكّل سياسة.

في تلك الفترة حيث تكرّر خطف الغربيين على يد مجموعات موالية لإيران، وحيث تعرّضت فرنسا طوال العام 1986 لسلسلة من عمليات الخطف لمواطنيها، والتي أثارت جنوناً نفسياً حقيقياً، لم يكن من المستحسن أن تكون (سورياً). فلقد آوت سورية كلّ أنواع المنظمات الإرهابية من جماعة (أبو نضال) إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين — القيادة العامة لأحمد جبريل، ولديها العديد من أجهزة الأمن التي تلاحق كلّ ما لدى الشرق الأدنى من متطرفين من جميع الاتجاهات، وهي التي حبّذت تنامي حُضور الإسلام الإيراني في لبنان؛ وهكذا احتلت سورية أحد المراكز الأوليّة على لائحة الإرهاب، وتتعادل عملياً مع إيران والعراق.

وحافظ الأسد المكروه من مواطنيه والغالبية العظمى من اللبنانيين والفلسطينيين لا يزال ويا للغرابة يخدع أوروبا والولايات المتحدة، وتحت الذريعة الخادعة أنّ خَلَفَهُ قد يكون أسوأ منه، ابتهج الأميركان والفرنسيون علناً بعودة الجيش السوري إلى بيروت، في شباط عام 1987 ليستعيد الهدوء.

وكون حافظ الأسد سلّح مليشيات حركة أمل طيلة أشهر للتخلّص من كلّ وجود مسلّح للفلسطينيين في المخيّمات المحيطة ببيروت وصيدا، لم يثره اهتمام الطبقة السياسية الحاكمة في باريس أو واشنطن. فهؤلاء، معجبون من جهة ومطمئنون مرّة أخرى، إن لم نَقُلْ مُقَدِّرون من جهة ثانية، استمروا في دعم هذا (الإطفائي) العتيق الذي هو حافظ الأسد.

وعندما تنبّه حافظ الأسد أنّه تمادى في عملياته، وبخاصّة لما واجه أزمة اقتصادية شديدة بدأ يهدئ من روعه ويعتدل. وهكذا حاولت دمشق جهدها، بنجاح إلى حدّ ما، في الإسهام بإطلاق سراح الرهائن الغربيين المحتجزين في لبنان، ولكنّ النظام السوري وجد مساعدة لم يكن يأملها في السلوك الانتحاري لمسيحيّي لبنان، ومنذ غاب كميل شمعون عام 1988، الذي لم يبق له على كلّ حال نفوذ كبير؛ لم يقد موارنة لبنان إلا رجال حُرموا من كلّ رؤية سياسية للمدى المتوسط والبعيد. فأمين جميل المتهم بالفساد والعناد كان كارثة على الطائفة، وأصبح خلَفُه الجنرال عون، الشجاع القصير النظر دمية مثالية للأسد محرِّك الدمى. وأخيراً المتواطئ الثالث والأخير في هذا الفريق التافه، سمير جعجع، قائد القوات اللبنانية، والمسيحي الأصولي المقلق، بعدما راكم الأخطاء الكبيرة -قتْل طوني فرنجية، تحرّشات ضدّ الدروز أدّت إلى خروج عشرات ألوف المسيحيين من الشوف- انتهى بالالتحاق بالشرعية اللبنانية. وهذا الثلاثي المتواضع -الذكاء والقدرة والرؤية- لم يكن أبداً وبكلّ وضوح ذا وزن يستطيع الوقوف أمام حافظ الأسد. هذا المدمِّر المحترف الذي اصطدم وجهاً لوجه عام 1967 بتماسك

طائفي مناوئ لسورية، والمتمثّل ببشير الجميل (للموارنة) وكمال جنبلاط (للدروز) وياسر عرفات (للفلسطينيين السنّة) والإمام موسى الصدر (للشيعة) انتهى بتغلبه على هذا الائتلاف الغريب. وباستثناء الدروز، كلّ الطوائف اللبنانية على الأقل الطوائف الكبرى الثلاث، تفسّخت بالنتيجة لتولّد فروعاً موالية لسورية: موارنة الشمال مع سليمان فرنجية، وأمل الحركة الشيعية، والبرجوازية السنّية ممثلة بسليم الحص.

عام 1990 فهم حافظ الأسد جيداً وبشكل جليّ أن هذه التيارات، وكذلك المنظمات الفلسطينية الصغيرة الموالية لسورية لا تمثّل شيئاً ذا قيمة. ولم يكن بإمكانه الاستناد إلى زعماء بلا منازع وهو الذي جهد لتصفيتهم داخل كلّ طائفة، فعاد الأسد مجدّداً للعب ورقة الشرعية اللبنانية المتجسّدة بإلياس الهراوي الطيّع الذي خلف البائس رينيه معوض، الذي اغتيل بعد عدّة أسابيع من تسلّمه الرئاسة. ولقد لعبها بسهولة أكثر، فالولايات المتحدة الأمريكية، بعد مساندة دمشق للكويت والعربية السعودية في آب 1990 قبلت، من وقتها، بصورة علنية (الوصاية) السورية على لبنان. بالإضافة لذلك، أسد الذي لم يعرف حتى حينه -في منتصف تشرين أول/ أكتوبر 1990- كيف ستتطوّر الأحداث في الخليج، كان من مصلحته أن يحلّ بقوّته في السلطة ببيروت فريقاً لا يرفض له شيئاً. ماذا سيفعل في الواقع إذا الأمم المتحدة طلبت إليه بعد جلاء العراق عن الكويت أن يسحب هو جنوده من لبنان؟

وهكذا بعد أكثر من أربعة عشر عاماً من دخول الجيش السوري للبنان،

هل يستطيع أخيراً الجنرال أسد أن يدغدغ حلمه بفرض سيطرته التامّة تقريباً على لبنان، بعدما انتصر بدون أمجاد على الجنرال ميشيل عون. وللوصول لهذه النتائج مات (150000) مئة وخمسون ألفاً من اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين ماتـــوا [158] ... ومئات غيرهم جرحوا، أو تعوّقوا أو هاجروا طوعاً. ودُمّر البلد وارتفعت أرقام الخسائر والأضرار إلى مليارات الدولارات. ومشاعر العداء والكراهية بين الجاليات والطوائف والأديان لم تخمد نارها بعد ويبقى البلد تحت رحمة هزّات خطيرة. وحتى لو أنّ إسرائيل بهجماتها المنتظمة عليه منذ العام 1970، واجتياحه مرتين عام 1978 وعام 1982، واحتلاله جزئياً عام 1987، تحمل مسؤولية عظمى في تدمير لبنان المتعدد الطوائف،[159] إلا أنّ سوريا الشقيقة لم تقم بأفضل من ذلك. لقد جاءت حسب رأي رئيسها "لتضمن التوافق بين اللبنانيين".[160] ولكنها في الحقيقة لم تُمَضِّي وقتها إلا بتعميق الانقسامات بين طوائفه وفي داخل هذه الطوائف. وفي الوقت الذي كان جيشها ينهب البلد ويبتز سكّانه، ضاعفت أجهزة مخابراته العمليات الإرهابية وتصفية المعارضين، من الأكيد أنّ سوريا استفادت أحياناً كثيرة من ظروف مُخفّفة في حالة أن ممثليها في لبنان تعرّضوا باستمرار لإثاراتٍ من قبل جماعات لها مصلحة واضحة في إفشال مهمتهم. ولكن هذه المعارَضات، بدورها... ألم تكن مرتبطة بطبيعة النظام السوري؟ يمكننا البحث إلى ما لا نهاية في هذا الموضوع.

وفي الصحراء الإيديولوجية التي تسود سوريا ولبنان، القوى المتواجدة على الأرض في هذين البلدين لا تحلم إلا بالحفاظ على/ وتمتين سُلطتها بكل

الوسائل، ومنها التحالفات المتتابعة ضدّ طبائع الأشياء، والتي شهدتها الجماهير المتشكّكة وعاشتها منذ العام 1975. وفوق كلّ هذه التيارات هيمن الشخصية الساحقة لحافظ الأسد، "الحاكم الذي يركّز كلّ السلطات في شخصه الوحيد دون الارتباط بأقلّ إطار دستوري"، كما كتب بحق (توماس فريدمان).(161)

في الحقيقة، لم يكن لدى أسد أبداً أيّ مشروع من أجل لبنان حتى يتحاشى أن يتغلّب في النهاية أحد الأطراف على الآخر، فيمكنه عند ذلك من إثارة المشاكل له على المستوى الإقليمي. وتدخّله ضدّ الفلسطينيين عام 1976 ليس له أيّ تفسير آخر إلا أنّ هذا التدخّل يكشف في حينه أنّ لبنان سيمثّل منذ تلك الفترة رهاناً إقليمياً، وورقة اللعب التي تتحوّل بسرعة إلى منطقة نفوذ حيث لأسد بعض المشايعين الموثوقين... إلى حدّ ما.

فبعد مدّة طويلة من الرهان على المليشيات التي كانت تجسّد في نظره بعض الشرعية، أسد، الذي أخطأ التقدير مرّة أخرى لإرهاق اللبنانيين بسبب هؤلاء المقاتلين غير المنضبطين، الفاسدين القساة، انحاز منذ العام 1989... والطائف، إلى معسكر المؤيدين للشرعية، المناصرين (للحد الأدنى من اللبنانية) الذين تتكلّمُ عنهم بحقّ (نادين بيكادو).(162) لماذا؟ لأنّ اللبنانيين تركوا كلّ شيء... بخاصة مليشياتهم ويأملون، دون أن يغامروا بالقول علناً، بإعادة إحياء دولتهم المحتضرة. ولِمَ لا؟

هكذا فكّر الجنرال الأسد. إذا كان إلياس الهراوي الطيب المخلص

يستطيع تجسيد هذا "اللبنان الجديـــــد"، وغالبيّة اللبنانيين يعرفون مع ذلك أنّ الأمر لا يتعدّى الملائم النفعي، وأن حـــــلّ الأزمة اللبنانية يمرّ أولاَ عبر إقامة دولة فلسطينية واتفاقية سلام عامّة بين إسرائيل وجيرانها. وكلّ الأحداث الهامة، منذ خمسة عشر عاماً في الشرق الأدنى عندما قسمت العالم العربي، أو عندما تورّطت في حروب مع إسرائيل، كانت ردود فعلها سلبية وغالباً دراميّة في لبنان. كان هذا صحيحاً بعد عام 1967، ووُصُول العديد من الفدائيين إلى لبنان، وكذلك كان صحيحاً بالنسبة لحمامات الدم الجديدة بعد سفر السادات إلى القدس وكامب ديفيد، ومعاهدة السلام الإسرائيلية – المصرية، وسقوط شاه إيران وانتهاء الحرب العراقية – الإيرانية.

لقد طلب ديكتاتور بغداد ببراعة قبل هزيمته الحارقة بعقد مؤتمر عالمي أخيراً لحلّ كلّ الصراعات في المنطقة، ممّا أثار ردود فعل إيجابية مدهشة عند الأميركان والأوروبيين، وربما سنرى نهاية للكابوس اللبناني.

على كلّ حال، ليس باستطاعة حافظ الأسد إيجاد حلّ لكل واحدة من هذه المشكلات، ولبنان بنظر أسد لم يكن له أبداً من فائدة غير إبقائه طرفاً قابضاً في كلّ مفاوضات دولية شاملة على مستقبل الشرق الأدنى. والمؤكد أنّ في هذه الخطّة وحدها، خطّة الواقعيّة القاسية، لم يفشل حافظ الأسد في لبنان بعد –حتى نهاية شهر أيار 1991–، في الوقت الذي وقعت فيه معاهدة أخوّة وتعاون وتنسيق بين بيروت ودمشق، ولكن الفريق المستلم للسلطة في بيروت فاسد إلى حدّ أنّ خرْق حقوق الإنسان أصبح فظّاً، لدرجة أنّ حالة

حقـــوق الإنسان قد اختزلت؛ بحيث بدا لبنان في وضْع لا يسمح له بتسلّق الهضـــبة مرّة ثانية، كما لو أنّنا تقريباً، طلبنا من أحد مروّجي المخدرات أن يعتني بأحد المدمنين.

المحيط العربي-الإسلامي

في العالم العربي ثلاث مدن لعبت، منذ ظهور الإسلام، دوراً أساسياً هي: دمشق وبغداد، وظهرت أهمّيتها في عهد الأمويين والعباسين، ثم القاهرة (التي أُسّست عام 969م في عهد الفاطميين وبخاصة، بعد مدّة طويلة، في عهد المماليك الذين سيطروا عن جزء كبير من العالم العربي)، بينما بغداد ودمشق كانتا محطّ مطامع الفرس والأتراك.

وبعدما نالت استقلالها في القرن العشرين بعد فترة طويلة من الغفوة، وعدّة عقود من الكفاح ضدّ المستعمر البريطاني أو الفرنسي، استيقظت المنافسة القديمة. وخلال عشرين عاماً تقريباً، في الخمسينات والستينات -من القرن العشرين- سحقت شخصية المصري جمال عبدالناصر كلّ العالم العربي، وعند موته كان على من خلفه، أنور السادات، أن يأخذ في الحسبان الوزن المتنامي للأنظمة البعثية المنافسة في دمشق وبغداد، حافظ الأسد وصدام حسين ظهرا مُذّاك، الرجلين القويين في المنطقة المسمّاة الهلال الخصيب، ووقفا كمنافسين لبطل وادي النيل.

ويتعقّد الموضوع بوضوح لوجود (دخيل) منذ عام 1948، هو إسرائيل، القوة العسكرية العظمى التي تتسلى بانتظام في خلط الأوراق. الدولة اليهودية هي موضوع المزايدات الكلامية التي تسهم في زيادة انقسام البلاد العربية التي تقدّر كلّ واحدة منها بطريقة مختلفة الأسلوب الأفضل للتخلص

"من العدو الصهيوني". وإذا أضفنا لذلك وجود القوة العثمانية القديمة في الشمال، التي تحوّلت إلى جمهورية تركيا، ولكنها مع ذلك غير مستعدّة لتحمّل ردّات فعل هزّات جيرانها المضطربين، كذلك في الشرق وجود قوّة إقليمية ذات ماضٍ عريق، هي إيران، عندها يمكن فهْم الفائدة من دراسة السياسة الخارجية السورية في هذا الإطار الإقليمي، كذلك أيضاً فهْم الصعوبة بالنسبة للقيادات الشامية، وبخاصة حافظ الأسد في سلوك سياسة مستقلة متماسكة منطقية ومستديمة.

وبخلاف مصر المنطوية على وادي النيل، والتي نمّت شخصيّتها الخاصة منذ زمن طويل، سورية والعراق هما دولتان فتيّتان، وكانتا بصورة دائمة تقريباً في حالة حرب مع، أو محتلّتَين من قبل جيرانهما. بلدان ينقصهما التجانس الكامل على المستوى الديني والإثني، فلا غرابة في أنّهما ضاعفتا تحالفاتهما الإقليمية أو الدولية حيث تحرقان يوماً ما عَبدا بالأمس.

وفي هذا الفصل الذي اخترنا له عنواناً (سورية ومحيطها الإسلامي) –وهذا يستثني تحديداً إسرائيل التي ستُبحث في دراسة خاصّة– نتكلّم قليلاً جداً عن تركيا والممالك البترولية، فليس هناك أشياء كبيرة للتحدّث عنها مع أنّ حافظ الأسد هو أوّل حاكم سوري، وطّد علاقات جيدة مع أنقرة منذ ضياع سنجق الإسكندرون عام 1939، فالعلاقات الثنائية كانت دائماً صحيحة إن لم تكن حارّة.

أمّا بالنسبة للملكيّات –والإمارات– البترولية فمنذ عشرين سنة –أي منذ بداية ثرواتهم المذهلة– لم تلعب إلا أدواراً سياسية صغيرة. وبعكس الفكرة

القائمة، العربية السعودية التي هي عملاق بترولي ودون أدنى شكّ ذات ثروة كبيرة، إلا أنّها لا تمارس إلا نفوذاً ثانوياً في الشرق الأوسط. فإذا بحثنا عن قرب في تاريخ المملكة الوهّابية منذ الحرب العالمية الثانية من الصعب أن نجد عند ملوكها كلّهم —باستثناء الملك فيصل- فكرة مبتكرة واحدة. السعوديون هم محافظون في الدرجة القصوى قصيرو النظر في دَفعِهِم مليارات الدولارات من أجل الحفاظ، خيراً أو شراً، على توافق زائف في قلب الشعب العربي.

وعوضاً عن استثمار ثرواتهم الخيالية في بلاد الجيران الأكثر حرماناً، فضلوا تمويل كلّ أنواع الحركات الأصولية في السودان كما في الجزائر، في فرنسا كما في إنكلترا. ففي نفس الوقت الذي أعلن فيه عن غزو العراق للكويت كشفت لنا الجرائد أنّ أحد أقرباء الملك فهد المقرّبين خسر 65 مليون فرنك فرنسي في الكازينو على —الشاطئ اللازوردي- (الكوت دازور-Cote d Azur). ولنختم هذا الموضوع ونوجز بالقول أنّ الرئيس السوري فهم بسرعة كلّ ما يستطيع أن يستفيده من الضعف السعودي، وأنه من بين كلّ البلاد العربية -إذا لم نأخذ في الحسبان العون الذي استلمه العراق خلال حربه مع إيران — سوريا هي بلا منازع كانت أكبر المستفيدين من (الكرم) السعودي.

في الواقع في صلاتها المعقدة والمبهمة التي حافظت عليها مع محيطها الإسلامي، لم تعلّق سوريا حقاً أيّ اهتمام إلا للعراق وإيران ومصر، ثلاثة بلاد كان لها في فترات مختلفة، تأثير في مجرى الأحداث العالمية: فناصر، كالسادات كانا في أوقات مخلتفة، أو في نفس الوقت معبودين ومكروهين؛ وشاه إيران كان أفضل أصدقاء الغرب قبل أن يطرده آية الله الخميني الذي

كان من أشد أعدائه، وصدّام حسين كان يعتبر لمدّة طويلة أفضل سدّ ضدّ التعصّب الإسلامي قبل أن يصبح العدوّ اللدود لأوروبا وأميركا! وسورية الأقل قوّةً من هذه البلدان الثلاثة لأنّها أقلّ سُكاناً وفيها فقط القليل من الاحتياطي البترولي، لم يكن لها أبداً، إلا في لبنان الوزن الهام الذي هو لدى منافسيها المهيبين الثلاثة. وهكذا اعتمدت دائماً أكثر على المعونات المالية من أمراء –الخليج–، والفلسطينيون المليئون بالنكات عن التنافس السوري العراقي يروون أنّه في مناسبات عدّة بعد خلافاتهم التي لا تعدّ ولا تحصى، كان صدّام حسين يُسرّ بإهانة حافظ الأسد علناً مخاطباً إياه "أي أمير يستطيع إسكاتك". ولكن مهما كانت محدودة الوسائل والطموحات فسوريا لم تكن (كمّاً) مهملاً.

المنافس الخالد

منذ العام 750م وعندما سُحق آخر خلفاء الأمويين على يد العباسيين على ملتقى نهري دجلة والزاب الأكبر، وماتَ مغتالاً في مصر، من المستحسن أن نتكلّم عن التنافس بين دمشق وبغداد. صحيح أنّه بعد خسوف طويل جداً، وبعد تحرّرهم من نير العثمانيين ثم من نير الانتداب، لم يجد البلدان أفضل من إحياء تقاليدهم الحسنة القديمة، ومتناسين أنّ التاريخ العربي لم يكن قطّ أكثر أمجاداً مما كان عليه عندما كانت العاصمتان متحدتين، لم يتوقف الإخوة البعثيون الأعداء من التخاصم منذ ربع قرن؛ بينما يعتبرون إسرائيل "الكيان الصهيوني" كحادثة –عابرة– في التاريخ، فصلٌ مؤسف بالتأكيد، لكنّه موعود بمصير مشؤوم مثل الصليبيين. فالقوميون العرب الحقيقيون يشعرون بالأسى

العميق للتخاصم السوري العراقي المستمر. ويجب الملاحظة أيضاً أنّه، مع بعد الاستثناءات النادرة، سوريا هي دائماً تقريباً المتهمة "بالانحراف". لأنّه بالنسبة لهؤلاء القوميين أنفسهم، التضامن العربي هو واجب أساسي، لا يمكن لأحد أن يتملّص منه، وبوقوفه بجانب طهران ضدّ بغداد في حرب الخليج انتهك الأسد محرّماً... وجرح بعمق المشاعر العربية.(163)

ومن منفاه في ضواحي باريس لم يهدّئ السياسي السوري العتيق أكرم الحوراني من غضبه على هذه (الجريمة): "يمارس الأسد السلطة منذ عام 1970 باسم العروبة، ولكن ما الذي عمله من أجل الوحدة العربية؟ إنّه تحالف مع إيران فيما العراق هي الدولة العربية الوحيدة التي تستطيع سوريا معها إقامة توازن استراتيجي في صراعها مع إسرائيل. هذا الموقف الموالي لإيران كان أحد الأسباب الأساسية لإدامة الحرب مع ما تقتضيه مصروفاتها من مليارات الدولارات المبدّدة مع مئات ألوف القتلى. لقد استغلّ آيات الله الأسد بذكاء من أجل محاولة إسقاط صدام حسين".(164)

ويتابع الحوراني: ساعد الصهاينة إيران ودفعوا ريغان لمساندة طهران ضدّ بغداد (...) ولم يكن ذلك عبثاً، لقد أضاعت سورية كثيراً بتحالفها مع إيران. إذ حرمت من أنابيب النفط التي كانت تخترقها وتوفّر لها إيجاراً هاماً. كذلك قُطع طريق الترانـــزيت من البحر المتوسط إلى الخليج عبر العراق، وقوّت تركيا مواقفها على حساب سوريا، ليس فقط لأنّ العراق بدأ يصدّر بعض نفطه البترولي عبر تركيا، بل لأنّ تركيا في مواجهة انقسامات جيرانها لم تتردد في حلّ مشكلة المياه، التي هي أهم من البترول، لصالحها، وبدون ماء

يصبح الشرق الأدنى صحراء، وكلّ حضارات المنطقة بُنيت حول الأنهار. "بل والأخطر من ذلك أيضاً أنّ التكامل الاقتصادي والاجتماعي للبلدين، وهو المثل الحيّ للوحدة العربية تأثّر كلياً بهذه القطيعة المناقضة حتّى لمبادئ حزب البعث". (165)

وواضح [redacted] أكثر تعقيداً –نوعاً ما– مما أراد أكرم الحوراني التسليم به، [redacted] الحرب في أيلول 1980، بمبادرة من بغداد بين العراق [redacted] سبب ليقدّم الأسد هدايا لمماثله العراقي، فالوحدة [redacted] ميثاقاً قومياً للعمل المشترك آخر عام 1980، تعثّرت [redacted] عي حزب البعث، واكتشف صدّام (مؤامرة) –في [redacted] حلف فيه [redacted] 1979– أحمد حسن البكر كرئيس الدولة، ممّا [redacted] تحقيق مشروع الوحدة. والواقع أنّ سلطة الرجلين كانت معرضة للرهان، [redacted] منهما مستعداً للانسحاب، والصراع العراقي الإيراني [redacted] فوائد آنية؛ إنّه يضعف عسكرياً واقتصادياً الخصم [redacted] – بواسطة المال أن يلعب دور الوسيط المفيد بين إيران [redacted] البترولية المهووسة لتدخّل الإمام الخميني في المسرح الشرق أوسطي، [redacted] كرماً أكثر عندما دفع كرَمه إلى حدّ الوعد بأنّ بلده سيكون، عسكرياً، [redacted] عربي يتعرّض لهجوم من إيران... (166)

ومع ذلك يجب الاعتقاد بأنّ الرئيس [redacted] الزمن، بدا يقلق جدّياً من الاتجاه الذي سارت فيه الأحداث [redacted] سراً في 28 نيسان

1987 بصدّام حسين على الحدود الأردنية العراقية.(167)

ولم تؤدِّ المقابلة، على ما يبدو، إلى أيّ شيء ملموس، ولكن قيمتها هي في حدوثها على كلّ حال. واحتاج الملك حسين جهود سنة كاملة، وكذلك العربية السعودية التي سعت لذلك بدرجة أدنى لتحضير هذا اللقاء، ومثل غالبية نظرائه العرب كان الملك حسين قلقاً أيضاً من تنامي الأصولية الإسلامية، وكان على قناعة تامة أن تطبيع العلاقات السورية العراقية لا مفرّ منه.(168)

وإذا كانت الوقائع قد أعطته الدراية الكافية لتقدير الظاهرة الدينية، فالعاهل الهاشمي لم يقدّر تماماً حجم الأمور المتنازع عليها. وفي تلك الفترة على كلّ حال صرّح نائب الرئيس السوري عبدالحليم خدّام لصحيفة سعودية،(169) إنّ الشروط لم تجتمع بعد لحلّ المشاكل بين سوريا والعراق والتي هي، حسب قوله، سابقة لإعلان الحرب العراقية الإيرانية.

وحلّ المشكلة هو أكثر صعوبة لأنّه ليس عند العراق الكثير لتقديمه لسورية كدعم مالي، ومنذ 25 حزيران 1986، أكّد نائب رئيس الوزراء العراقي طه ياسين رمضان أنّ إعادة فتح أنبوب النفط العراقي المارّ بسوريا، والتي أغلقته في الواقع دمشق في نيسان 1982، "ليس في مصلحة العراق الآن".(170) فالخطط التي وضعها المسؤولون عن قطاع النفط في العراق، يضيف السيد رمضان، أخذت بعين الاعتبار الإغلاق "الكليّ والنهائي" لهذا الأنبوب الذي كان يمرّر العراق عبره أكثر من ستين في المئة 60٪ من صادراته البترولية. وبحذر قال السيد رمضان: وليس من المستبعد مع ذلك البحث في إعادة فتح الخطّ في المستقبل من أجل القيام ببادرة تجاه سورية.

والواقع أنّ الإشارة الأكثر منطقية عن تقارب آت بين البلدين كانت بلا شكّ القرار المتزامن للبلدين في إسكات المعارضة السورية في بغداد والمعارضة العراقية في دمشق.(171) والحركات الكردية المختلفة هي غالباً، كالمعتاد، أول من يضحّى بها! وبعد حرب الخليج ليست هذه المسألة بالطبع على جدول الأعمال.

"مسألة معقّدة"

ولكن في بداية عام 1988، كان عند حافظ الأسد من الأسباب ما جعلته يقلق، عاجلاً أم آجلاً سيتوقف الصراع العراقي الإيراني، وبدا بجلاء أكثر مع الوقت أنّه لن يكون هناك منتصر حقيقي ولا خاسر حقيقي. ومع ذلك عندما اتّخذ قرار إيقاف القتال في 20 آب 1988، وفّرت إيران للعراق (فائدة) نفسية -بسيكولوجية- فأعلَنَ فوراً إنّه المنتصر. وبالنسبة للأسد هذا الانتصار -الاحتمالي- كان النتيجة الأقل سوءاً التي يستطيع تمنّيها، لأنّ الانتصار الصحيح لإيران ربما كان سيتبعه سقوط النظام العراقي وإقامة جمهورية إسلامية أخرى في بغداد مع كلّ النتائج التي يمكن تصوّرها في سوريا. وبالعكس من ذلك إنّ الانتصار الواضح للعراق سيكون أيضاً أكثر خطورة على الرئيس السوري. ولكن نصف النجاح لصدام حسين ليس (مفرحاً) إلى هذا الحدّ.

وحتّى يشيروا لعودتهم للساحة العربية دخل العراقيون في محادثات بسرعة كبيرة مع المسيحيين اللبنانيين، وبدؤوا يزوّدونهم بكميات هامة من السلاح والذخيرة. وشدّدوا على أولوية حلّ المشكلة اللبنانية في نفس الوقت الذي

كثّفوا فيه من هجماتهم على دمشق. وفي 20 تشرين أول 1988، بعد شهرين تماماً من إيقاف الحرب مع إيران، اتهم طارق عزيز وزير الخارجية العراقية، سوريا "بأنّها المسؤولة الأولى عن تفكيك المؤسسات اللبنانية". وبالنسبة لصدام حسين: يتعلق الأمر ببساطة بإعادة نفوذه في لبنان والذي فقده منذ عام 1980، لمصلحة سورية ثم إيران، وبكل تأكيد بالاعتراض على دور سورية كلاعب رئيسيّ، أمّا بالنسبة للقوات اللبنانية فالدعم العراقي يمثل من جهة أخرى ضمانة عربية ستكون ذا فائدة قيّمة في حالة تدخّل الجامعة العربية.

والوضع أكثر حساسيّة بالنسبة للأسد، كما هو بالنسبة لعدوّه القديم ياسر عرفات، فالأخير يحاول استعادة صحته السياسية في الانتفاضة، العصيان الفلسطيني الذي يهزّ المناطق المحتلة منذ 9 كانون أول 1987، ويُهمّش آخر المنظمات الفلسطينية الصغيرة الموالية لسورية، ويجعلها غير ذات شأن، كلّ هذا هو خبز مبارك للعراق، إلى حدّ أنّ قيادات البعث السوري لم تستبعد فكرة غزو سوريا بجنود صدام العاطلين عن العمل الآن. "ومما نعرفه في نفسية صدام حسين، كما أكّد لمراسل (الغارديان) (ديفيد هُورْسْتْ) أحد القياديين البعثيين المهمّين، أحمد ضرغام: نحن نقدّر أن الحرب ممكنة لأنّ صدام يريد أن يكون بطل المنطقة... وسوريا هي العائق الرئيسي في طريقه". ويعترف ضرغام[172] أنّ الرئيس العراقي لن يتحرّك في هذا الاتجاه إلا كوسيلة أخيرة، ويخاف في تلك الفترة مثل العديد من قيادات دمشق من أن تسبّب القوات العراقية المحتشدة على الحدود السورية انفصال المنطقة الشرقية في سورية مثل دير الزور، أو حتى انفجاراً شعبياً في العاصمة نفسها؛ لأنّه رغم قسوته غير

العادية يبقى صدام بلا شك، بعد ياسر عرفات، أحد الشخصيات الأكثر شعبية في سوريا منذ عام 1980 لسببين: عدو عَدُوّي صديقي أولاً، ولأنّ العديد من السوريين ثانياً يدينون له بالشكر لأنّه قاد حرباً قاسية ضدّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي ليس لها الكثير من المقدّرين في سوريا، وبسبب وقوعه في مخالب صعوبات ماليّة هائلة، تخلّى صدام حسين —على الأقل مؤقتاً– عن فكرة مهاجمة سوريا ولكنّه زاد بالمقابل من ضغوطه في لبنان.

في بداية عام 1990 أرسل خطاباً إلى رئيس مجلس النواب الأردني، سليمان عرّار طالب فيه، قبل أيّ مصالحة مع سورية، سحْب قوّاتها من لبنان. ورغم جهود الرئيس المصري حسني مبارك لتخفيف التوتر بين البلدين —سوريا والعراق– التي أدّت إلى انفراج صغير حيث توقّف الإعلام في البلدين عن مهاجمة الواحد منهما للآخر في أيار —مايو– 1990، بقي عدم الاتفاق كاملاً بين الرجلين. وكما أسرّ به ببساطة الرئيس السوري إلى مجموعة من الصحفيين المصريين الذين رافقوا الرئيس المصري في زيارته لدمشق في 5 أيار "مسألة تحسين العلاقات السورية العراقية معقّدة وتحتاج لوقت"، أزمة الخليج، بعد أشهر ثلاثة وفّرت لحافظ الأسد الفرصة ليحوِّل، مرة أخرى، لصالحه وضعاً بدا هشّاً.

لا للشاه... نعم للخميني

خلال كلّ فترة الحرب العراقية الإيرانية، كُتبت أطنان من المقالات لتبيّن، وفي أغلب الأحيان لتستنكر الدعم الذي قدّمته دمشق لطهران. وأغلب كُتّاب

هذه الأدبيات الغزيرة ذكروا أنّ حافظ الأسد وجد المناسبة غير المأمولة ليطعن منافسه العراقي القديم في الظهر بإقامته نوعاً من التقارب (الروحي) مع أبناء العمومة، البعيدين جغرافياً عن العلويين، وهم شيعة إيران. ولكن الوقائع، مع ذلك، مختلفة بشكل ملموس، يجب أولاً التذكير أن خلال حكم الشاه لم تكن العلاقات السورية الإيرانية جيدة. وفي ربيع عام 1975 بعد الاتفاق الحدودي بين طهران وبغداد الذي وقّع في الجزائر في 16 آذار الماضي، قدّر المؤتمر القومي السادس لحزب البعث في دمشق، أنّ الأمر هو "خيانة للشعب العربي" (...) وهذا يكشف عزم العصبة اليمينية العراقية على تصفية الثورة في عربستان".[173] بعد خمس سنوات، يمكن للأسد أن يعجب، وهو مُحِقّ من رؤية (إخوانه) في العراق يستنكرون اتفاقاً وقعوه هم أنفسهم عام 1975: "عندما وقّع الاتفاق، يلاحظ الأسد، حيُّوه في كلّ العراق بمهرجانات وأعياد شعبية عارمة، لأنّه اعتبر آنذاك كانتصار كبير. ولكن ها هم اليوم يُلغون هذا الاتفاق! إذن ربما لم يكن الأمر جدياً...".[174] في الحقيقة، أبعدُ من موضوع عربستان -الذي انتقل على كلّ حال من خانة الخسائر إلى خانة الفوائد منذ بدأت دمشق مساندتها لطهران- هو دَعم الشاه لإسرائيل الذي لم يكن مقبولاً بالنسبة لسورية؛ في مثل تلك الحالات، سقوط الشاه "هذا الطامع بأرض العراق، هذا العدوّ للإحياء العربي، هذا الصديق لإسرائيل"[175]... لا يمكن استقبال هذا السقوط في دمشق إلا بحُبورٍ من قِبَلِ النّظام السوري. في تلك الفترة الزمنية -أي في شباط 1979- الحادث الذي نسيه الجميع إلا الجنرال الأسد، سيكون تأثيره شديداً. كان الأسد مهتماً إلى الحد الأقصى بالغليان المنتشر لدى جاره القوي، والذي يشكل تهديداً أكثر إقلاقاً من اتفاقيات

كامب ديفيد، حين وَضَعَ صدام حسين بين معترضتين المعاهدة السورية العراقية التي وقّعت في شهر تشرين أول الماضي. وسيد بغداد الذي لا يسعى أبداً لإيجاد ذريعة منطقية، ألحق بأسد إهانة مؤلمة لم ينساها أبداً... "النظام العراقي، كما كرر ذلك في مناسبات عدّة، قوّض جهود الشعب العربي لقهْر إسرائيل عندما أجهض عملية الوحدة التي كانت قاب قوسين أو أدنى بين سورية والعراق".

إلا أنّ الأسد لا يستطيع مع ذلك هدْم الجسور مع بغداد دون أن يضمن مؤخرته. فحتّى بداية ربيع 1982، ورغم العلاقات الرديئة جداً، كان ما يقرب من ثلثي صادرات البترول العراقية –800 ألف برميل يومياً– من مجموع مليون ونصف المليون، يمرّ عبر سوريا. ودَخْلُ الخزانة السورية منها كبير.

و"المعجزة" ستأتي من طهران، فالإيرانيون، وكانوا قد طردوا في تلك الفترة العدو العراقي من أرضهم فتّشوا عن أيّة طريقة لخنق اقتصاد الحرب العراقي بحرمانه من مصدر دخله الرئيسي: البترودولار؛ ومنذ ذلك الحين كان لسوريا دور حاسم تلعبه. وسيتودّد إليها باستمرار المسؤولون في طهران ويعدون السوريين بتقديم خمسة ملايين طن من البترول في العام، مليون طن منها مجاناً، أما الباقي فسيبيعونه بسعر أقل بكثير من سعره العالمي. والواقع إذا كانت المبادرة الإيرانية ستسهم في زيادة الديون العراقية إلا أنّها لم تركّع العراق الذي وجد بسرعة ردّاً على هذه الضربة في زيادة صادراته عبر تركيا ونَقْلِ مئة ألف برميل يومياً في خزانات سيّارة عبر الأردن إلى ميناء العقبة.

ولكن دمشق كانت قد حزمت أمرها منذ مدّة طويلة لمصلحة طهران، أمّا

شهر العسل بين الإيرانيين والسوريين فكان مع ذلك قصيراً. فمنذ صيف 1982، عندما كان لبنان مجتاحاً بجنود (أرييل شارون) عرض الإيرانيون إرسال عدّة آلاف من المتطوعين لبيروت. بعضهم استطاع دخول لبنان، وآخرون مثل ستُّ مئة من أتباع إبْن آية الله منتظري، الشهير بآية الله (رنجو)، وفرقته الإسلامية، ابتلعتهم دمشق وأعادهم بعد ذلك لإيران.

على كلّ حال، الحسابات الجيدة تصنع الأصدقاء الجيّدين —كما يقول المثل الفرنسي- وعدم قدرة أو سوء نيّة السوريين للوفاء بديونهم... أثار استياءً صارخاً لدى الإيرانيين. وفي منتصف عام 1983، موعد إعادة التفاوض في الاتفاق الإيراني السوري، أعلن مدير المصرف المركزي الإيراني في كلّ مكان أن: الكيل قد طفح. إذ لم يدفع السوريون (سنتاً) واحداً من ثمن أربعة ملايين طن من البترول الإيراني الذي استلموه. ولكن بعض الزيارات على المستوى الوزاري أجبرت هذا على السكوت، فيما أعيدت جدولة الدَّين. وعاد البترول الإيراني لسورية كما كان.

ولم يُظْهر السوريون بعد ذلك أنّهم أفضل في دفع ديونهم ووصل حنق الإيرانيين حدّه الأعلى عندما علموا أنّ كميات من بترولهم المسلّم لسورية بدون دفع ثمنه يبيعه السوريون في أسواق روتردام! وفي هذا الوقت بالذات، أواخر عام 1983، وضعتْ طهران على الطاولة كلّ القضايا المتنازع عليها، وحصلت من دمشق على الضوء الأخضر لإرسال دفعة جديدة من الباسْداران إلى سهل البقاع (لمحاربة الصهيونية).

وبعد فترة وجيزة، بداية عام 1984 عُقد اتفاق بين البلدين سمح بموجبه

لألفي حاج إيراني بزيارة دمشق أسبوعياً على متن أربع طائرات جامبو لشركة الطيران الإيرانية Iran Air. ويبدأ الحج بزيارة جامع أمية حيث يوجد قبر القديس (جان باتيست) الذي يقدسه المسلمون باسم الإمام يحيى.(176) ثم ينظم الحجاجَ مرشدٌ روحي، ويقوم على حاجاتهم المادية خلال إقامتهم مرافق مسؤول؛ ويذهب الحجاج في طريقهم إلى الجنوب الشرقي من العاصمة دمشق مسافة عشرة كيلومترات إلى جامع السيدة زينب، المركز الشيعي المقدس.(177) والحجّ هذا يكلّف حوالي ألف دولار أمريكي، وأكد المنظمون لرحلات الحج هذه بعد أشهر قليلة من بدايتها أنّ الأمكنة محجوزة سلفاً لخمس سنوات قادمة أي هناك أكثر من نصف مليون –إيراني– في انتظار رحلة الحج هذه!(178) وتضمّ هذه الرحلات بوضوح جناحاً سياسياً إذ تشمل زيارة لمدينة القنيطرة التي دمرها الإسرائيليون بوحشية بعد حرب عام 1973.(179) والحجاج الذين يملكون بعض المال في جيوبهم يختمون نوافلهم بتنظيم بازارات صغيرة على أرصفة دمشق حيث يجدُ الهواة سجاجيد يشترونها بأسعار مقبولة وكذلك الكافيار والفستق. ومقابل مبيعاتهم يشتري الحجاج أقمشة وألبسة داخلية وأدوات كهربائية للاستعمال المنـــزلي.

وبالنسبة (للملالي) الإيرانيين، الفوائد محقّقة: "فمن هذا الجانب، حسب تعبير صحفي أوروبي أمضى عدّة سنوات في إيران الخميني، تُموّل التعبئة الداخلية، وعن طريق السوق السوداء تُدفع الرواتب لسنةٍ كاملة، وباختصار يجزى اتباع النظام بصورة مرضية". بالمقابل، همّ التبشير الدعوي، بمعنى نشر الكلمة الطيبة للجمهورية الإسلامية في سوريا، معرقل بجدية شديدة من قبل

سلطات دمشق التي لا تحب أن ترى تنمية علاقات وثيقة على المستوى الفردي. ولا أساس لهذا التّهَم على كل حال، إذا صدّقنا السوريين الذين، كردّ فعْل معاكس للسياسة التي يتبعها حكامهم، فهم لا يضمرون أي ودّ للإيرانيين ويتمنون كلهم تقريباً، ومنذ مدّة طويلة انتصار العراق...

زواج مصلحة

ولكن إذا قام الأسد، على مضض، ببعض التنازلات لحلفائه الجدد، لم يغب عن فكره أبداً مصالحه على المدى البعيد. حتى ولو أنّه، كما رأينا، أخطأ تقدير تنامي قوّة حزب الله ويرجع ذلك، إلى حدّ كبير لمهارة وقوّة إيمان أنصار الإمام الخميني من الإيرانيين، إلاّ أنّ رئيس الدولة السورية بالمقابل وقف دائماً معارضاً لتوسيع محور دمشق طهران كما طالب الإيرانيون. لذلك لم يستطع هؤلاء الأخيرون الدخول عام 1981 و1982 إلى جبهة الصمود[180] كما تمّنوا.

وبعد ذلك، في عام 1984، عند زيارة حجة الإسلام رفسنجاني والرئيس علي خامنئي بُحث موضوع خلافة صدام حسين، لأنّه، حسب ما قال الزائران، على حافة الانهيار. وكانت إيران تتمنى بشكل طبيعي إقامة جمهورية إسلامية في العراق بالرجوع بخاصة إلى الحركة الشيعية العراقية الموالية لإيران (الدعوة) ومنظمة العمل الإسلامي التي تتجمّع تحت لواء المجلس الإسلامي الأعلى. وأصمّ الأسد أذنيه لهذا النداء وطالب بقيام جبهة تقدمية يكون فيها بخاصة بعثيون عراقيون موالون لسوريا (ولقد بلغ به الضعف درجة اعتقد معها بوجود مثل هؤلاء في العراق)!.

على كلّ حال اختلاف التقديرات إن لم نقل سوء تفاهم أو توتّر، بدت واضحة في العلاقات بين البلدين، وهكذا عندما حوصرت طرابلس، في شمال لبنان حيث تحصّن عرفات في كانون أول –ديسمبر– 1983، بعدما طُرد مناصروه من بقيّة لبنان، اكتفت الصحافة الإيرانية بنشر تقارير الوكالات وبخاصّة الوكالة الفلسطينية للأنباء –وفا– إلى تبرُّمِ السوريّين احتجاجاً –على ذلك– ولوحظ كذلك أنّ طهران لم تقطع الجسور مع منظمة التحرير الفلسطينية. وبالمقابل، أبو موسى، وهو من أهم المنشقين على فتح وأصبح أحد رجال دمشق لم يستطع قطّ فتح مكتب له في العاصمة الإيرانية كما كان يتمنّى.

والعلاقات بين دمشق وحزب الله، أو أفضل من ذلك، بين (أمل) المليشيا الشيعية الموالية لسوريا وحزب الله تشهد منذ سنوات على قلّة (الحرارة) التي تسم في الواقع، التحالف السوري –الإيراني. وبعد إعادة القسم الأكبر من (الباسداران) الإيرانيين عام 1986 و1987، والذين أصبحوا مزعجين حقاً، هاجم النظام السوري حلفاءهم اللبنانيين في حزب الله. وفي سهل البقاع نشاطاتهم مقيّدة بشدّة، وفي المناطق الأخرى، في بيروت وضاحيتها أو في جنوب لبنان، تُدفع (أمل) سرّاً للتخلّص منهم. ولكن بدون أيّ نجاح يذكر. وفي الوقت الذي دخل الجيش السوري مُجدّداً بيروت في شباط 1987 لإنهاء الفوضى التي أسْهم حكام دمشق، على كلّ حال، إلى حدٍ كبير في خلقها، أعطى الجنرال غازي كنعان السوري الذي هو كالوالي الروماني الطاغية في لبنان، أعطي الأوامر لرجاله بِذبْحِ عشرين شاباً من حزب الله لكي يكون

واضحاً تماماً أن سوريا لا تقبل تقاسم السلطة مع أطراف أخرى. وينسحب كلياً حزب الله إلى الضاحية الجنوبية تاركاً بيروت لحركة أمل.

وفي نفس الوقت الذي يُفهِمُ إيران أنّ دورها في لبنان تابع له، لا يتردد النظام السوري في الدفاع عن طهران كلما سنحت الفرصة، وهكذا عندما زار وزير خارجية فرنسا جان برنار ريمون دمشق في 11 و12 تشرين أول 1987، تولّى حكّام دمشق الدعوة إلى حوار الغرب مع إيران. وفي 30 كانون ثاني 1989 رغم الكراهية الشرسة التي تجعل المليشيات الشيعية اللبنانية الموالية لإيران والموالية لسورية في مواجهة دائمة استطاعت دمشق وطهران الوصول إلى فرض اتفاق وقف إطلاق النار بين أتباعهما. وهكذا فُضِّلت المصلحة العامة رغم إنّها غير كافية دائماً لمنع المواجهة بسبب العديد من حوادث سوء التفاهم وكثيراً ما تكون قاتلة، بين الفريقين.

والدراسة الواعية لخطب حافظ الأسد الموجهة للجمهورية الإسلامية – وسيكون من الأصح أن نسميها "إشارات قصيرة" لإيران– تظهر أنّها بخاصة ذات مغزى. وخارج إطار بعض الصيغ الفارغة مثل "الثورة الإيرانية حرّرت الشعب الإيراني الصديق من الطغيان، وسمحت له باستعادة مكانه الطبيعي بالتأكيد على مواقفه الطليعيّة"،[181]...

هذه الصيغ التي تصل تقريباً حدّ النكتة السوداء، لو لم يكن الموضوع شديد الخطورة، لا نشعر أبداً بأنّ لدى الأسد أيّة مصلحة للجمهورية الإسلامية، "نحن نناقش حكّامها ولكننا نتحاشى أيّ تدخّل في شؤونهم، على كلّ حال، أكّدت لنا إيران أنّه ليس لديها أيّة نية لمهاجمة دول الخليج.[182]

يوجز الرئيس السوري. في الحقيقة، العراق هو الذي يبقى دائماً في قلب انشغالاته ويحفظ له انتقاداته الأقسى. وإذا كان يشعر بنفور غريزي من صدام حسين، فهو ليس مستعداً كذلك أن يكتفي بسقوطه. إنّه يفكر بتدبير خليفة له بل ويفضّل بقاءه في السلطة على أن يساعد في إقامة جمهورية إسلامية عراقية، -مثلما تمنّى لفترة طويلة آيات الله في إيران-، وهو غير متأكد من أنّ حرب الخليج جعلته يغيّر آراءه.[183]

علويون وشيعة وإخوان مسلمون

كان هناك الكثير من الشرح والتعليق أيضاً على مصلحة حافظ الأسد، وهو من الطائفة العلوية، التي تحدرت (خرجت) من الطائفة الشيعية، في القدرة على الاستناد أو الاعتماد على دعم الإسلام الشيعي الإيراني. وصحيح في الواقع أنّه منذ العام 1980 تشير مبادرات صغيرة ولكنّها معبّرة، أنّ النظام السوري يعير بعض الإلتفات للثورة الإيرانية. وهكذا في صيف 1980، في القرداحة، مسقط رأس الرئيس اتّخذ قرارا أثناء اجتماع لأعيان العلويين الموالين للأسد، بإرسال مئتي طالب إلى مدينة قُمْ المقدّسة لكي يتخصّصوا بالمذهب الجعفري. و(جيرار ميشو) الذي ينقل هذه الطرْفة،[184] وهي مؤكّدة جزئياً فقط، يجد في هذا الأمر مشروعاً للنظام -السوري- ببناء محور شيعي في المنطقة، ممتد من لبنان إلى إيران".[185]

وبالنسبة للإخوان المسلمين السوريين يثير هذا الاتفاق المعقود بين دمشق وطهران بوضوح مشاكل نظرية جدّية، ويروي (ميشو) تصريحاً أعطي لمجلة الوطن العربي من عدنان سعدالدين أحد مسؤولي الإخوان... يقول فيه:

"فيما يخصّ الثورة الإيرانية أستطيع القول أنّها في بداياتها... وحتى خلال عهد الشاه كنّا نكنّ لها مودّة خاصّة بدون تحفظ (...)، ولكن بعدما وصلت إلى السلطة لم يحقق الخميني شيئاً مما أعلنه. النصوص الدستورية، البيانات، والمقالات تدلّل تماماً على أنّه اتبع طريقاً مخالفاً ذا طابع طائفي شديد الوضوح، ولقد صبرنا مدّة طويلة وأرسلنا وفداً بعد آخر وهمّنا حفظ علاقات حسنة. وعدّة مرّات وعَدَنا (محادثونا) و(محاورونا) بتصحيح موقفهم، مرجعين انحرافهم إلى تعدّد الميول داخل النظام الإيراني نفسه، ونقص المعلومات والظروف الصعبة التي مرّوا بها... الخ. ومن ثمّ رأيناهم يوطّدون تقاربهم مع نظام حافظ الأسد... قالوا لنا عندئذ: "لا نستطيع الاستمرار في حفظ الصلات بكم إذا تابعتم هجماتكم على حزب السلطة في سورية، متى تتوقفون عن تحريضكم ضدّ المسألة الطائفية؟ (...) والمعلومات التي وصلتنا تشير إلى أنّ الموقف متفجّر في إيران. والمعتدلون، والذي يبدو من الممكن الاتفاق معهم هم محاصرون (...). لسنا على استعداد لفتح حوار مع مثل هذا النظام المكتوب عليه الفشل مقدّماً، لأنّ الاعتبارات الطائفية تسيطر على ذهنيّة الحاكمين في موضوع قِيَمِ المنطق البسيط".(186)

كان هذا التصريح في نيسان 1982، وهذه المقابلة والحوار مفيد جداً فهو يظهر أولاً أنّ الإخوان المسلمين السوريين أساؤوا تقدير إمكانات حكّام إيران للبقاء في السلطة وصحيح أنّهم ليسوا الوحيدين –في هذا التقدير–. ويظهر أنّ آيات الله والملالي الآخرين في السلطة، ليسوا من المسلمين المتعصّبين الذين لا يستطيعون الوصول للحلول الوسط، فهم منذ تلك الفترة متمرّسون بالواقعية

السياسية. وبدون أيّ وهم عن النظام السوري، فهمت طهران تماماً أين هي مصالحها وأنّ باب الدخول إلى لبنان يمرّ إلزاميّاً بالإرادة الحسنة لحافظ الأسد.

خروجه من عزلته

سورية هي على خصومة عميقة ومستمرّة مع العراق، وعلاقاتها صحيحة ولكن لا حرارة فيها، مع إيران؛ وقطيعة شبه كاملة مع مصر والتي قطعت علاقاتها الدبلوماسية معها منذ زيارة أنور السادات الشهيرة إلى القدس في عام 1977، وعندما انتهى الصراع العراقي الإيراني وجدت سورية نفسها معزولة إلى حدٍ كبير على الساحة العربية. فالصلات التي تقيمها مع منظمة التحرير الفلسطينية تبقى كريهة، وهذا شيء متناقض بالنسبة لبلد يفخر بأنّه أفضل محامي للقضية الفلسطينية! وأخيراً في لبنان يتحدّى النظام السوري بصورة علنية الجنرال ميشيل عون الذي يقول بصوت عال ما يفكر فيه أغلب اللبنانيين.[187] والإعلان عن قيام مجلس التعاون العربي في شباط 1989 يضمّ العراق والأردن ومصر وشمال اليمن، بعد ثماني سنوات بالضبط لإنشاء مجلس التعاون الخليجي الذي يضم كلّ الإمارات والممالك البترولية، كلّ ذلك يشير بصورة متزايدة أيضاً إلى عزلة دمشق.

يضاف إلى ذلك تفسّخ سياسة أوروبا الشرقية، وبالدرجة الأولى منها الاتحاد السوفييتي، هذه البلبلة لا تترجم فقط في إقامة ديموقراطيات أصلية عمدت كلّ واحدة منها، بعد الأخرى إلى إعادة علاقاتها بإسرائيل، ولكن، وهو الأهم خسارة دمشق دعْم أهمّ دول المعسكر الاشتراكي. أمّا بالنسبة للزوجي: (إسرائيل–أميركا) فلن تستطيع سورية بعد الآن الوقوف أمام تحالف

(الزوجي) هذا مع موسكو. وكانت الأمور أكثر خطورة مع وصول السفير السوفيتي الجديد ألكسندر زوتوف إلى دمشق إذ صرّح بعد وصوله مباشرة لصحافيين أميركان أنّ حكومته تدفع الرئيس الأسد إلى التخلي عن هدفه لبلوغ التكافؤ الاستراتيجي مع الدولة اليهودية. والتكذيب الذي نشره بعد أيام قليلة -في آذار 1989- لم يقنع أحداً. والطريف في الحالة هذه أنّ جريدة البعث اليومية نشرت في نفس الفترة —نيسان 1989- مقالاً افتتاحياً موحى بوضوح من جهات عالية جداً تعبّر فيه عن تمنّياها بإعادة التحالف مع القاهرة والذي كان قائماً قبل أن توقّع مصر على اتفاق السلام مع إسرائيل.

في الواقع، تحسّنت العلاقات قليلاً جداً منذ شباط 1987، بعد شهر من القمة الإسلامية في الكويت. وخلال القمة قام الرئيس حسني مبارك بخطوة نحو من كان خلال الوحدة المصرية السورية طياراً مثله في القاعدة الجويّة بقرب القاهرة. وبعناق مفاجئ والحديث مع حافظ الأسد لعدّة دقائق بالرغم عن العداء القائم بين بلديهما، أطلق حسني مبارك عملية التصالح. ومنذ شباط 1987، أوقفت الصحافة المصرية والسورية شكواها، وفي تشرين ثاني — نوفمبر- 1987، وخلال القمّة العربية في عمان لم يعد أسد يعارض قراراً بتَرك لكلّ بلد عربي، إمكانية التحادث مع القاهرة. وفي أيار 1989، خلال قمّة الدار البيضاء، قدّمت سورية تنازلاً مهمّا جداً بعدم معارضتها لعودة مصر إلى حضن الجامعة العربية. ويعيد حسني مبارك (المصعد) بابتعاده عن مواقف العراق المعادية لسورية في لبنان. بل يصل إلى حدّ منع الأسلحة العراقية المرسلة للجنرال عون من المرور بمصر ممّا أثار حنق العراقيين، وكانت ردّة فعلهم في

اتخاذ تدابير ثأرية ضدّ مليون ونصف المليون مصري يعملون في العراق! وبعد ذلك سارت الأمور بسرعة كبيرة وأعاد البلدان في 27 كانون أول — ديسمبر– عام 1989، علاقاتهما الدبلوماسية. وتاريخ العلاقات السورية المصرية من عام 1977 إلى عام 1989 هي نموذجية، إذ أنّها تظهر جيداً أنّ السوري الأول رغم لغته الخشبية وجهره بالعقيدة... هو نقيض رجل الإيديولوجيا. والتصالح بين البلدين ليس ثمرة حلول وسط —فمصر لم تغيّر موقفها قيد أنملة من إسرائيل– ولكن نتيجة لهذه التغييرات التي حدثت على المسرحين العالمي والإقليمي. وكان للصحافة الدمشقية سنوات شتمت خلالها: (السادات الخائن) وفضحت السياسة المصرية التي باعت نفسها للإمبريالية الأمريكية و(حلفائها الصهاينة)، وأسد لم يتأخر في اتخاذ الخطوة، مثل كل أقرانه العرب، وانتهى بإعادة الجسور مع القاهرة.

على كل حال، ذوبان ثلج العلاقات مع القاهرة لم يسمح لسورية بالخروج من عزلتها فقط، بل يعطيها أيضاً إمكانية انضمامها للنادي المغلق نسبياً للبلاد التي تتمنّى اجتماع مؤتمر عالمي للسلام في الشرق الأدنى مؤتمر تكون فيه بصورة طبيعية طرفاً فاعلاً–قابضاً–. والأسد الذي يستطيع بعضهم بخبث وَصْفَهُ بأنّه الرجل ذو الهاجسين —الوسواسين–[188] إسرائيل[189] وإبقاء نفسه في السلطة، لم ينس أبداً إذلال عام 1967 وإذا كان هناك أيّ شيء يجعله مستعداً لتقديم تنازلات هائلة فهو استعادة هضبة الجولان. ولكن الأسد يعرف أيضاً أنّ العرب لن يستطيعوا أبداً الوصول لذلك عن طريق قوّة السلاح فقط. لذلك قبل دائماً أو على الأقل قبل بسرعة كبيرة مبدأ مؤتمر السلام حول الشرق الأدنى، ولهذا

السبب أيضاً قَبلَ بسرعة كبيرة بالقرار 242 لمجلس الأمن بعد استلامه السلطة ثم بعد حرب تشرين أول –أكتوبر– 1973 قَبِلَ بالقرار 338.

وتحسين العلاقات مع مصر تزامن مع بعض الانفراج في العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية. وفي عامي 1989 و 1990 ضاعفت سورية الجهود لإطلاق سراح (الرهائن) الأمريكيين. فالزمر الإرهابية المعادية لأميركا مراقبة عن قرب. وبالمقابل الدبلوماسيون الأميركان في لبنان لا يترددون في دعم الدور الذي تلعبه سورية وفضْح التحركات المغامرة للجنرال عون. وهكذا أبدت واشنطن بوضوح أنّها مع اتفاقات الطائف في تشرين أول 1989.

غزو الكويت... فرصة مواتية للأسد

توقيت غزو العراق المباغت للكويت كان أفضل ما يرغب الأسد فيه. وكان الأسد على وعي تام بشعبية منافسه العراقي المُشَنِّع عليه، وكان الرئيس السوري يعلم أنّه يلامس الديناميت، ومن المفارقة أن تظهر أجهزة الإعلام الدمشقية تحفّظاً غير عادي تجاه العراق، وإذا كان الأسد لم يتردّد في وصف غزو الكويت (بالغلطة التي لا تغتفر) و"(بالكارثة الفظيعة)" على كلّ الشعب إلا أنّه أضاف رأساً بعد ذلك: "إنّه لا يدعم أيّ وجود لقوات أجنبية في الخليج؛ على العكس، يتابع الأسد، إنّ وجود الأجانب هو سبب إضافي لكي يرسل العرب قواتهم للخليج، في المملكة العربية السعودية وفي دول الخليج الأخرى، إذا طلبت هذا الدول ذلك". فبالنسبة للأسد أساس المشكلة هو احتلال العراق للكويت وليس وجود القوات الغربية. ولكن ما أن مضت العواطف ووُضع مثيرو الشغب، حيث يجب أن يكونوا[190]، يتوجّه الأسد إلى

الأمر الجوهري. يحتاج أولاً أن يتأكد أنّ إيران التي تودّد إليها العراق بأسلوب فجّ ومن أجل أن يكسب الحياد والعطف من هذه الجارة الكبيرة، أرضاها كليا فيما يخصّ النـــزاعات الحدودية، ستحترم قرار العقوبات التي فرضها مجلس الأمن. وتتابعت زيارة الوزراء الإيرانيين والسوريين إلى البلدين حتى أنّ الرئيس الأسد زار للمرّة الأولى في حياته، طهران، من 22 إلى 25 أيلول – سبتمبر– 1990. وهو الذي لم يضع رجله في العاصمة الإيرانية طيلة الصراع العراقي الإيراني لأنّه خشي جداً من تغيير مفاجئ في التحالفات. ولكن إذا اختلف الأسد ومضيفوه حول الأوليات في هذه الازمة –الإيرانيون يطلبون الرحيل الآني للقوات الأجنبية– إلا أنّ الجميع اتفقوا على أن ينسحب العراق بدون شروط من الكويت. ويعود الأسد إلى دمشق وهو مطمئن نوعاً ما. فللإيرانيين، كما قيل، كلّ المصلحة في احترام الحصار الاقتصادي على العراق– إذا أرادوا متابعة التحسّن في علاقاتهم مع الغربيين. من جهة أخرى يعلم الرئيس الإيراني رفْسنجاني أنّ غالبية السكان –في إيران– لن يفهموا كيف يصبح عدو الأمس العنيد في أسابيع عدّة حليفاً في مواجهة الشيطان الأمريكي الأكبر.

أخيراً إنّ حرب الخليج قدَّم إلى حافظ الأسد ميّزتين أخريين على الأقل. فمن جهة، تحسّن كبير في أوضاع سورية المالية التي رأت الهبات والقروض تنـــزل عليها من العالم العربي كما من العالم الغربي. وهكذا في شهر كانون الثاني وشباط من عام 1991م بدأت اليابان ثم الاتحاد الاقتصادي الأوروبي ثم ألمانيا كلّ بدوره قرّر إعطاء سورية بالتتالي: (250) مليون دولار و(75)

مليون دولار و(200) مليون دولار. وقبل ذلك أعادت الإمارات والممالك البترولية مساعداتها الكبيرة، وقدّر الخبراء مجموعها في آذار —مارس- عام 1991 بمليارين من الدولارات التي استلمتها دمشق من هذه الدول خلال الأشهر السبعة الماضية...[191]

من جهة أخرى، انتصر الأسد على الصعيد السياسي الدبلوماسـي؛ ألم يُثْبتْ بتحذيـراته المتكـرّرة لدول الخليج البترولية الصغيرة خطر توسّع العراق؟ ثم يلاحظ بخاصّة رضىً عميقاً، لأنّه لا يمكن مطالبة بغداد بتطبيق كلّ قرارات مجلس الأمن دون الطلب، بصورة منطقية من إسرائيل أن تُبدي بدورها نفس (حسـن النيّـة). بالتأكيد من الممكن لهذه اللعبة الصغيرة أن تصبح خطرة إذ هناك العديد من الناس الذين يعتقدون أنّ سورية هي أيضاً قوّة محتلة في لبنان. والمقارنة ليست على كلّ حال سبباً، ويستطيع الأسد بصورة صحيحة أن يردّ إنّ بـلاده لم تقم إلا بتلبية طلب السلطات اللبنانية. على كل حال سـكوت أغلب الحكومات الغربية وعدم مبالاة الصحافة الأنكلوساكسونية هي إشارات مُطَمئِنة... للرئيس السوري.

وهكذا في الوقت الذي كُتِبَتْ فيه هذه السطور كان سكرتير نظارة الخارجية الأمريكية جيمس بيكر في دمشق ويستطيع الرئيس السوري حسب تعبير جريدة (لوموند) أن يستمتع سراً بما بعد الحرب".[192] وبعكس مصر التي دخل خزانتها بعض الفوائد لموقفها الموالي للغرب مع إلغاء ديونها العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية —ما يقرب من سبع مليارات من

الدولارات– فإنّ سورية تنتظر الآن من التحالف أن يرسل لها (الدعم). لأنّها لم ترسل فقط عشرين ألــــف عسكري للعربية السعودية والذين نجحـــوا في الواقع في ألا يتكلّم أبداً عنهم أحد، ولكن حافظ الأسد استثمر شخصياً هذه الأحداث؛ فهو الذي لم تطأ قدمه إيران خـــلال ثماني سنوات من حربها مع العراق، اتجه إلى طهران ليتأكد من (حياد) حليفه القديم. من ناحية ثانية لقد أفهم بالطريقة الأكثر حَزماً ممثلي كلّ المنظمات الفلسطينية التي تعيش في دمشق إنّه لا يحتمل خلال كل الفترة عمليات ضدّ الغربيين لا في الشرق الأدنى ولا في بقية أنحاء العالم. ولقد قُدِّرت جهوده عالياً في واشنطن ولندن وباريس، ولكن بأية طريقة يمكن للغرب أن يدفع ديونه له؟

لكي لا يُتهم بأنّه يريد توقيع اتفاق منفصل، ورغم رغبته القوية جداً في استعادة هضبة الجولان التي لم "يهضم" أبداً ضياعها منه، لن يكون بالتأكيد الفارس الوحيد. فعودة الجولان إلى السيادة السورية لن تكون حسب رأيه إلا في إطار اتفاق شامل يأتي خصوصاً بحلّ للمشكلة الفلسطينية. وإذا صدقنا بعض الكتاب السوريين الذين وقّعوا بيان دعم للعراق خلال حرب الخليج، كان حافظ الأسد يأمل أن يُستَمَع إليه، ألم يقل لأحد مستشاريه، جبران كورية أنّ هؤلاء الكتّاب سيندمون لوضع تواقيعهم على مثل هذا البيان، مُلَمِّحاً ضمناً أنّ نتيجة الأحداث ستثبت لهم إنّهم كانوا على خطأ وأنّ سورية ستستفيد في كل الأحوال من بصيرة رئيسها السياسية؟.[192] وإذا وثقنا بالملاحظات التي تنسبها له –للأسد– حاشيته والتي نشرت في

آذار 1991 بالجريدة الموالية للسعوديين والصادرة في لندن –الحياة– فإنّه لا يهتم أبداً بعمق المشاعر الموالية للعراق في الشعب السوري: فمع ارتفاع سعر الليرة السورية بسبب تدفّق أموال الخليج قال ما معناه: سيتوقّف السوريون بسرعة عن بكائهم على بؤس العراقيين...

دمشق، موسكو، واشنطن وباريس

"الصديق السوفييتي"

"الدبلوماسية الأمريكية تتصف بغباء نادر. والولايات المتحدة لا تفهم شيئاً من أيّ شيء. كانت ترى في سورية ذيلاً سوفيتياً مثل بولونيا. لم تفهم البُعد القومي للسلطة السورية". هذه آراء دبلوماسي فرنسي يحلل أمام مجموعة من الصحفيين، بعد أسابيع قليلة من مرض حافظ الأسد خلال شتاء 1984/1983، نتائج غياب محتمل للرئيس السوري، ومستنكراً بحقّ الخطأ الذي ارتكبه كلّ الغربيين تقريباً الذين لا يتصوّرون -ولم يتصوروا قطّ- سورية إلا كرأس جسر سوفييتي في الشرق الأدنى. من المؤكّد، أنّه منذ عهد غورباتشوف، هذا الرأي هو أبعد ما يكون عن الواقع، ولقد رأينا في الصفحات السابقة أنّ عودة التلاقي مع مصر، كذلك الانفراج مع الولايات المتحدة له تفسيره إلى حدٍ كبير في ضياع مصداقية الاتحاد السوفييتي في عيون حافظ الأسد. ولكن حتى خلال الفترة من عام 1970 إلى عام 1986 حيث دافع ميخائيل غورباتشوف بوضوح وصراحة شديدين للمرة الأخيرة عن النظام في سوريا ضد محاولات التهديد الإسرائيلية، فالمظاهر... خدّاعة. بالتأكيد لم تتوقّف أجهزة الإعلام السورية خلال هذه السنوات الخمس عشرة عن مداهنة (الصديق السوفييتي) فالخُطبُ الرئاسية كانت مملوءة بالثقوب المزعجة أكثر ممّا هي مقنعة: "الصداقة العربية السوفيتية تنمو باستمرار. مثل

هذه الصداقة التي يضاف إليها تعاون سليم، الأمانة والاحترام والثقة المتبادلة تشكل الأسس الثابتة التي ترتكز عليها العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وسورية"[194]، ربما كان ذلك اليوم أقلّ إلهاماً للرئيس، أو أنّه لم يكن موهوباً كثيراً بالنسبة لاستشراف المستقبل، لأنّه لم يتردد في تحديد الأمر للرأي العام العريض في البلد: "سنطوّر كذلك علاقاتنا وتعاوننا مع الدول الاشتراكية الأخرى. هذا هو قرارنا!".

ولكن لم يكن لهذه التصاريح من هدف آخر سوى تطمين قسم الصحافة والإعلام في السفارة السوفيتية الضخمة في دمشق، وهذا القسم دون شك لا يتغذّى بأي وهم عن حبّ الشعب السوري للشعب السوفييتي الباسل... فالواقع أنّ حافظ الأسد وضع (أصدقاءه) السوفييت دائماً، تقريباً، أمام الأمر الواقع. ففي تشرين 1973 لم يكن لدى السوفييت أيّة ثقة في الجيشين المصري والسوري، والاحتمال وارد أيضاً في أنّهم فوجئوا مثل الأمريكيين في بدء الحرب. وفي حزيران 1976، أدخل أسد قوّاته إلى لبنان دون إخطار الكرملن. ربّما كان الأمر أكثر احتمالاً أنّ الأخير (الكرملن) كان معارضاً لعملية موجّهة ضدّ المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني. وعام 1981 أعطى الرئيس السوري الأوامر لبعض وحداته بوضع صواريخ أرض جو في سهل البقاع، ممّا أدّى إلى السفر السريع للسفير السوفييتي في دمشق إلى موسكو وإلى نقاشاتٍ حيويّة بين الطرفين.

ومع ذلك، بعد الانهيار المفاجئ عام 1982، حيث لم تستطع القوات السورية القيام بمقاومة جادّة للمجتاحين الإسرائيليين، وَعَى السوفييت ضرورة

"بذل الجهد" لاستعادة هيبتهم المخترقة!؛ وموت (ليونيد بريجنيف) ووصول (أندرو پوف) الأكثر استعداداً من سلفه بالنسبة لدمشق غيّر كلياً معطيات الموقف. وحَسَبَ ما رَوَى (پاتريك سيل) عن الجنرال مصطفى طلاس، ينسى الرئيس السوفييتي كلّ اعتراضات وزير الخارجية (أندريه غروميكو) ووزير الدفاع (أستينوف) اللذين قرّرا ألا يزوّدا سورية بأسلحة متطورة جداً، "خذوها من مخازن الجيش الأحمر، لن أسمح لأيّة قوّة في العالم بتهديد سورية!". وهكذا، والرواية لا تزال لباتريك سيل، زاد عدد أفراد الجيش السوري من عام 1982 إلى العام 1986 من (225.000) ألف إلى (400.000) أربعمئة ألف رجل. وارتفع عدد المدرّعات من 3.200 إلى 4.400 وعدد الطائرات المقاتلة من 440 إلى 650، وأخيراً مراكز الدفاع الجوي من (100) إلى (180).[195] وللمرة الأولى في العالم الثالث، حَصَلَ بلد هو سورية بداية عام 1983 على صواريخ أرض أرض (ss21) والتي دخلت قبل سنة فقط بلاد حلف وارسو. وصاروخ ضدّ القطع البحرية(ss -1)، سُلّم تقريباً في نفس الوقت للمرة الأولى أيضاً للنظام السوري، فوفّر له دفاعاً حقيقياً للسواحل. وأخيراً، رَكّب السوفييت كذلك نظاماً كاملاً للدفاع الجوّي يضمّ بطـــاريات (SAM -5) بخاصّة، وهي التي تُزوّد للمرة الأولى خارج أوروبا والاتحاد السوفييتي، ورادارات وأنظمة أخرى للاستكشاف الإلكتروني ذي حساسية خاصّة. ومن الآثار غير المباشرة لهذاالاتفاق العسكري وجوب أن تشتري دمشق ثلاث طائرات (توبوليف Tupolev 154-S) وإلغاء طلب ثلاث طائرات بوينغ 757 كان الرئيس متمسّكاً بها بخاصة... ولكن وللمرة

الأولى أيضاً منذ استلامه السلطة، أُجبر الأسد علىالاهتمام بالخبراء العسكريين السوفييت، والذين تضاعف عددهم ما بين عام 1982 و1987 ليبلغ تقريباً الستّة آلاف (6000). ولم يعد باستطاعة الرئيس إعلان الحرب على أيّ من جيرانه دون أن يحسب حساب وجهة نظر موسكو في الأمر. وبعد عدّة سنوات من التردّد وسببه الأساسي العلاقات الطيّبة التي عرف هنري كيسنجر إقامتها مع حافظ الأسد بعد حرب تشرين –أكتوبر– 1973 مباشرة، عادت الصلات السوفيتية –السورية التي كانت آنذاك باردة بوضوح، عادت بعزم جديد بعد زيارة أنور السادات للقدس، وتوقيع اتفاقيات (كامب ديفيد) في أيلول 1987.

وهذه الأخيرة شكّلت في الواقع تحدّياً حقيقياً للرئيس السوري على مستوى الحقوق الدوليّة وكذلك إثارة حقيقية لسورية من طرف الولايات المتحدة. وكما كتب زهير ميداني وكان آنذاك نقيب محامي دمشق "الاتفاقيات المذكورة تناقض البند (3) من القرار 338 لمجلس الأمن الذي اقترح دعوة كلّ الأطراف المهتمة بنــزاع الشرق الأدنى إلى مؤتمر للسلام سيُعقد برعاية الأمم لمتحدة ومعها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي".

وبالنسبة لحافظ الأسد "اتفاقات العار هذه" هي من ناحية أخرى مناقضة تماماً لاتفاق الدفاع العربي المشترك، ومعاهدة الوحدة للبلاد العربية والاتفاقات الثقافية والعسكرية والاقتصادية التي وُقّعت بين مصر وسورية. وهذه الأخيرة أعادت منذ العام 1978 علاقات مُناسبة مع المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني، وليس هناك إذن أيّ شيء يُعارض تطبيع العلاقات مع الاتحاد

السوفييتي. وهذا الانفراج أدّى إلى توقيع البلدين في تشرين أول –أكتوبر- 1980 على معاهدة صداقة وتعاون.

وعلى كلٍّ، سنوات الثمانينات كانت الفترة التي نجد فيها التفتّح الكامل للعلاقات الثنائية. والتعاون الاقتصادي كان في الواقع لافتاً للنظر. فالكرملن هو الذي يبني السدود الهيدروليكية الصغيرة على الفرات والتي افتتحت في تشرين أول –أكتوبر- 1986، وهو الذي رَكّب عدّة مئات الكيلومترات من خطوط السكك الحديدية وهو الذي يستثمر المناطق البترولية ويستصلح الأراضي ويوسّع ميناء اللاذقية ويستعدّ لاستثمار مناجم الفوسفات.

وإضافةً للعديد من العسكريين هناك آلاف الطلبة السوريين الذين يتابعون دراساتهم في بلاد لينين أو في الديموقراطيات الشعبية. وأخيراً وليس آخراً في هذه اللائحة غير التامة، طيار سوري، محمد فارس، كان العربي الثاني الذي جال، بعد الأمير السعودي سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز (على متن مركبة أمريكية في الفضاء)، وكان ذلك في آب 1987 على متن (سويوز TM3) السوفيتيّة.

ومن نافلة القول أن نذكر أنّ الشعب السوري فسّر، بطريقته الخاصّة، "لفتة الصداقة المدهشة" كما تشهد بذلك (النكتة) التالية:

بعد استقباله استقبالاً حماسياً عند عودته إلى دمشق، دُعيَ محمد فارس لملاقاة الرئيس الأسد ليسأله إذا كان كلّ شيء على ما يرام.

– تماماً سيدي الرئيس.

- ولكن لِمَ هذه الضمادة الكبيرة على يَدِك اليمنى؟

- آه... هذا لا شيء.

- ولكن... لماذا؟

- آ... آ... كلّ مرّة أردت فيها أن أضغط على زر... كان الروس يضربونني على أصابعي!

والنظام في تلك الفترة، بما عرف عنه من ذوق حسن،! لم يجد أفضل من تعليق أحرف من النيون العملاقة على جبل قاسيون الذي يُشرف على دمشق: "الفضاء هو ملاذ الأسد" وكان انقطاع التيار الكهربائي متواتراً، وباستطاعة أهل دمشق أن يعتزّوا بهذا الشعار الذي لا ينطفئ أبداً!

سوريون... بلا أوهام

على كلٍّ، هذا التعاون على كلّ صعيد... يجب ألا يخلقَ أيّ وهم. فالسوفييات، حسب القول الخبيث للوزير المصري بطرس بطرس غالي، ليس لديهم إلا (فقرهم) لتصديره، ليسوا محبوبين في سورية أكثر ممّا هم (محبوبين) في باقي العالم العربي. إنّهم لا يختلطون إلا قليلاً بالسّكان المحليّين ويتحاشونهم لأسباب مختلفة معترف بها إلى حدّ ما، والروس كانوا دائماً يحسبون بعناية مساعداتهم وينتظرون في أغلب الأحيان أن يقبضوا ثمنها بالقطع النادرة. ويتحاشى السوفييت كلّ عمل سياسي أو دعائي، ويستقرّون في قواعدهم وأشهرها في حمص والضْمير، اللّتين كانتا القاعدتين الشهيرتين لصواريخ (سام - 5)، كما رأينا. ولكن، على رأي الخبراء الغربيّين يحتاج السوريون إلى أكثر

من ذلك بكثير لِرَدْعِ إسرائيل. والواقع أنّ الردع يأتي بكل بساطة من الوجود السوفييتي في سورية كما أعلنه بأسلوب فجّ ضابط سوري للدبلوماسيّين والذي ذكرناه قبلاً: "إذا أراد الإسرائيليون الآن مهاجمتنا، يجب عليهم أن يقتلوا روساً!".

في السياق الحالي، الانفراج الذي قاد الدول التابعة لموسكو لإعادة علاقاتها الدبلوماسية مع الدولة العبرية، والاتحاد السوفييتي نفسه، لإعادة النظر في خلافاته مع القدس... مثل هذا الاحتمال مستبعد كليّاً. فالإسرائيليون بالفعل ما عليهم إلا أن يُسَرّوا بموت (ميخائيل غورباتشوف) الذي، بعد فتْحه مجدداً أبواب هجرة اليهود السوفييت، سمح لهم بالتعويض بل أكثر من ذلك، عن الهجرة المعاكسة لمواطني إسرائيل الخائبين من حياهم اليومية، وبخاصة الكفاح الأفضل في مواجهة نسبة النمو السكاني الديموغرافي المرتفع جداً للفلسطينيين. والمؤكّد أنّ الوجه الآخر لهذا الموضوع ليس برّاقاً أبداً، فإذا كان معلوماً أنّ الغالبية العظمى لليهود السوفييت -أكثر من مئة ألف وصلوا إسرائيل في الشهور التسعة الأولى للعام 1990- يوجدون في إسرائيل فلأنّ الولايات المتحدة من جهة مارست ضغوطاً قويّة على الكرملن ليترك الحرية للجالية اليهودية للسفر، ومن جهة أخرى خفضت بصورة جذرية (كوتا) اليهود السوفييت المقبولين على الأرض الأمريكية. هذه الهجرة الإجبارية نحو إسرائيل التي هي أيضاً أكثر خزياً في عيون العرب لأنّ حق العودة لا يزال مرفوضاً لمئات ألوف الفلسطينيين اللاجئين الذين يعيشون البؤس في مخيّمات الأردن ولبنان؛ وهذا ما يسهم إلى حدٍ كبير في تسميم العلاقات بين موسكو

ودمشق. وفي السابع من آذار 1990 في خطاب متَلْفَزْ ومذاع للأسد بمناسبة العيد السابع والعشرين لوصول البعث إلى السلطة في سورية، وبعدما أكّد أنّ إسرائيل "هي الرابح الأكبر" من التغيرات التي حدثت في الدول الاشتراكية، قرع جرس الإنذار بالنسبة لليهود السوفييت. واتهم الولايات المتحدة "بِبَذْلها منذ مدّة طويلة، جهوداً مكثّفة لمصلحة الضغوط اللازمة بكلّ الوسائل المتاحة، وبتحديدها (كوتا) اليهود الذين تستقبلهم على أرضها". ففي رأي الأسد "حق الحرية للهجرة يعني في هذه الحالة بالتحديد، العدوان، والحرية لاحتلال أرض الغير وطَرْدِهم من بيوتهم".

ويقابل الرئيس السوري الحظّ السّيئ بقلب طيّب، فيؤكّد مع ذلك، (ثبات) العلاقات بين البلدين؛ "لن نسمح، كما قال، للعلاقات الثنائية بالتجمّد فلسنا على كلّ حال شعباً ناكراً للجميل بالنسبة للاتحاد السوفييتي الذي حمل لنا سنداً أساسياً في مواجهة العدوان". وبعد شهر ونصف من عودته من موسكو حيث كان في زيارة رسمية، هنّأ حافظ الأسد نفسه في تصريح للصحفيين المصريين(196) لأنّ الاتحاد السوفييتي يستمرّ بتوفير السلاح لبلده. ولكنه يضيف رأساً: "من الطبيعي أن يظهر تفاوت في تقدير كمية ونوعيّة السلاح المقدّم ولكن المساعدات السوفييتية لن تتوقف". فهل كان رئيس الدولة في سورية يشير إلى رفْض السوفييت تسليمه الصاروخ أرض أرض 2355- ومداه 500 كيلومتراً ومن الدقّة بحيث لا يبتعد عن هدفه إلا بمئتي أو ثلاثمئة متر؟ لا أحد يدري. ويبدو، بالمقابل، أنّ الكرملن، المهتم بأن يكون شريكاً كاملاً في مؤتمر دولي محتمل للسلام، قرّر منذ سنوات عدّة

التركيز على الإمكانات الدفاعية لسورية. (الكسندر زوتوف) السفير السوفييتي في دمشق، ردّد هكذا في مناسبات عدّة أنّ بلده مستعد لضمان أمن سورية لأنّه يجب أن يكون لهذا البلد إمكانات دفاعية صلبة طالما لم يظهر أيّ حلّ حتّى الآن في المنطقة.[197]

ويجب الملاحظة في هذا الموضوع أنّ الاتفاقات الثنائية، والضمانات السوفييتية لا تطبّق إلا داخل الأراضي السورية. وبتعبير آخر لم يكن لدى موسكو أبداً النيّة للتدخل مباشرة في إسرائيل أو لبنان أو غيرها.

وحول ضرورة وجود علاقات صحيحة، إن لم تكن جيّدة، مع الاتحاد السوفييتي هناك إجماع في سورية، ومن المستبعد أن نشاهد في المدَيَيْن القصير والمتوسط إعادة ما حدث عام 1972 في مصر عندما طرد السادات خمسة عشر ألف (15000) مستشار سوفييتي. كلّ التشكيلات السياسية هي في الواقع موافقة إلى حد ما وبشكل منفتح على علاقات جيّدة مع موسكو، بما في ذلك الإخوان المسلمون إذا صدّقنا الرواية التالية: في بداية عام 1986، حصل لقاء في إحدى العواصم الأوروبية بين ممثلي عدّة أحزاب علمانية من المعارضة السورية والسكرتير العام للإخوان المسلمين في سورية عدنان سعدالدين، وطلب هذا الأخير أن لا يظهر في بيان مشترك جملة تتعلّق بالصداقة السورية السوفييتية "حتى لا تنـــزعج، كما قال، الدولة الوهابية لآل سعود"، ثم قدّم بعد ذلك التعليق التالي: "على كلّ حال، ليس لنا خيار، ماذا سنصبح، كما قال، إذا توقّف السوفييت عن تزويدنا بالسلاح؟ وختم بقوله ألا تسيطر إسرائيل، بخاصة، على كلّ المنطقة".[198]

والمصدر الآخر للاحتكاك بين البلدين كان، ولمدة طويلة، المسألة الفلسطينية. وبدون الرجوع إلى قيام دولة إسرائيل، التي اعترفت بها رأساً موسكو فالاختلافات الأوّلية بين الأسد والقيادة السوفييتية جاءت لحظة دخول الجنود السوريين إلى لبنان في حزيران 1976 لدحر الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين. والكرملن الذي لم يُستشر في الموضوع كما رأينا كان غاضباً جدّاً، ولكنّه لم يقل شيئاً. بل إنّه لن يتكلّم أبداً خلال عشر سنين. وبخاصة خلال الحصار القاسي لطرابلس في شمال لبنان في كانون أول 1983؛ فقط في عام 1986 بعد سنين من التأجيل والمماطلة وتحت ضغط المنظمات الفلسطينية القريبة جداً –من الكرملن– مثل الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين لنايف حواتمة، تدخّل السوفييت مع الجنرال الأسد كي يتحاشوا مذابح جديدة في لبنان حيث الشيعة الموالون لسورية كانوا يقصفون بوحشية مخيّمات اللاجئين. ميخائيل غورباتشوف، وكان يومها السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي أبلغهم بجفاء عدم رضاه في 26 نيسان، وبعد شهرين عبّر عن نفس الشعور وزير خارجيته (إدوارد شفرنادزه) لمثيله السوري فاروق الشرع. وخلال تلك الفترة حدثت اتصالات في الواقع بين السوريين والفلسطينيين في ليماسول بقبرص و لم تسفر عن شيئ.

على كلّ حال، إذا لم يصل السوفييت إلى إقناع حلفائهم السوريين بالتصالح مع م. ت. ف. إلا أنّهم لا يختلفون معهم على الخطوط العريضة لاتفاق سلام. ومنذ أن قَبِلَ حافظ الأسد في بدايات السبعينات القرار الدولي -242-، دافع البلدان عن مبدأ (أساسي) وهو «عدم قبول العدوان والاستيلاء

بالقوة على أراضي الغير". وما دام هناك عدم احترام لهذا المبدأ لن يكون هناك سلام. كذلك أغلب البيانات المشتركة تؤكّد على أنّ الأزمة لن تحلّ "باتفاقات جزئية ومنفصلة"، لذا فاتفاقات كامب ديفيد ونتائجها هي مرفوضة كليّاً. في كلّ الأمور الباقية، سواء كان الأمر في لبنان، في النـــزاع العراقي الإيراني، أو في وحدة العالم العربي أو الإرهاب تحتفظ دمشق في الواقع بساحة عريضة للعمل كما ترغب.

وإذا كان هناك في الماضي صداقة بين البلدين فلقد اختفى هذا الشعور اليوم. وإذا كان حافظ الأسد يحذَر من التغيرات السياسية المفاجئة كما يحذر من الطاعون، فإنّه تلقى بوجوم (الكلاسْنوسْتْ) و(البريسْترويكا)، الفكرتان اللتان كانتا دائماً على النقيض من مفهومه للسلطة. لم يجد الأسد أيّة مصلحة، بل ارتياباً شديداً، في كلّ تجربة ديموقراطية أصيلة، لذا حكم بطريقة سلبية جداً على تطور الاتحاد السوفييتي في تلك السنوات الأخيرة التي لم تأت، حسب رأيه، إلا بخيبات للعالم العربي.

فبالنسبة للرئيس السوري الاتحاد السوفييتي في عهد غورباتشوف هو اليوم غير بعيد من كونه لعبة في أيدي أميركا، والفوضى التي تسود في العديد من جمهوريات الاتحاد السوفييتي تمنعه بكلّ طريقة من ادّعائه لَعِبَ دورٍ أوّلي في الشرق الأدنى أو في الخليج الفارسي. لهذا عمد الأسد، كرجل واقعي متحرّر من أيّ وهم، إلى التقرّب من الولايات المتحدة وأعاد العلاقات الطبيعية مع مصر التي لم تجد لها أجهزة إعلامه، قبل عدّة سنوات، إلا أوصافاً شديدة القسوة.

صلات عاطفية

إذا خلت العلاقات السوفييتية السورية من الدفء بخاصّة لأنّها كانت لفترة طويلة تعبيراً عن نظامين لا يعملان إلا عن طريق عروض القوّة، فالعلاقات السورية الأمريكية هي أكثر عاطفيّة بكثير. عشرات آلاف السوريين هاجروا للولايات المتحدة منذ بدايات القرن العشرين وربما تسارعت الحركة في هذا الاتجاه بنهاية الخمسينات: أطباء وباحثون، وتجار وجدوا في العالم الجديد جوّاً من الحرية وشروط عمل لم تكن موجودة أو ليست موجودة الآن في سورية. فبالنسبة للأطفال ذوي المواهب في هذا الشعب القديم كانت أميركا أحياناً كثيرة، المثل الأعلى.

وعلى العكس لقّحت طريقة الحياة الأمريكية اليوم الحياة السورية، فشركة الخطوط الجوية السورية تستعمل طائرات أمريكية وليست روسية، في الأساس؛[199] وسلسلة الفنادق الأمريكية الكبيرة لها واجهاتها على شوارع دمشق أو غيرها من المدن السورية، وبدون احتكار شاشات التلفزة، الأفلام الأمريكية موجودة بكثرة أيضاً وهناك فئة غير قليلة من السوريين الذين يشربون الكوكاكولا ويدخنون سجائر (مارلبورو) مفضّلينها على التبغ المحلي؛ وإذا كان لديهم المال الكافي أيضاً مثل إخوانهم في شبه الجزيرة العربية، يحبّون قيادة سيارات أمريكية ذات المضخات الكبيرة. ومع ذلك هناك سوء تفاهم كبير بين البلدين: نوع من الحب الخائب والمسؤولية في ذلك تعود لسياسة واشنطن الموالية لإسرائيل بدون تحفظ، كما تعود لطريقة حكْم النظام السوري الحالي. وفي خطابات الأسد، على الأقل التي ألقاها منذ العام 1977

فقد استُبْعِدت بلاده من تسوية الشرق الأدنى؛ ويعبّر الأسد بطريقته وبشكل حاد عن هذا الكسر (الخلع): "الولايات المتحدة هي العدو المميت لشعبنا وللأمّة العربية ووحدها (...). هدف الإمبريالية الأمريكية هي تكريس الاحتلال الإسرائيلي ليسمح لإسرائيل بالبقاء كإحدى قواعده لتهديد المنطقة وإبادة كلّ حركة من أجل التحرر (...). اتهامنا الأساسي الذي نصوغه تجاههم هو أنّ دور الولايات المتحدة لا يتناسب مع مسؤولياتها الخاصة في الشرق الأوسط، ولا حتى مع مصالحها، وبدرجة أقل مع مبادئ العدالة التي كافح من أجلها الشعب الأمريكي".[200]

في كل خطاب من خطابات الرئيس يعود ذكر (الحلف الإمبريالي الصهيوني) كفكرة مهيمنة: "نقول لهم –للولايات المتحدة– ما يهددنا هو اصطفافكم الكامل ودعمكم غير المحدود بالمال والسلاح والسياسة لإسرائيل. (...) الولايات المتحدة هي إلى جانب إسرائيل بصورة كاملة مما لا يسمح لها بلَعِبِ دور بنّاء في أزمة الشرق الأوسط".[201]

وبالنسبة لحافظ الأسد: الحل بسيط: "لكونها قوّة عظمى، على الولايات المتحدة أن تبقى على الحياد التام تجاه مشاكل المنطقة". ثم يضيف نريد أيضاً، أن يبقى يهود أميركا –حصراً– أمريكيين مثل المسيحيين والمسلمين الأميركان.

في هذه الحالة فقط تستطيع الولايات المتحدة أن ترى الأشياء بموضوعية وتعمل من أجل سلام حقيقي".[202] وعند أدائه القسم في 20 آذار 1984 أمام مجلس الوزراء كشف الأسد أنّه تلقّى "رسالة تهديد" من الرئيس رونالْدْ

ريغان. وفي هذه الرسالة يتابع الأسد، كتب الرئيس ريغان "إنّ سورية تخيف لبنان وأن الولايات المتحدة ستضرب، حتى داخل سورية، كل من يهدد الشرعية في لبنان". ولقد جاءت رسالة ريغان بعد عدّة أيّام من تدمير مركز القيادة الأمريكية في بيروت الغربية، في 23 تشرين أول -أكتوبر- 1983، مما أثار سخرية الأسد "نحن لسنا قلقين عندما تقولون لنا أنكم ستضربون مناطقنا لأنّ لدينا الوسائل للرد وبدورنا سنضربكم جواً وبحراً وأرضاً". ثم يختم بقوله: "الخطأ الفادح للولايات المتحدة أنّها جاءت حاملةً السياسة الإسرائيلية، وليس سياستها الخاصة كقوة عظمى مسؤولة ولها مصالحها الخاصة، نريد علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة، أي التي تضع في حسابها طموحات شعبنا".

والخطابات على كلّ حال ليس لها علاقة كبيرة بالواقع... إلى حدّ أنّ عُنفَ الخطاب ليس له من هدف إلا خداع الرأي العام الذي لا يفهم جيداً التغيير المتكرر جداً في التوجّهات السياسية -والحقيقة ألاّ أحد يعيرها أيّ اهتمام- ليس هناك قطّ إلا خطابا موالياً للأميركان، والذي لا يُفاجئ لا الأميركان الذين يعرفون أنّ الأمور الأساسية تجري في مكان آخر، ولا حتّى الشعب السوري الذي تعب من هذه الحذلقات المتفاخرة. والأسد، الأمين دائماً لسياسته في عدم وضْع كلّ بيضه في سلّة واحدة، عرف دائماً كيف يحتفظ باتصالاته مع واشنطن حتى في فترات التوتر الشديد. طبعاً هناك تمثيل دبلوماسي سوري في واشنطن، ويمكنه إقامة اتصالات سورية أمريكية على أرض محايدة، وهناك أيضاً (تيّار) موالي لأميركا وعلى رأسه رئيس أركان الجيش حكمت الشهابي. وفي شتاء عام 1974/1973 وخلال المفاوضات على اتفاقات فكّ

الارتباط، أرسله الأسد إلى الولايات المتحدة. هذا (الحلبي) (المسلم، السنّي) الذي له ابنان على الأقل دَرَسَا في دالاس بتكْساسْ، هو الأقرب بلا شك من كلّ القيادات السورية إلى الإدارة الأمريكية. هذا الرجل السري الذي لا يحمل أيّ طموح سياسي —وصحيح أنّ كونه غير علوي من الصعب عليه أن يتصرف بحارس أو فرْد ميليشيا–، يستمع له رئيسه. فبسببه، مع آخرين، ينتهي الأميركان دائماً بالاقتناع أنّ سورية، بالتأكيد، لا يمكن تجنّبها.

خلال رئاسة رونالد ريغان الأولى والثانية، كانت السياسة الأمريكية تجاه دمشق —إذا كانت هناك سياسة– مشوّشة بصورة لا تصدّق، فمانويّة(*) (الموصل الكبير) المكوّنة من انقسام الكون، بين الطاعون الشيوعي من جهة، وبقية العالم من جهة أخرى أسهمت في اعتبار سورية مذنّباً —تابعاً– لموسكو. واتفاق 17 أيار 1983 الإسرائيلي–اللبناني هو مثلٌ كامل لفهم أميركا السيئ لحقائق الشرق الأدنى. مذلٌّ للسوريين الذين لم يستشاروا فيه، ومُحْرِج للبنانيين، هذا (الكامب ديفيدْ) المصغّر حمل في بذرته كلّ عناصر الانفجارات المستقبلية، وفي هذه النقطة المحدّدة بالذات لا يمكن إلا الموافقة مع حافظ الأسد على "الخضوع الأمريكي" للأوامر الإسرائيلية. وعندما ألغى لبنان الاتفاق من طرف واحد في بداية عام 1984 كان احتجاج الأمريكيين، على كل حال، رخواً مائعاً، وهي طريقة، مثل غيرها للاعتراف بأنّهم هواة غير محترفين في السياسة.

وبعدما قطفوا الفواكه المرّة نتيجة تناقضاتهم –بمقتل 270 من رجال

(*) المذهب الفارسي القديم: المانوية وفلسفة الصراع بين النور والظلام.

البحرية (المارينـــز) وانسحاب مُخجل-، بدت الولايات المتحدة آنذاك معدومة تماماً من أيّة مبادرة، وبقيت تعيد التأكيد دورياً لدعمها غير المشروط لإسرائيل. واحتاجت لمشكلة (هنداوي) لكي تحزم أمرها وتستدعي سفيرها من دمشق في خريف 1986.

ولكن في الربيع التالي أظهرت سورية استعدادات جيدة لمواجهة الإرهاب، وبخاصة أن مشكلة هنداوي كشفت أنّها أكثر تعقيداً ممّا كان يُظن،[203] أعلنت واشنطن، بعد إطلاق سراح الصحفي تشالرز غْلاسْ، نيتها لإعادة سفيرها... هذه ليست أبداً سياسة... إنها إبحار... بقَدْر ما تسمح به الرؤية، أي قصْر نظر وارتجال في السياسة.

اختلافات عميقة

في واقع علاقات حافظ الأسد بالولايات المتحدة ينقسم حكمه إلى فترات ثلاث: أوّلاً من عام 1970 إلى عام 1978 حين وُقّعت اتفاقات كامب ديفيد، فترة اكتشفت خلالها الإدارة الأمريكية أنّ سورية محكومة من الآن، برجل دولة يريد أن يكون له وزن في أحداث الشرق الأدنى.

ثم من عام 1978 إلى عام 1988 حتى نهاية رئاسة رونالد ريغان، كانت سورية مبعدةً أولاً بسبب رفْضها لاتفاقات كامب ديفيد، ثم لأنّها معتبرةُ، مثل (م.ت.ف.) كمذنّب تابع للاتحاد السوفييتي.

وأخيراً، منذ عام 1988 يبدو أنّ واشنطن عادت إلى مشاعر أفضل، أوّلاً لأنّ جورج بوش وجيمس بيكر فهما محدودية كامب ديفيد، واكتشفا أنّ

السيّدين أسد وعرفات ليسا ألعوبتين تحرّك خيوطَهُما موسكو.

وبعد ذلك، ولأنّ سورية، للأسباب المذكورة أعلاه، بذلت جهدها بعد ضعف الاتحاد السوفييتي على الصعيد العالمي؛ من هذا المنظور لم تعمل أزمة الخليج صيف عام 1990 إلا في إسراع التقارب الممهَّد له بين دمشق وواشنطن منذ العام 1987 في الوقت الذي عادت فيه القوات السورية لبيروت. وعلى كلٍّ يجب الاعتراف أنّه باستثناء السنتين التي كان ألكسندر هيغ خلالهما سكرتير نظارة الخارجية الأمريكية -وزيراً للخارجية- (1981/1982) واصطفّ إلى جانب فرضيات صديقه أرييل شارون، لم تعترض حقاً الولايات المتحدة أبداً على دور سورية في لبنان. لقد أعطته الضوء الأخضر عام 1976 لدخول لبنان، وهكذا حيّدوا كلّ ميلٍ للتدخّل من طرف إسرائيل. ولقد ساندوا باستمرار أفكار التوازن الطائفي في مؤسسات الدولة، وأدانوا تحرّكات الجنرال عون ووصفوا اتفاقات الطائف في تشرين أول -أكتوبر- 1989 بالإيجابية.

ولكن لا يزال هناك ملفان: ملف السلام في الشرق الأدنى وملفّ الإرهاب، يفصلان البلدين باستمرار. ومثلما تدعو دمشق، مثل موسكو منذ سنوات لعقد مؤتمر دولي يشترك فيه كلّ الأطراف المعنيّة، تسعى الولايات المتحدة جاهدة، بدون نتيجة لإقامة حوار بين الإسرائيليين والفلسطينيين ولكنها تصطدم بعناد الدولة اليهودية التي لا تريد أن تسمع حديثاً عن ممثلين فلسطينيين قريبين من (م.ت.ف). من ناحية ثانية، يستمر الأمريكان في معارضتهم لقيام دولة فلسطينية ولا يفكرون إلا بحكم ذاتي واسع للفلسطينيين. والطريق المسدودة التي تواجه عملية السلام لا تُحزن الرئيس

السوري إلا قليلاً، فهو يشاهد برضى مكيافيلّي أنّ التنازلات التي يقدمها عدوه القديم عرفات لأمريكا لا تؤدي إلى شيء. ومثل غالبية الرؤساء العرب، أسد –إذا صدّقنا الرئيس الأسبق جيمي كارتر– لا يتطلع بحسد أو شوق لقيام دولة فلسطينية مستقلة حقاً. فهو يفضّل بدون شك نوعاً من (سورية كبرى) بها محافظة فلسطينية يستطيع التحكم بها. ليست المسألة آنية، وإذا لزم الأمر عندما يحين الوقت يمكن إيجاد زعامة موالية لسورية في الدولة الفلسطينية المستقبليّة... ولكن النـــزاع الأكثر صعوبة للحلّ يتعلّق بدون شكّ بالإرهاب. عندما زار وزير خارجية أمريكا جيمس بيكر دمشق في أواسط أيلول 1990، ليعبّر عن رغبة واشنطن بالتعاون مع دمشق لمواجهة العراق في الخليج، أعلن للصحفيين أنّ موضوع الإرهاب بُحث بعمق مع الرئيس الأسد. "الولايات المتحدة، كما يقول بيكر، لا تستطيع إقامة صلات وثيقة إلا مع الدول التي تتقاسم وإياها نفس القيم" وسيكون السيد بيكرْ مستعداً لسحب اسم سورية مع اللائحة الأمريكية للبلاد التي تساند الإرهاب بشرط أن تعمد دمشق لطرْد أحمد جبريل من سورية وهو رئيس الجبهة الشعبية –القيادة العامة– الذي تشتبه به الولايات المتحدة على أنّه فجّر في كانون أوّل 1988 طائرة (ألبان أميركان) الرحلة 103 فوق لوكربي باسكتلندا حيث لقي 280 راكباً حتفهم في هذه الحادثة.

ورفض السوريون طلب (جيمس بيكر)، إذ أكّدوا أنْ ليس لديهم أيّ دليل لتورّط جبريل في هذه الحادثة. صحيح أنّ سورية استُبْعِدَتْ في هذه الحادثة المروّعة في تقارير غالبية المخابرات الغربية والإسرائيلية، والتي تظن أنّ

إيران وجّهت جبريل —لهذه العملية– لتثأر لتحطيم طائرة الجامبو لشركة الطيران الإيرانية بصاروخ أمريكي. ومع ذلك فالاعتقاد بأنّ جبريل استطاع القيام بهذا العمل بدون علم السلطات السورية هو نوع من المزاح. فلو كان الأمر —كما يعتقدون– لطُرِدَ في الحال جبريل من سورية، لأنّ نظام الأسد لم يقبل أبداً أن يُوضع أمام الأمر الواقع. ومع أنّها مارست الإرهاب بكلّ أشكاله وبصورة كبيرة، كان لسورية بعض الحق عام 1988 في الغضب من الارتياب الذي بدأ يُثقل عليها، وبعد أن اعتبرت لمدة طويلة أنّها وراء كلّ الاعتداءات ومحاولات الاغتيال في باريس عام 1986، بيّضت صفحتها عندما أظهرت تحقيقات دقيقة مشدّدة أنّ إيران هي وحدها التي كانت (الجلاّد). كذلك الأمر، في نيسان 1986 وقضية هنداوي حيث ظهر بوضوح أنّ الرئيس الأسد كان جاهلاً تماماً بالقضية التي لعب الإسرائيليون حَسْبَ ما يقول (باتريك سيل) ببراعة شيطانية ببعض العملاء السوريين. ويُذكّر (باتريك سيل) أنّ والد هنداوي كان يعمل طبّاخاً في سفارة الأردن إلى أن اكتشف بعد ذلك أنّه كان يعمـــل للموساد...[203]

ومهما كان تطوّر الحالة في الشرق الأدنى، ليس هناك فرصة كبيرة للنظام السوري الحالي لصيانة علاقات ودّية يوماً ما مع أمريكا. ومهما كان الجهل وعمى البصيرة في الطبقة السياسية الأمريكية —الحاكمة– وتصريحات السناتور الجمهوري (روبرت دول) في ربيع عام 1990– بالغة الدلالة–[204] تجاه مشاكل الشرق الأدنى إذ ليس للديمقراطية الأمريكية أيّ قاسم مشترك مع النظام الحاكم في سورية الآن. فليس من الصدفة إذن أن يكون المديح الأكثر

تملّقاً من الولايات المتحدة لحافظ الأسد جاء من (هنري كيسنجر) و(ريتشارد نكسون) بطلي كلّ أنواع الواقعية لما وراء الأطلسي خلال الثلاثين سنة الأخيرة. والشيء الذي يجب ذكره أمام الانمحاء المتنامي للاتحاد السوفييتي لن تستطيع الاستمرار كما فعلت ذلك طويلاً من قبل، في إثارة التنافس بين هاتين القوّتين لمصلحتها. بل هي تخاطر إذا ما استمر التطوّر الديموقراطي في الإمبراطورية السوفيتية، أن تُجبَرَ على دفع الحساب للبلدين اللذين أبديا في مرّات عدّة إرادهما المشتركة لحلّ عدد من النـــزاعات الإقليمية. ومنها بالتأكيد القضية الفلسطينية ولبنان. ويبدو أنّ الأسد قدّر الخطر الذي يترصّد الأنظمة المماثلة لنظامه؛ وتخلّى -ومرّة واحدة لا تشكّل عادة- عن اللغة الخشبيّة التي يميل إليها. وحديثاً أكّد في الواقع، للتلفزيون: "على كلّ واحد أن يعي ما الذي سيجري لنا. من المؤسف أن نرى أن تحالف الشعوب القوية يتلازم مع ضعف الشعب العربي، الذي يقف على حافّة الهاوية ولا يقدّر المخاطر القريبة والبعيدة التي تنتظره".(205)

من الجنرال ديغول إلى فرنسوا ميتران

سأل التلفزيون الفرنسي حافظ الأسد في 27 تشرين الثاني -نوفمبر- 1970، أي بعد أحد عشر يوماً من استلامه للسلطة عن مشاعره عندما سمع بموت الجنرال ديغول، فأجاب: لقد خسر العرب أحد أكبر أصدقائهم. كثيرون حاولوا جهدهم ليمنعوا نموّ علاقات الصداقة بين الشعبين الفرنسي والسوري، كان الجنرال ديغول يمثّل صوت الحريّة في العالم الغربي".(206)

الانقلابي الذي لم يكن آنذاك رئيساً بعد، وجد في هذه المناسبة النغمة

المشحونة بالعاطفة لجدّه الذي طلب النجدة من فرنسا (ليون بلوم)... إذ إنّ الغربي الوحيد الذي شعر الأسد نحوه بإعجاب حقيقي هو الجنرال ديغول، الرجل الذي أزال الاستعمار الفرنسي، وأدان إسرائيل لأنّها كانت البادئة في حرب عام 1967، والذي، في 29 كانون أول 1968 فرض حظراً على تصدير السلاح الفرنسي إلى الدولة العبرية، بعدما قامت وحدة مغاوير في الجيش الإسرائيلي بتدمير نصف الأسطول الجوّي المدني اللبناني. وبغياب مثل هذه الشخصية -الكبيرة- لا يمكن للعلاقات الفرنسية السورية إلا أن تتآكل ببطء. ولم يكن الأمر كذلك صحيحاً بالنسبة لجورج بومبيدو ووزير خارجيته (ميشيل جوبير) الذي عرف، هو أيضاً أن يلامس قلوب العرب.[207] وكذلك كان الأمر إلى حدّ ما مع (فاليري جسكار دستان) والذي لم تفهم دائماً دمشق مبادراته تماماً، حيث أنّه كان الرئيس الغربي الوحيد الذي استقبل نظيره السوري في زيارة رسميّة.

والواقع أنّ الأمور بدأت تفسد -إلى حدّ ما- مع الرئيس فرنسوا ميتران. فلقد حبّذ -الأخير- علناً اتفاقيات كامب ديفيد، وأظهر دائماً ودّاً عميقاً لإسرائيل. لم يُعط ميتران الانطباع أبداً أنّه يشعر -بوجود العالم العربي-، ومصر هي الاستثناء الوحيد كونها وقّعت اتفاقيات كامب ديفيد، وحيث قضى فيها، عدّة مرّات، أعياد رأس السنة.[208] والظرف الأكثر تفاقماً في عيون السوريين الحاكمين أنّ ميتران، بضغط من وزير خارجيته -كلود شسّون- المتعاطف جداً مع المسألة الفلسطينية، أرسل مرّتين سفناً فرنسية إلى بيروت وطرابلس بلبنان لتأمين رحيل الفدائيين الفلسطينيين، مع ياسر عرفات

في آب وكانون الأول 1982. كذلك إرساله جنوداً فرنسيين عام 1982 في إطار القوّة المتعدّدة الجنسية لمساعدة لبنان على استعادة سلطته، لم يكن مستساغاً في دمشق.

من الأكيد أنّنا لا نستطيع الشكوى من الطبيعة الاستبدادية للنظام السوري وصلافته ووحشيّته تجاه اللبنانيين والفلسطينيين، ونتّهم، في نفس الوقت، الرئيس ميتران بأنّه نكّد العلاقات الفرنسية السورية. ولكن كان من الممكن اقتناع الشعب السوري —والذي يجب ألاّ نخلط بينه وبين النظام—... لو كانت السياسة الفرنسية في بداية الثمانينات أقل تسامحاً مع إسرائيل، فسكوت فرنسا عند ضمّ الجولان لإسرائيل في 13 كانون أول —ديسمبر– 1981 صدم السوريين، وأربكهم على اختلاف توجّهاتهم. وفيما كان ممثل باريس في مجلس الأمن الملتئم من أجل هذا الموضوع، هو الوحيد مع الولايات المتحدة الذي امتنع عن التصويت، كلّ الدول الأخرى في المجلس صوّتت ضدّه، فكانت ردّة فعل الصحافة السورية عنيفة لدرجة أنّها أكّدت أنّ (فرنسوا ميتران) لم يتغيّر منذ اليوم الذي أعلن فيه أنّه مع فكرة "جزائر فرنسية". و"الأبحاث" و"الدراسات" المشكوك فيها نُشرت في تلك الفترة في أجهزة الإعلام السورية عن (جاك أتّالي)، مستشار رئيس الدولة الفرنسية آنذاك الموالي جداً لإسرائيل. وأصْل موقف الأسد القاسي جدّاً تجاه فرنسا خلال عامي 1982 و 1983 جاء نتيجة لذلك برأي بعض السوريين.

وبتعبير آخر، التراث الجميل جداً الذي خلّفه الجنرال ديغول، والذي جعل من كلّ زائر فرنسي لسورية ضيفاً متميّزاً، قد اهترأ منذ زمن طويل.

والمسؤولية في ذلك تقع على الطرفين. إذا برّر الواقع بسرعة مواقف المعارضين لكامب ديفيد —ومنهم حافظ الأسد- لأنّ السادات على أغلب الاحتمالات، قام بنيّته الطيبة بصفقة مغبونة مع مناحيم بيغن، وإذا كان من السهل اليوم — في عام 1991- التأكّد من أنّ اتفاقات كامب ديفيد لم تؤدّ لتقدّم المشكلة الفلسطينية ولو شبراً واحداً، فالواضح أيضاً أنّ سورية الجنرال أسد لم تفعل شيئاً يُذكر لتحسين صورتها المطبوعة. فمن أراضيها كانت تنطلق أعداد من المجموعات الإرهابية وبخاصة جماعة (أبو نضال) منذ العام 1979. ولقد اغتيل يوسف مبارك الناشر الفلسطيني في باريس في كانون الثاني 1980؛ وفاضل داني الرجل الثاني لمنظمة التحرير في فرنسا قُتل في تموز —يوليو- 1982 في باريس أيضاً. فإذا أضفنا لذلك، الهجوم على مطعم غولدنبرغ، وإرهاب منظمة —أسالا ASALA-، والمجموعات المسلحة الثورية اللبنانية ضدّ الدبلوماسيين الأميركان، والإسرائيليين، واغتيال صلاح الدين البيطار في بداية عام 1980، وهو المؤسس الشريك لحزب البعث، وهناك دائماً في دمشق زمَرٌ وحركات متصلة بصورة وثيقة إلى حدّ ما بالنظام الحاكم. ووجود إعلام مزيّف أو مبالغ فيه لا يغير شيئاً من أنّ دمشق تثبت وجود تساهل مُذنب مع مجموعات لديها وسائل ضبطها.

ومشكلة الرهائن لم تفعل سوى زيادة الإحساس بالقلق والانـــزعاج. الأكيد أنّ دمشق لم تكن في الغالب منخرطة في معظم عمليات خطف الفرنسيين في لبنان، ولكن لم تعط سورية قط الانطباع بأنّها تبذل كلّ ما تستطيع للإفراج عن الصحفيين أو الدبلوماسيين الفرنسيين ومع ذلك من

المعلوم أنّ حافظ الأسد تدخّل مباشرة في عدّة مناسبات مع الإمام الخميني ليمارس ضغوطاً على الخاطفين لشخصيّات قريبة منه. ولقد نجح في ذلك، وصحيح أيضاً أنّ وساطته الناجحة كانت من أجل مواطنين لبنانيين وسعوديّين، والذين لم يكن لهم على مستوى التبادل، نفس قيمة المواطنين الغربيّين. ولكن إذا كان، كما يعرض البعض كمسلّمة، إنّه بالنسبة للنظام السوري، مقابل كلّ خدمة يقدّمها هناك ثمن يجب دفعه، يحقّ لنا إذن التساؤل إن لم يكن وراء ذلك كلّه نوع من الابتزاز البارع.

يجب ألا ننسى أيضاً أنّه عندما سمحت سورية في بداية الثمانينات لآلاف عدّة من الباسداران الإيرانيين الدخول إلى لبنان، أدخلت سورية (الدود للفاكهة)! وأنّه لولا ضوءها الأخضر ربّما كان عدد عمليات الخطف للأجانب أقل.

لبنان... سبب الشقاق

ومع ذلك، تعلّم فرنسوا ميتران كثيراً في عدّة سنوات، فالسفرة التي قام بها لدمشق آخر عام 1984، أعادت بدون جدال، رقّاص الساعة إلى مكانه الصحيح، بعد التوترات الشديدة في عام 1982. ومنذ ذلك التاريخ تركّزت الخلافات التي جعلت باريس تعارض دمشق حصراً في المسألة اللبنانية، وإلى درجة أقل على الإرهاب، مثلما اختلفت واشنطن ودمشق ولكن بعمق أكثر بكثير، على المشكلة الفلسطينية والإرهاب.

ومنذ نهاية عام 1986، إذا كانت فرنسا راضية جداً عن روح التعاون الذي أبدته أجهزة الأمن في دمشق بعد الاعتداءات التي حصلت في باريس،

فإنّها عملت ما بوسعها لكي يتخذ شركاؤها الأوروبيون عقوبات محدودة فقط ضدّ سورية بعد حادثة هنداوي، إلا أنّ سوء التفاهم بالمقابل تضاعف فيما يخصّ لبنان. ومرّة أخرى أيضاً وفيما كان كلّ شيء، أو تقريباً كلّ شيء، يسير سيراً حسناً خلال سنتي التعايش (1986-1988) تعقّدت الأمور مع عودة اليسار إلى السلطة في فرنسا. ومنذ ادّعى الجنرال ميشيل عون في شهر تشرين الأول -أكتوبر- 1988، أنّه خليفة أمين الجميّل في رئاسة المعسكر المسيحي، عادت الأعمال العدوانية بصورة مقنّعة إلى حدّ ما في لبنان وبلغت أعمال العنف حدّاً لا مثيل له بعد ستة أشهر. "وكما قال جاك برْك، الجهل بالحقائق جعل الجنـــرال عون هو ممثلاً لكلّ الموازنة، والموازنة هم لبنان"،[209] دفع بعض سياسيي اليمين أو الوسط إلى اتخاذ مواقف (سطحية مثلما هي موالية). وفي سورية حيث يصعب على المسؤولين فَهْم أنّ للمعارضة الحق بالتعبير بحريّة، لم يكن لديهم أيّ شكّ في أنّ الحكومة الفرنسية متواطئة في سكوتها. وكان على (فرنسوا ميتران) أن يُذكّر بصوت عال إنّ فرنسا هي صديقة لكلّ اللبنانيين"... حتى تهدأ الأمور.

وفي تلك الفترة عبّر نائب الرئيس عبد الحليم خدّام، في جوابه على سؤال جريدة (لوموند)، بصورة موجزة جدّاً عن رأي بلاده بفرنسا ولبنان قائلاً: "لا أعتقد أنّ لفرنسا مسؤوليات خاصّة في لبنان. ليس هناك أسباب ولا عوامل لذلك. فالعلاقات بين فرنسا ولبنان لا تختلف عن علاقات لبنان بأيّ بلد آخر".[210] وُجْهة النظر هذه لا تقيم وزناً كبيراً للتاريخ المضطرب للعلاقات الفرنسية اللبنانية ومسؤولية فرنسا التي لا تنكر في تشكيل لبنان (حول الأرض

الزراعية التقليدية للموازنة)،[211] تُترجم بخاصة الإثارة العميقة للقادة السوريين مذّاك لأنّ بلداً ثالثاً يهتم بصورة قريبة جداً من "مكان صيدهم المحفوظ". ولا فائدة من التذكير بأنّ عملاء أسد لم يتوقفوا عن مضايقة كلّ من أبْدَى، أو يُبدي أيضاً انتباهاً زائداً لأبواق العراق أو إيران أو إسرائيل أو فرنسا. مئات اللبنانيين ماتوا بسبب هذا الجرم في الرأي! ولقد دفع السفير (لوي دولامار) أيضاً حياته ثمناً لهذا الجرم في عام 1981.

ومن أجل هذا السبب بالذات، بعد ثمانية عشر شهراً —في 30 أيلول 1990 ، يُجْهِدُ عبدالحليم خدّام نفسه في لعب دور المراقبين النبيهين للحياة السياسية الفرنسية ويقدّر في القاهرة أمام الصحافة أنّ "خطة ميتران" —خطّة تسوية أزمة الخليج المقدمة في 24 أيلول أمام هيئة الامم المتحدة بواسطة رئيس دولة فرنسا"– «تبتعدُ قليلاً عن قرارات هيئة الأمم المتحدة». والواقع أنّ الذي أزعَجَ السيد خدّام هو المقطع القصير الذي اقترح فيه السيد ميتران إنّه بالإضافة لانسحاب العراق من الكويت... على المجتمع الدولي أن ينكبّ بعد ذلك على البحث "عن حلّ لكلّ مشكلات الشرق الأوسط"، وبتعبير آخر، للمسألة اللبنانية ومن ثمّ الوجود السوري في لبنان. وبعد أيام معدودات زاد سوء التفاهم أكثر مع اللجوء السياسي الذي وفّرته باريس للجنرال عون. والواقع ليس في الأمر شيئ خطير. إذا ما رجعنا إلى العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين، نلاحظ أنّ الحساب الختامي إيجابي إلى حدّ كبير، ففي عام 1990 وللمرة الأولى، منذ وصول حافظ الأسد للسلطة سيكون الميزان التجاري مائلاً قليلاً لصالح سورية. ولكن، وبخاصّة منذ عام 1987 لم تتوقّف

المبيعات الفرنسية لسورية عن الارتفاع لتقفز من مليار فرنك فرنسي إلى أكثر من مليارين عام 1990. أمّا صادرات سورية إلى فرنسا فلقد تطوّرت إيجاباً بسرعة أكثر أيضاً لأنّها قفزت من 425 مليون فرنك فرنسي عام 1987 لتصل إلى أكثر من مليارين عام1990. هذا صحيح لأنّ البترول المكتشف، وغالبيته بواسطة شركات فرنسية في منطقة ديرالزور، يمثّل 91٪ من المشتريات الفرنسية. كذلك، فرنسا اليوم هي أوّل مُصَدِّر غربي لسورية، فهي تبيعها القمح والطحين بخاصّة (40٪ من مشتريات سورية من هذه السلعة)، كذلك تبيعها منتجات صناعية. كذلك استثمرت فرنسا ما يقرب من 200 مليون فرنك فرنسي في مركز ثقافي بديع سيستجلب آلاف الشباب السوري لكلّ أنواع النشاطات: تدريس اللغة الفرنسية، قاعات السينما، مكتبة غاية في الحداثة، الخ... بالإضافة إلى أنّ خمسة آلاف طالب سوري يتابعون دراساتهم في فرنسا، بخاصّة في الطب وفي سائر المؤسسات التقنيّة.

يجب أن تُذكر أخيراً (زهرة) الوجود الفرنسي في دمشق، المؤسسة الفرنسية للدراسات العربية التي مرّت بها أجيال من الاختصاصيين في العالم العربي، ميشيل سورا الذي اختفى في لبنان بعدما خطف مع جان بول كوفمان، كان في هذه المؤسسة في بدايات السبيعينات؛ وبفضل هذه المؤسسة، وبعيداً عن تقلّبات الحياة السياسية توطّدت صداقات عدّة ودائمة وهي تشكل الكثير من الضمانات للمستقبل.

النظام السوري، أو على الأقل أحد ممثليه الأكثر شهرة، رفعت الأسد، كان أقلّ سعادة في فرنسا لأنّ الإذاعة الحرّة التي أطلقها في كانون أول 1986، راديو

العالم الثالث، صوت العرب من باريس، لم تكن جزءاً من السعيدين المنتخبين الذين حفظتهم الـــ(CNCL) في تموز 1987. هذه الإذاعة التي بدا أنّها تتمتّع بإمكانات مالية كبيرة، كانت تديرها إحدى بنات رفعت. وهذا الأخير يكتفي اليوم بيومية (الشام) ولها مستشار سياسي هو دريد الأسد وهو ابنه البكر. أمّا عدد ما تطبع يومياً وعدد قرائها فهو غير معروف.

إذا كانت فرنسا، التي عرفت أحياناً القول (لا) للقيادة السورية، لها أيضاً رصيد صغير من الود عند بعض طبقات الشعب السوري والتي تتطلّع بصمت وبدون أن تكون مقتنعة تماماً بالأمر، لمشاهدة سقوط دكتاتورية الرئيس الجنرال والتي ليس لها بالمقابل شيء من الهالة التي كانت تحيط بالجنرال ديغول عند موته. قوّة متوسطة، تزعج السلطة البعثية عندما تدّعي أنّ لها بعض الوجود في لبنان. ولكن السلطة تعرف أيضاً أنّ فرنسا بسبب من تقاليدها ومعرفتها الجيدة نسبياً بالشرق الأدنى يمكنها أحياناً أن ترافع وتدافع أحياناً عن الأهداف السورية، أمام شركائها في الاتحاد الأوروبي عندما قرّرت الدول الإثنتي عشرة رفْع الحظر عن الصين وإيران. كانت بريطانيا العظمى معارضة في الواقع، ودائماً بسبب حادثة الهنداوي، وكان (رولان دوما) سعيداً جداً بهذه المعارضة في الوقت الملائم جداً،[212] فأوجز إعلانه الجريء: "فرنسا ليس في وارد مواجهة الغيظ البريطاني". وهكذا تسير العلاقات الفرنسية السورية، وليس من المحتمل جداً أنّ تتغير طبيعتها طالما بقي نفس الفريقين يقودان البلدين".

النظام السوري،
ومنظمة تحرير فلسطين و"الكيان الصهيوني"

عندما يُسمح بكلّ أنواع الضربات

إسرائيليون، فلسطينيون، سوريون سواء رتّبناهم حسب الحروف الأبجدية أو غير ذلك، نجدهم منذ العام 1948 في أغلب الأحيان سويّة... ودائماً في وضع أسوأ من سابقه. ومن الشعوب الثلاثة الفلسطينيون الذين ليس لهم دولة بعد، هم الذين كانوا بلا جدال أكثر المتعذبين من حقد أو من خوف الشعبين الآخرين. الفلسطيني المطرود من أرضه ومسقط رأسه واللاجئ، بعد ألف لفّة ودوران، إلى لبنان، لا يزال يطارده طيران أو مدفعية الذين استوطنوا أرضه. وعندما، لسبب أو لآخر، تغيب القوّة الإسرائيلية عن الساحة، فمن أجل أن تُخْلي مكانها للجيش السوري!...بيروت في آب —أغسطس- 1982، بطرابلس في كانون أول —ديسمبر 1983 وَجهان لوسام واحد هو وسام المقاومة البطولية، ودون أمل في مواجهة جيشين عدوّين —نظرياً-، ولكنّهما سعيدين بأن يتخلّى أحدهما للآخر عن الشوط في محاولتهما التخلّص من هذا الشعب المربِك.

ومن كلّ العرب، وربما باستثناء السوريين أنفسهم، أكثر الكارهين لنظام دمشق ولرئيسه هم الفلسطينيون بدون أدنى شكّ. أحد المهندسين الفلسطينيين العاملين في شركة فرنسية يقول بصراحة تامّة هناك (بول بوت) في الأسد،

المدينة بالنسبة له هي منبع الشر. إنّه يشعر باستمرار بالحاجة للثأر من أهل المدن. ولكن فيه أيضا طرف من (عيدي أمين) يعطي الدرس للاشيء... حتى يتحاشى إعطاء الدرس من أجل شيء ما... النظام السوري مثل الشقيق العدو العراقي، اخترع الردع، العنف الوقائي. الحياد ليس مقبولاً، فيما الأنظمة العسكرية التقليدية لا تركّز هجومها إلا على المعارضة فقط. يجب تقديم فروض الولاء باستمرار".[213]

قد يري البعض مبالغةً في هذه الأحكام إلا أنّها تترجم تماماً نفور شعب من رئيس دولة عربية لم يعذّبه فقط بل أذلّه أيضاً. حتى الملك حسين لم يُثِرْ أبداً هذا الكمّ من البغض الشديد، رغم أنّ جنوده البدو تميّزوا بقسوهم خلال (دراما/مأساة) (أيلول الأسود) بعمّان في خريف عام 1970، وهذا بلا شكّ راجع إلى أنّ الملك الهاشمي لم يكن عنده أبداً الادعاء المعلن بتصفية البُنى التمثيليّة للشعب الفلسطيني بدءاً بمنظمة التحرير الفلسطينية. وبالفعل إذا كان هناك شيء لا يمكن اهام الرئيس السوري به فيما يخصّ الفلسطينيين هو التخلي عن متابعة أفكاره. ويذكّر (كامنسكي وكروك) بحق أنّه بعد حرب حزيران 1967 مباشرة، حافظ الأسد الذي كان وزيراً للدفاع واجه مذّاك صلاح جديد وأصدقاءه: "وفيما كانت مجموعة (جديد/أتاسي) تتطلع إلى المعركة مع إسرائيل كحرب تحريريّة يجب أن يقودها بصورة رئيسية الفلسطينيون بمساعدة السوريين، اعتبر الأسد الحرب ضدّ إسرائيل كحملة عسكرية كلاسيكية تُخاض عندما تتجمّع كلّ الدول العربية من أجل هذه المواجهة، دون اعتبار للسياسات الداخلية لأنظمتهم".[214] وكانت المواجهة

مع إسرائيل وعلاقات سورية بالمنظمات الفلسطينية، هي التي شكّلت بالتحديد الذريعة التي تمسّك بها أسد لِيُسقط (جديد)، لا يمكنه أن يكون أكثر وضوحاً. منظمة فلسطينية لا يمكنها أن تكون إلا تابعة لسورية. ونتذكر إرادة الأسد في إقناع هنري كيسنجر بعد حرب تشرين أول –أكتوبر– عام 1973 أنّ الصاعقة التي قادها فلسطيني عضوٌ في حزب البعث: زهير محسن، كانت أكثر أهمية وأفضل تسليحاً من فتح. والعراق –ولنلاحظ بصورة عابرة هذا الشبه الإضافي بين النظامين– يتصرّف بنفس الطريقة مع جبهة التحرير العربية. أخيراً، البلدان استجارا –في نفس الوقت أو في أوقات مختلفة– أو على الأقلّ استعانا لمدّة طويلة بخدمات (أبو نضال) المنشق عن فتح لتصفية (القريبين) من عرفات أو القيام، هنا وهناك بعمليات إرهابية.

الفلسطينيون في الواقع يجمعون التناقضات والمناوشات بين العديد من الدول العربية. فكيف الخروج من هذه الأوضاع؟ بالنسبة لعرفات الجواب بسيط! قوّة فتح تنبع من رفْضها أن تُصنّف في اليمين أو في اليسار، في الشرق أو في الغرب، ورفْضها أن توالي هذه أو تلك من الحكومات العربية.

هناك الآن ست معسكرات في العالم العربي: فمن يختارون؟[215] الجنرال مصطفى طلاس لا يُشاركهم أبداً هذا الرأي؛ وزير الدفاع السوري ورفيق الدرب القديم للرئيس الأسد، يعتبر أنّ المسألة الأولى للمقاومة الفلسطينية هي وحدتها. لقد اقترح منذ العام 1971 تشكيل لجنة تضمّ ممثلين عن عدّة دول عربية من أجل تحمّل المسؤولية التامة لتوحيد الفدائيّين والاتفاق على التصفية الجسديّة للفدائيين الذين يرفضون هذه الخطّة![216] وإذا لم يصل الفلسطينيون

إلى حلّ للتناقضات الأساسية التي تجعلهم في مواجهة مع بلاد عربية تحاول إقامة السلام على حسابهم —أو إذا كانت فكرة الحلّ السلمي لا تتطابق —مع فكرهم-؛ فحافظ الأسد لم يكن له أبداً، من جهته، هذه الحالة النفسية.

واندلاع الحرب الأهلية في لبنان كانت فرصة فريدة له ليجرّب تقنيات السلطة: كيف تُثار الانقسامات؟ كيف تقام بُنية الولاءات، وبخاصّة كيف يُدار العديد من اختبارات القوّة خارج الأراضي السورية؟ الصاعقة لم تستطع القيام بالدور الذي اختير لها —أو قامت به بشكل سيء- والأسد، والقدرة على التوقيت هي من صفاته الأساسية، استغلّ طرْد إسرائيل لعش النمل الفلسطيني في لبنان ليحاول تسديد الطعنة الأخيرة لـــ(م.ت.ف).

وفي كانون أول —ديسمبر- 1983، بعدما طرد عرفات ورجاله من طرابلس فكّر أنّه وصل إلى أهدافه. فلم يبق في مخيمات اللاجئين في شمال لبنان وفي سهل البقاع إلا بضع مئات من الفلسطينيين الخاضعين له. ولكن منذ العام 1985 وبخاصة في عام 1986 عاد مناصرو عرفات، بطرق يجب كتابة تاريخها يوماً ما،[217] إلى مخيمات بيروت وجنوب لبنان. وغضب الأسد غضباً شديداً بخاصّة أنّ اليمين المسيحي في لبنان حبّذ عودة الفدائيين من مرفأ جونية. وبعد أن دفع حركة أمل الموالية لسورية للسيطرة على مخيمات الفلسطينيين في بيروت، اتخذ من الفوضى السائدة ذريعة لإعادة جنوده إلى العاصمة اللبنانية بيروت في شباط 1987. ومنظمة التحرير الفلسطينية التي فهمت رأساً مناورته أدانت بشدة عودة الجيش السوري.

في 29 آب 1987، وفي جو من عدم المبالاة التامة تقريباً بالرأي العام

الغربي المبتهج بخروج الصحفي الأمريكي شارل غلاس من سجنه، أطلقت منظمة التحرير نداء للأسرة الدولية لإيقاف المعاناة الشديدة للمدنيين الفلسطينيين المحاصرين بقوات معادية. و لم تذكر كلمة سورية في النداء ولكن التلميح كان واضحاً لكل الناس. وقبل عدّة أسابيع أكّد أبو جهاد القائد العام المساعد للقوات الفلسطينية، أنّ العلاقات السورية الفلسطينية لم تعرف أيّ تقدّم وأنّها في نقطة الصفر.

وفي نفس الفترة تقريباً، أعلن خالد الفاهوم الرئيس السابق للمجلس الوطني الفلسطيني ذو الشخصية الباهتة القليلة الجسارة والملتحقة بالأسد، شروط المصالحة السورية الفلسطينية:

– قطع العلاقات الفلسطينية المصرية.

– إلغاء اتفاق حسين – عرفات في شباط 1985 (ينصّ بخاصة على إقامة كونفدرالية أردنية – فلسطينية).

– رفض القرارين 242 و 338 لمجلس الأمن.

والواقع أنّ حافظ الأسد، الذي أعاد العلاقات الدبلوماسية مع مصر، واعترف مذّاك بالقرارين 242 و338، لم يستطع تحمّل فكرة مشاهدة الملك حسين وعدوّه القديم عرفات يتصرفان بمفردهما. وأسد الذي يعتمد في معارضته لعرفات على جبهة السلام الوطني الفلسطيني، التي لا تمثّل حتّى واحد في المئة من الفلسطينيين الواعين، لم يُدرك أبداً أنّ الوحدة الفلسطينية هي حقيقة تتمفصل حول شخصيّة عرفات الذي يحوز على 80٪ من أصوات الناخبين في

المناطق المحتلة. وبعد عرفات بمسافة طويلة جداً يقف حبش ومعه 6٪ من الأصوات بينما ينال الرئيس السوري أقل من 1٪ من الأصوات...[218]

وفي تموز –يوليو– 1988 بعد أيام من دفن (أبو جهاد) في دمشق الذي سمح لعرفات بحضور الجنازة، أغار جنود الأسد على آخر المخلصين لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية في مخيّمات بيروت ومحيطها. وكان مناصرو عرفات موجودين كلّهم في صيدا محصورين بين الجيش السوري من الشمال والجيش الإسرائيلي من الجنوب، والمليشيات الموالية لسورية تحيط بالمدينة من كلّ جانب. إلا أنّ الأسد لم يكن في عجلة من أمره. والانتفاضة التي بدأت في كانون أول –ديسمبر– 1987 لها شعبية كبيرة في العالم العربي وهذه، بأغلبيتها تدعم عرفات وسياسة انفتاحه على الغربيين. من ناحية أخرى، كان أسد يخاف من أن تتحالف فتح، منظمة عرفات، مع حزب الله ضدّ حركة أمل. لذلك سمح لنبيه برّي رئيس هذه الحركة الشيعية أن يوقّع في أوّل أيام 1989 اتفاقاً مع م.ت.ف ينص على أن يكون لمنظمة التحرير حرية العمل الكاملة والاعتراف في نفس الوقت بسلطة أمل على كلّ المنطقة.

عرفات يختار بغداد

اجتياح العراق للكويت يحطّم مجدداً هذا التوازن الهش. ويبدو أنّ عرفات قد أُرغم على الاختيار من بين المعسكرات الست التي ذكرها: معسكر بغداد. صحيح أنّ شعبه كلّه أصيب بخيبة من مفاوضات السلام التي انتظرها دائماً وأعياه العناد الكامل للزعماء الإسرائيليين الذين أصمّوا آذانهم للصراخ القانط الذي تمثّله الانتفاضة، مما دفعه لهذا الاتجاه؛ ليس حبّاً بصدّام حسين،

فالفلسطينيون لا يغترّون أبداً (بالإخوة) العرب منذ مدّة طويلة، ولكن ديكتاتور العراق رفس بعنف (عشّ النمل)... والذي سيحصل لن يكون أسْوأ مما يعيشونه الآن.

في تحليل قصير النظر، بادر الإسرائيليون والأعداء الحقيقيون لمنظمة التحرير الفلسطينية بالتأكيد على أنّ المركزية الفلسطينية فقدت كلّ مصداقيّة بدعمها للطاغية العراقي. وصحيح أنّ عملهم هذا أعطى الانطباع المؤسف بأنّ عرفات —وهذا ما لم يفعله أبداً في السابق— يدافع عن احتلال العراق للكويت. وكان هذا على كلّ حال غير متماسك بالمرّة بالنسبة لفلسطيني يدّعي أنّ إسرائيل احتلّت بلاده فلسطين. ولكن بوجود ما يقرب من خمسمئة ألف فلسطيني في الكويت والعراق هل كان باستطاعة عرفات التصرّف بطريقة مغامرة؟ على كلّ حال فكّر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، أنّه بعد استعادة الكويت لسيادتها ستجد من الصعب عليها التخلّص من جالية فلسطينية تدين لها إلى حدّ كبير بانطلاقها —في مجالي النمو والتنمية—.

أمّا حافظ الأسد فقد صمت وأخذ يراقب ببساطة عن كثب مخيّم اليرموك الكبير على حواشي دمشق والذي لم يُخفِ أبداً عداءه للدكتاتور السوري.

وكما هو منتظر كانت ردّة فعل الفلسطينيين سلبية جداً لما استنكرت سورية غزو العراق للكويت وأرسلت قوّاتها للعربية السعودية. وهكذا في بيانه ذي الرقم (62) والذي أعلن عنه أوّل أكتوبر 1990، بعد ما انتقدت القيادة الموحّدة للانتفاضة ضمنياً بغداد مؤكّدة أنّ لكلّ الشعوب الحقّ بالاستقلال وتقرير مصيرها بنفسها ورفْض كلّ أنواع الاحتلال، وهاجمت بعنف النظام

في دمشق والقاهرة: "في الوقت الذي دخلت فيه الانتفاضة شهرها الخامس والثلاثين، وتتآمر القوى الاستعمارية مجدّداً لاحتواء اليقظة العربية وتصفيتها، بمساعدة النظامين الفاسدين الحاكمين في دمشق والقاهرة، وكذلك تستنكر القيادة الموحّدة للانتفاضة كلّ من دعموا "القرارات الظالمة ضدّ العراق، والذين رفضوا ربط أزمة الخليج بالمشكلة الفلسطينية".(219)

وبعد عدّة أيام، في 6 تشرين أول –أكتوبر– أجاب فاروق الشرع وزير الخارجية السوري بصورة غير مباشرة الفلسطينيين في المناطق المحتلة واصفاً اقتراح صدّام حسين "بالأمر الخطير" والذي يربط بين جميع الاحتلالات في الشرق الأدنى، "بادّعائه حقوقاً مكتسبة للعراق في الكويت، يعطي العراق لإسرائيل ذريعة لفِعْلِ الشيء نفسه على حساب الشعب الفلسطيني".

ويعترض الوزير من ناحية أخرى على طلب بغداد وضْع الأزمة اللبنانية على جدول أعمال مؤتمر عالمي، "يجب حلّ المشكلة اللبنانية في إطار اتفاق الطائف الذي أصبح مُذّاك جزءاً من دستور لبنان". وبتطوّر الواقع الإقليمي لم يكن للعلاقات السورية الفلسطينية فرصة للتحسّن طالما أنّ النظام السوري ومنظمة التحرير الفلسطينية لهما نفس القيادة القائمة الآن. فالخلاف تامّ ليس بسبب عدم التجانس بين شخصيّتي عرفات والأسد –ولا يحلم أحد بنكرانه– بل لأنّ للرئيس السوري، بكلّ بساطة، نظرة إلى مستقبل فلسطين ليست عند الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني "يقدّر أسد أنّ فلسطين ليست فقط جزءاً من الأمّة العربية: بل هي جزء أساسيّ من جنوب سورية، لهذا نرى أنّه من حقّنا ومن واجبنا –ولا نستطيع التخلّي لا عن حقوقنا ولا عن

ملاحظاتنا- السعي لإبقاء فلسطين محرّرة داخل الأمّة العربية والجمهورية العربية السورية". (220)

وقول أسد أيضاً: "إنّ القضية الفلسطينية كانت دائماً قضية الشعب السوري برمّته قبل أن تكون قضيّة بعض المنظمات الفلسطينية، وقبل ظهور بعض منظمات الثورة الفلسطينية. على هذا الأساس نقدّر أنّه منذ إطلاق الثورة الفلسطينية الرصاصة الأولى، هناك صلة استراتيجيّة بين سورية وتلك الثورة.

طبعاً يتكلّم حافظ الأسد أيضاً عن حق الشعب الفلسطيني "بإقامة دولة مستقلة على ترابه الوطني". ولكن كما هو في ذهن أسد أنّه يعتبر الأرض العربية نفسها واحدة وأنّ الشعبين -السوري والفلسطيني- يتطلعان بطبيعة الحال إلى الوحدة. يمكن التصوّر جيّداً أي نوع من الدولة الفلسطينية يحلم به الرئيس الأسد. وإذا استطاع (جيمي كارتر) أن يذكر يوماً ما أنّ غالبية البلاد العربية لا تريد دولة فلسطينية مستقلة، تأكّدت أقواله لاحقاً بتصريح (أبو أياد) (الرقم الثاني) في (فتح) وهو من الرجال الأكثر نفوذاً في م.ت.ف.

وبرأيه من الدول العربية من لا يتمنّى قيام دولة فلسطينية، وبخاصة سورية، لأنّها تشكّ في نتائج بروز بلد عربي ديموقراطي أصيل في المنطقة، والأغلب أنّ (أبو أياد) كان على حقّ ولكن حافظ الذي يطمح بالبقاء رئيساً لقوّة إقليمية يجب أن يخاف بخاصّة لأن دولة فلسطينية ديموقراطية ذات سيادة قد تحوّل أحلام العظمة عنده... إلى الصفر.

أسد... وإسرائيل... حساسيّة عميقة

كان هنري كيسنجر أوّل من لاحظ التشابه في سلوك المفاوضين الإسرائيليين والسوريين أثناء رحلاته المكوكية المرهقة التي قام بها بين القدس ودمشق خلال الشهور التي تلت حرب –تشرين أول –أكتوبر– عام 1973. التصلّب والانقباض عند هؤلاء تقابل بصورة منفردةً، حسب رأيه المرونة، والانفتاح الذهني لدى المصريين: فيما يخصّ الفلسطينيين. وبالنسبة للفلسطينيين، وجدنا أنّ إسرائيل وسورية(*) أبديا باستمرار نفس العزم على خنق كلّ ميل نحو الاستقلال لدى الفلسطينيين– ومنذ بداية السبعينات لم يتوقف الطرفان عن الاصطفاف –في موقع واحد– "لكسر شوكة الفلسطينيين": في سورية وفي إسرائيل نفسها أو في المناطق التي تخضع لهما، لبنان والضفة الغربية وقطاع غزّة. ومن هنا كانت الكتابة "سورية، وإسرائيل، المعركة ذاتها"، اختصار لم يتردّد البعض باستعارته ولكن مَهْما كانت جاذبية هذا الاختصار، فإنّه لا يتناسب أبداً مع الواقع.

فالأسد مثل الكثيرين من مواطنيه –وهذا هو الجامع الباقي لهم على الأقلّ– شعر دائماً بنوع من الاشمئزاز الغريزي بالنسبة لكلّ ما تمثّله إسرائيل. وفي بداية عام 1974 عندما قتل فدائيون من الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين عشرين ولداً إسرائيلياً في (معالوت)، كتب كيسنجر أنّ هذه الحادثة المشؤومة تحرّك (مشاعر) الرئيس السوري، فبالنسبة له كان على إسرائيل أن تقبل اقتراحات الإرهابيين".[221] إلا أنّ الأسد ليس رجلاً رقيقاً، وليس من المؤكّد أنّ مذابح حماه أو الدامور، والتي كانت قواته مسؤولة مباشرة عنها، أثّرت كثيراً في مشاعره.

ومثل الكثير من أبناء جيله العرب كان الأسد في السابعة عشر من عمره عندما قامت دولة إسرائيل وتأثّر بعمق من هذا الظلم الذي وقع حسب رأيه، ليس على أرض الشعب الفلسطيني بل على كلّ الأمّة العربية. ومن وجهة النظر هذه بقي الرئيس السوري دائماً أميناً لأفكاره التي حملها عندما كان بعثيّاً شاباً. وما ذكر موضوع الكيان الصهيوني في خطبه —إلا في الإطار التاريخي– على الدوام تقريباً، "وبعكس ما يدّعيه الصهاينة، الصهيونية ليست تياراً تاريخياً بل هو عارضٌ منافٍ لمنطق التاريخ، بل ليس هو كما يحلو لبعض المفكرين الاعتقاد، تياراً تقدّميّاً بل حركة مُغرقة في الرجعية متمسكة بقيم منفّرة تناضل ضدّها الإنسانية جميعاً (...). الصهيونية مؤسّسة على فكرة الجنس الأرْقى ومنها جاء الاعتقاد بعالمٍ منقسم إلى الشعوب الأقوى دائماً والشعوب الأضعف دائماً، بين سادة وعبيد. ولا يفهم شيئاً عن الصهيونية من يتصوّر أنّه يمكن هزيمتها بغير القوة (...)، الصهيونية هي حركة استعمارية عرقية تماثل كلّ الحركات العرقية، ولكنها تتمتّع بمزيد من امتيازات السلطة بسيطرتها على مناصب هامّة في الأنظمة الإمبريالية. ليس هناك بلد في العالم يتطلّع، كما تتطلع إسرائيل إلى ما وراء حدودها ويفرض إرادته على الدول المجاورة كما تفعل إسرائيل".(222) "التجربة تثبت أنّه من غير الممكن وضْع حدّ للأهداف التوسّعية الإسرائيلية طالما إنّها تستمرّ في الاعتقاد إنّها قوّة كبرى في المنطقة"، يؤكّد أيضاً الأسد في المقابلة التي أجراها مع إحدى محطات التلفزيون الأمريكية. والخلاصة أنّه إذا بقي الحال على هذا المنوال فلَنْ يكون السلام السوري الإسرائيلي في الغد القريب.

ولكن إذا كان للقلب أسباب لا يعرفها العقل، فواقعية الرئيس السوري قادته خلال السنوات الخمسة عشرة الماضية إلى أن يحسب حساب الواقع الإسرائيلي. وإذا كان مقتنعاً، مثل الكثير من العرب أنّ "الكيان الصهيوني" سينتهي يوماً إلى زاوية مهملة من ذاكرة التاريخ، فليس لديه أيّة أوهام عن الوقت الذي قد يستغرقه ذلك. وحلفاؤه السوفييت كانوا بين أوائل من اعترفوا بقيام دولة إسرائيل ولم يثيروا أبداً موضوع إعادة النظر في هذا الاعتراف.

وفي الوقت الذي تخلّى فيه الأسد عن الوقوف إلى جانب نظرية المتطرفين الذين وصلوا حدّ الاعتقاد بأنّ لا حلّ للمشكلة إلا بمسح إسرائيل من الخارطة —فلقد تمسّك بالمقابل بتصلّب كامل في الشكل —والمظهر-. فالاتصالات مع الدولة اليهودية والحوارات جرت دائماً عن طريق فريق ثالث —الولايات المتحدة أساساً— أو من خلال المنظمات الإنسانية مثل الصليب الأحمر بخاصة فيما يخصّ تبادل الأسرى. وبخلاف الملك حسين ملك الأردن، لم يلتق حافظ الأسد أبداً في زاوية ضائعة من الجولان _(جولدامايير) أو (شيمون بيريز). ولكن بالمقابل كان لممثليه على أغلب الاحتمالات اتصالات مباشرة مع "العدو الصهيوني". ففي عدد من الصحف والمجلات المصرية، ومنها مجلة (المصور) التي كان يديرها مكرّم محمد، أكّدت أنّ رفعت الأسد الأخ الأصغر للأسد التقى أرييل شارون بخاصة في جنيف، وكان الموضوع يتعلّق بترتيب أساليب تصفية (م.ت.ف) في لبنان. ولكن هذا النوع من المعلومات يجب النظر إليها بحذر، إذْ كان للصحافة المصرية آنذاك مصلحة في تشويه صورة

الحكّام السوريين.

ولكن ما هو أكثر إثارة للدهشة هي تلك الشهادة التي أدلى بها مسؤول فلسطيني رفيع المستوى لكاتب هذه السطور، فهذا المسؤول القريب من ياسر عرفات أكّد أنّه اطّلع على محضر اجتماع في إفْران بالمغرب بين «الملك الحسن الثاني وشيمون بيريز» في 23 تموز 1986.

بيريز: يا صاحب الجلالة، أشكرك لاستقبالي وأهنّيك على شجاعتك، ولكن ألا تخاف ردود فعل سلبية جداً من البلاد العربية؟

الملك الحسن: لا... لا أظن ذلك باستثناء... ربما سورية...

بيريز: آه، إذا كان الأمر يتعلق فقط بسورية فلا تهتم بالأمر نحن لنا طرقنا لإسكاتهم!

الملك الحسن: آه، وكيف ذلك؟

بيريز: لقد عملنا اتفاقات مع السوريين على أعلى مستوى.

الملك الحسن: هل تستطيع أن تذكر لي مع من؟

بيريز: لا، لا أستطيع كشف ذلك، ولكن يمكنك أن تثق بي.

الملك: اتفاقات شفهية أو خطية؟

بيريز: متسماً عند إجابته: الإثنان معاً...

هذه الأدوار المزدوجة التي يلعبها -النظام- السوري، وربما يثبتها لنا المؤرخون في المستقبل، تفسّر بدون شكّ كتمان النظام السوري لدى معرفته بأنّ حلفاءه الإيرانيين قاموا باتصالات سرية ليس فقط مع الولايات المتحدة الأمريكية بل أيضاً مع إسرائيل. وبالنسبة للأسد ما أنّ مرّ تأثير الذهول للوهلة

الأولى —إذا كان هناك ذهول أصلاً– ثبت بالبرهان مرّة أخرى أنّ الأخلاق والسياسة لا يتعايشان في البيت الواحد.

وبالنسبة لإسرائيل، برهن الرئيس السوري دائماً عن أكبر قدر من الحذر. ومنذ عام 1967 وإذا استثنينا بالطبع حرب 1973، كانت الحوادث على هضبة الجولان حيث يتواجه البلدان مباشرة، تعدّ على أصابع اليد الواحدة.[223] في لبنان كانت الصعوبات أكثر عدداً ولكن، بصورة عامّة ما اجتاز الجيش السوري حتى عام 1982، وبعد شباط 1987 أبداً الحدود التي عيّنتها إسرائيل على بضعة كيلومترات جنوب صيدا.

كلّ هذا نابع في الواقع ببساطة، من إدراك منطقي في العديد من المعارك الجويّة فوق الأراضي اللبنانية التي تواجهت فيها الطائرات السورية والإسرائيلية، كانت النتيجة دائماً لمصلحة تل أبيب. وخلال صيف 1982، مع أنّهم أظهروا أحياناً مقاومة شديدة إلا أنّ المدرعات السورية أُجبرت على الانسحاب أمام تقدّم دبابات أرييل شارون. صحيح أنّ الأسد حُذِّر من إرسال تعزيزات لأنّ قواته في لبنان لم يكن من واجبها مقارعة إسرائيل، ولكن حفظ الأمن والنظام في بلاد الأرز.

الواقع أنّ سورية فقدت تماماً المبادرة العسكرية لمواجهة إسرائيل منذ العام 1973، "لن نترك لأيّ إنسان آخر مهمة اختيار تاريخ ومكان المعركة"، هذا ما تحبّ ترداده القيادة السورية. والحقيقة أنّ الدولة تخصّص أموالاً هائلة من أجل التسلّح. ففي عام 1986 صرفت دمشق 13.5 مليار ليرة سورية على التسلح (3.5 مليار دولار)، أي 31٪ من المصروف العام للدولة. (400.000)

أربع مئة ألف رجل هم في خدمة العلم باستمرار، بمقابل أقلّ من مئة ألف في إسرائيل. كيف لسورية إذن أن تقول بإجماع الآراء -بما فيها رأي رئيسها بالتأكيد- أنّها لا زالت في وضع لا يسمح لها بمواجهة العدو بأسلحة متساوية؟ الأسباب عديدة. قبل كلّ شيء نوعية أسلحتها تبقى دون مستوى تسلّح الإسرائيليين الذين لديهم في كلّ المجالات أفضل وأحدث أنواع الأسلحة المتطوّرة، وهذا صحيح بخاصة في مجال الطيران.

ثم هناك أيضاً (الحافز) للعسكريين. فالجيش السوري بغالبيّته يمثّل إلى حدّ كبير المجتمع السوري. وليس له في الواقع الميل للقتال من أجل نظام غير معتبر فهو أي الجيش فوق ذلك للقمع الداخلي -فالأسلحة الأكثر تطوّراً وجدّة هي بين أيدي الوحدات العلوية، أو التي يقودها القريبون من الرئيس- وليس لدخول حرب كلاسيكية. وغالباً ما يسود جوّ من الريبة والشك بسبب وجود (قوميسارية سياسية) على كلّ المستويات. ولقد أصبح الجيش السوري أيضاً جيش موظفين وجدوا في أجواء الخَرَسِ الكبير الفرصة للعيش بصورة أقل سوءاً ممّا لو كانوا في الجهاز المدني.

يضاف إلى كلّ ذلك الأزمة الاقتصادية والمالية، منذ عدّة سنوات، والتي لا توفّر حتّى العسكريين: مَثَلٌ من كثير غيره مُستقى من أفضل المصادر!، كان على المشافي العسكرية عام 1987 أن توفّر للمشافي المدنية كميّات من العقاقير التي لم تستطع المشافي المدنيّة تأمينها مالياً، وعندما طلب من ألمانيا الشرقية تغطية هذه النواقص الخطيرة، اشترط الألمان أن تُدفع فواتير -المعدّات والأدوية- بالقطع النادر وكان لأحد المبعوثين الألمان من ألمانيا الشرقية - أن

يقول كلاماً فظاً —لئيماً— أمام، أحد محاوريه السوريين: "بعض كبار ضباطكم يجدون الماركات اللازمة لشراء السيارات الكبيرة —البرلينيّة— من ألمانيا الغربية، لماذا إذاً علينا نحن أن نظهر المزيد من التفهّم؟".

والخلاصة ما لم نتصوّر أنّ حافظ الأسد هو في سياق القيام بمغامرة عسكرية مخاطرها كثيرة جداً —وهذا غير معقول إلى حدّ كبير— فليس هناك أيّ سبب للتفكير، على المدى المتوسط أن تأخذ دمشق المبادرة لبدء صراع مع الدولة العبرية. في الواقع، مثلما أعلن جيمي كارتر في 19 آذار 1990 مؤكداً أنّ الرئيس الأسد خوّله التصريح بأنّ سورية تدعم الدعوة لمؤتمر عالمي حيث تريد فيه التفاوض مباشرة مع إسرائيل في المشاكل المجمّدة بخاصة الأراضي السورية في الجولان المحتل منذ حرب 1967 والذي ضمّته الدولة اليهودية إليها عام 1981. وفي تعليق شخصي لمهندس الاتفاقات المنفصلة الإسرائيلية -المصرية في —كامب ديفيد— والتي، ويا للمفارقة، تجاهلت سورية، يقدّر أنّ اتفاقاً شاملاً للسلام في الشرق الأدنى يجب أن يحتوي بنداً عن إقامة منطقة منـــزوعة السلاح عمقها خمس كيلومترات على طرفي الحدود الدولية الإسرائيلية السورية. ومع أنّ الصحافة السورية لم تذكر أيّ كلمة عن هذا التصريح، يمكن التفكير منطقياً أنّ السوري الأول لم يكن معاد بشدّة له.

ولمدّة طويلة داعب الرئيس السوري الحلم بتحقيق تكافؤ استراتيجي مع إسرائيل. ولكن منذ أن عمد سفير الاتحاد السوفييتي إلى إزالة أيّ وهم في هذا الموضوع لحافظ الأسد —ولا يهمّ تفصيل كلامه— يبدو أنّ سورية بدأت

تغذّي طموحات أخرى. في 6 حزيران 1990 قال رئيس الوزراء محمود الزعبي بهذا الخصوص إنّ تحقيق التوازن الاستراتيجي —والذي صمّمت سورية على تحقيقه "لا يقتصر على المجال العسكري فقط ولكنّه يشمل النواحي السياسية والاقتصادية والعلمية"، "هذا الصراع، أضاف السيد الزعبي هو صراع وجود ومن أجل أن نربحه تحتاج سورية لكلّ الأسلحة الممكنة وبخاصّة مجتمع منظم سياسياً، نامٍ عسكرياً". والواقع أنّ رئيس الحكومة السورية، الذي لا يخون بالتأكيد، فكرة رئيسه، قصدّ أنّ التكافؤ الستراتيجي لن يكون ممكناً إلا بتماثل مستوى المعيشة في البلدين أو على الأقل مستوى التنمية.

من هذا المنظور، قلق الإسرائيليين الذي يظهر صداه بصورة منتظمة في الصحافة العالمية لا يرتكز على شيء ملموس حقاً، إلا إذا كان لضرورة التذكير الدوري للمسؤولين في دمشق بأنّ عليهم أن يبقوا حذرين. والتقرير عن توازن القوى في الشرق الأدنى الذي يُصدره كلّ عام مركز الدراسات الاستراتيجية في يافا بإسرائيل، استنتج بوضوح، في آب 1988 أنّ من غير المحتمل تقريباً أن تخاطر دمشق لوحدها، على المدى القصير، بالهجوم على الدولة العبرية، إلا أنّه لم يستبعدْه كلياً إذْ قد تؤدّي حادثة مفاجئة إلى تدهور الوضع بحيث يؤدّي لصراع.(224) والتطورات الجديدة على الساحة الدولية وبخاصّة الغياب النسبي للاتحاد السوفيتي يريح حكّام إسرائيل. ولتحاشي حدوث حرب يستمرّ السوريّون والإسرائيليون في امتحان بعضهم البعض عن طريق اللبنانيين الواقعين بين الاثنين. ولقد أثار غسّان تويني صاحب جريدة النهار اليومية موضوع عودة السوريين بقوّة عام 1987 إلى الساحة

اللبنانية وكتب بحَقٍ تماماً ما يلي:

هذه المرّة تتحرّك سورية (بتفويضين) إقليمي ودولي، وهذه الحال تسمح لها بلعب دورين: دور الطرف ودور الحكم المطلق في نفس الوقت. فلدمشق وليس لبيروت بعد الآن تُوجّه إسرائيل إشاراتها ورسائلها السلميّة التي ترتدي ثوب التحذيرات من الحرب. حرب لا يريدها أحد بعد الآن. لأن إسرائيل في الواقع، تستطيع إدارة حوار استراتيجي مع سورية بالتحرّك في لبنان. كذلك الأمر بالنسبة لسورية التي تستطيع هي أيضاً، التحرّك في لبنان فيما تحاور إسرائيل، وليس من الممكن أيضاً التفاوض مع واحد دون الآخر.[225]

هذه الأسطر القليلة تعكس أكثر من أي وقت مضى الحال التي كانت عليها الأمور بعد عدّة أشهر من التوقيع في 22 أيار 1991، على معاهدة الأخوّة والتعاون والتنسيق بين دمشق وبيروت.[226]

الخاتمة

من كان يعتقد أنّ من سمّاه طلاّب سورية في سنوات السبعينات (البسطار) أي جزمة العساكر سيبقى دائماً في السلطة حتى عام 1991، بعد أكثر من عشرين سنة من فرْض أنفسهم على رفاقهم في الحزب؟

وبطريقة ما، حتى بعد الاتصال ببعض من عرفوه جيّداً، وحتّى بعد تجريد آرائه وتحليل ردود فعله في محاولة ترتيب جدول حساب لنظامه، يبقى الرجل... لغزاً، ومثل كبار المتآمرين، حافظ الأسد هو رجل وحيد والعزلة (Solitude) لا تخيفه لأنّ تصوّراته لنفسه، والفكرة التي يصوغها لوظيفته في الحياة عالية جداً... بالنسبة لهذا الطيار القديم «القيادة هي ارتفاع» حسب تعبير (برتران دوجوڤونِل). "من برجه العالي يضيف (جوڤونِل) يلحظ الرجل الذي كبّروه ماذا يستطيع عمله مع هذه الجموع التي تُسيطر عليها الأهداف التي تنشدها، هل هي لمصلحة شعبه؟ من الممكن، هل تلائم رغباته؟ غالباً، وهل يقتنع أيضاً بسهولة أنّه لا يبغي إلا خدمة المجموع وينسى أنّ محرّكه الحقيقي هو اللذّة التي يشعر بها في عمله هذا...».

وفي الوقت الذي نعمل فيه (كشف حساب) لعقدين في السلطة يمكننا طبعاً الاكتفاء بالنصوص كأنّ ننطلق مثلاً في تحليل حكيم لمقابلات الأسد أو "تقديم سورية للعالم" كما فعل ذلك بفضول الجامعيّ اللبناني جوزيف ميلا.[227] «من بين كلّ الزعامات العربية أسد هو بدون شك الذي أظهر،

بالأسلوب الأفضل، هذه القدرة على تفسير السياسة التي ينتهجها وتنمية دوره الأساسي في استقرار المنطقة وأوضح للساسة الفاعلين –مهما كانوا– مَصْلَحتهم في إقامة حوار مع سورية». هذا ما كتبه بلا تردّد السيد جوزيف ميلا الذي ذكر أيضاً إنّه لا يمكننا فهمَ خطابات أسد «إنْ لم نضعْ في قلبها إيمانه الثابت بالأمّة العربيّة بحقيقتها وبوحدها المحتملة ومصيرها الخاص».[228] ومن نافلة القول أن نذكر أنّ رأيه هذا لا يشاطره فيه كلّ الناس. فبالنسبة للمعارضة السورية هناك شعار يلخّص تماماً النظام الحاكم، "كلّ واحد يعمل من أجل نفسه فقط أمّا العروبة فهي للجميع".

وفي معرض حديثه أيضاً عن العلاقات السورية الفلسطينية والسورية اللبنانية، يجد السيّد (ميلا) المراجع الغزيرة لتبرير الشيء ونقيضه في آن معاً. وهكذا يدافع الرئيس السوري عن كلّ تدخّلاته في شؤون القيادة الفلسطينية – المقابلة مع صحيفة (لوموند) في 2 آب 1984– ولكن في نفس الوقت من الطبيعي حسب رأيه أن تدعم سورية "الذين، يجسّدون في مفهومنا النضال الفلسطيني" (في نفس المقابلة).

ونفس الشيء بالنسبة للبنان حيث دخله السوريون بطلب من (الإخوة اللبنانيين) ولكن، أو في نفس الوقت، يفعلون فيه، أيّ في لبنان، ما يريدون فهُمْ في بلادهم "منذ قرون" –مقابلة مع التلفزيون الفرنسي في 30 تشرين أول –أكتوبر– عام 1987، ومجلة (لوپوان) في 26 كانون أول –ديسمبر– عام 1983؛ ويمكننا مضاعفة هذه الأمثلة للبرغماتية (الواقعية السياسية) المجرّدة حيث يجد فيها كلّ واحد حسابه وحيث الإيديولوجية لا تصلح قطّ إلا لتغطية إرادة

البقاء في السلطة مهما كان الأمر.

المشروع السياسي، الذي رأيناه عندما تولّى السلطة ليس متماسكاً أبداً. فالرجل يعمل في إطار بعض الأفكار البسيطة التي يلائمها حسب الظروف. فهو يعرف أحياناً أن يحيط نفسه ببعض الرجال المميزين بخاصة في السياسة الخارجية. أديب الدواودي المعتلّ صحياً والمتقاعد تقريباً منذ عدّة سنوات هو أحد هؤلاء. "يسير هذا الحمار –أسد– حسب نصائح داوودي" هذا ما كان يقوله أعداء النظام العنيدين في السبعينات. ومذّاك ظهر جيل جديد تدرّب في الغرب ومن أبرز ممثليه الأكثر شهرة ثلاثة مستشارين مسيحيين للرئيس هم:

جورج جبور، والياس جبران وجبران كوريّة... (ج.ج.ك) كما يقول السوريون. ولكنّ أسد يحذر من الشخصيات اللامعة جداً. فهو يفضّل عليهم بدون أيّ شك صورة الشخصية الباهتة لإبراهيم فوزي، علوي من لواء الإسكندرون ومستشاره للشؤون الدستورية. غير معروف لدى العامة و لم يظهر إلا مرّة واحدة منذ العام 1970 عندما نشر كتاباً عن الأحوال المدنية في الجاهلية والإسلام.(229) وإذا كان يجدد بانتظام الأشخاص في الأمور العسكرية أو الشؤون الاقتصادية أو في الإدارة اليومية لشؤون الدولة فالرئيس لا يأنف من إحاطة نفسه بأشخاص كانوا على علاقة قديمة به. وهذا صحيح بالنسبة لوزير الاقتصاد محمد العمادي تِقَنِيّ جيد معروف بالاستقامة، وهذا الأمر صحيح أيضاً بالنسبة لرئيس الوزراء عبدالرؤوف الكسم؛ كان أستاذاً ممتازاً في كلية الهندسة بدمشق قبل أن يصبح رئيس بلدية العاصمة دمشق ثم اختير لرئاسة مجلس الوزراء. وخلال فترة من الزمن حاول كتقنوقراطي جيّد أن

يضع "الرجل المناسب في المكان المناسب" ولكن حسن نيته وإرادته وكفاءاته تحطّمت على جدار الزبائنية والمحسوبيات لأنصار الحزب والفساد، ولقد رأينا في أيّة أحوال أُبعد عن السلطة آخر عام 1987. والأمر أكثر صحّة في موضوع وزير الدفاع مصطفى طْلاس ونائب الرئيس عبدالحليم خدّام والإثنان هما من المسلمين السنّة وكانا في أغلب الأحوال أقدم رفاق طريقه ولكن ليس لهما أيّة قاعدة شعبية أو عسكرية ولا يهدّدان أبداً سلطته.

أجهزة الإعلام الغربية التي جعلت من الوحشية غير المعقولة للنظام ومستوى الفساد الذي هو أحياناً فوق مستوى الإدراك شيئاً خيالياً مُتشجّعةً بموقف القادة الأمريكيين أو الأوروبيين، ولم تحفظ عن الجنرال الأسد، باستثناءات نادرة جداً تقريباً، إلا ما يناسبها: فهو الذي يجسّد الاستقرار لمنطقة في غليان أغلب الأحيان. وكان، خلاصة القول شريكاً مناسباً لأمريكا القوية منذ عام 1970 وقبوله القرارين 242 و338 لمجلس الأمن (ولم يكن هذا أمراً عادياً في سورية)، اتفاقية فكّ الارتباط عام 1974 مع إسرائيل برعاية كيسنجر، دخول لبنان عام 1976 بعد الضوء الأخضر من واشنطن، العودة لبيروت عام 1987، ثم مطاردة الجنرال ميشيل عون ودائماً بمباركة أمريكية، الاصطفاف مع الائتلاف ضدّ العراق منذ آب 1990 وهكذا نال حافظ الأسد استحقاقه جيداً من الغرب.

وصحيح أيضاً أنّ الأحداث برهنت فيما بعد أنّه كان صائباً في موقفه في نقاط ثلاث على الأقل: قبوله في شهر آب 1990 بتلبية كلّ المتطلبات العراقية والعودة إلى اتفاقات الجزائر لعام 1975 التي نقضها صدام حسين بفظاظة عام

1980 وسمح لحافظ الأسد بالحصول على نجاح سياسي جيّد بتكاليف بسيطة. لماذا؟ لأنّه قاد في الواقع حرباً دامية لمدة ثماني سنوات ليعود إلى نقطة الانطلاق الأولى؟ ثمّ، وفيما يخصّ لبنان، بعد الكثير من الكوارث، بل وبعد الكثير من الضحايا الأبرياء، انتهى الأمر به لإخضاع كلّ اللبنانيين وفرْض السلم السوري. وأخيراً، باختياره منذ غزو الكويت، موقفاً معارضاً للسياسات الانتحارية لصدّام حسين ودعمه السري ولكن الفعّال للغربيين. والواقع أنّ أسد فهم رأساً بعد ذلك أنّه إذا لم يصطف إلى جانب الائتلاف سيفقد إلى الأبد، ثقة الولايات المتحدة والأوروبيين، وإذا بقي خارج الصراع فلن يصفّق له السوريون لهذا الموقف. وهكذا قرّر بسرعة الخيار الأول.

غير أنه كان يستطيع في الحالات الثلاث أن يحتفل بالنصر على طريقة بيروس[*] بثمن باهظ جداً وبقيَ تحالفه مع طهران غير طبيعي فافتتاحية يوميّة (طهران تايمز) بالإنكليزية، وهي المقرّبة من الحكومة الإيرانية، أظهرت في 7 آذار —مارس– 1991 محدودية محور دمشق – طهران: "كيف تستطيع سورية، التي كانت غير قادرة على استعادة هضبة الجولان من ثلاثة ملايين إسرائيلي محتل التطلع إلى ضمان أمن كلّ دول منطقة الخليج الفارسي؟". هذا ما كتبته الصحيفة بعد يوم واحد من اجتماع في دمشق لوزراء خارجية سورية ومصر ومجلس التعاون الخليجي مخصّص لأمن منطقة الخليج. وبعدما أكّدت الصحيفة أنّ لا سورية ولا مصر لعبتا أيّ دور فاعل لإخراج العراق من الكويت"، ختمت المقال كما يلي: «قمة دمشق هذه تذكّر باجتماعات

---

[*] رقصة يونانية قديمة بالسلاح.

عربية أخرى والتي بقيت هي أيضاً بدون مستقبل».

في لبنان ومع إخراج ميشيل عون من الساحة، والتي كانت شعبيته في سورية في فترة معيّنة تماثل في ارتفاعها درجة الكره الذي يحمله له الأسد، تولد لدى الأخير الانطباع إنّه أنهى آخر المقاومات. إلا أنّ الرئيس السوري رجل أكثر حنكة من أن يجهل أنّه في مثل هذه الأوضاع ليس هناك ربح أبداً. وربما باستثناء بعض موارنة الشمال وبعض الشيعة القريبين من رئيس حركة أمل، نبيه برّي، ليس لدى اللبنانيين أيّ ميل له والكثير منهم يمقتونه. وليس هناك، لسوء الحظ، أي سيناريو لا يمكن تصوّره في لبنان ويمكن التساؤل منذ الآن ماذا قد يحدث إذا قرّر واحد أو آخر من أعداء النظام السوري الكثر، القيام بمحاولة اغتيال مثلاً الرئيس الحالي إلياس الهراوي، أو القيام بحملة إرهابية عمياء. السلام المسلح الذي يتمسّك به غالبية اللبنانيين هو بسبب الإرهاق أكثر ممّا هو القناعة، والهدوء الذي يسود لبنان منذ اندلاع أزمة الخليج — وليس من الصدفة أن تحطيم ميشيل عون حدث في الوقت الذي كانت عيون العالم كلّها متجهة نحو بغداد والكويت- من المؤكّد أنّه نال كلّ التقدير، ولكن سيكون مدهشاً إن استطاع البلد الانطلاق من جديد على أسس سليمة ما لم يجدوا حلاً شاملاً لأزمة الشرق الأدنى التي تضمّ ليس فقط، المسألة الفلسطينية، ولكن أيضاً العلاقات السورية — اللبنانية. من المسلّم به أنّ الرئيس السوري لن يأمر قوّاته بالانسحاب من لبنان طالما إسرائيل تحتل القطاع الحدودي في جنوب لبنان.

وأخيراً، خيار أسد بالاصطفاف مع الغربيين في حرب الخليج لا يأخذ كلّ

معناه إلا إذا كان الحلّ الشامل سيبدو في الأفق. ففي الأشهر القادمة أو السنوات القادمة إذا بقيت الولايات المتحدة عاجزة عن دفع عملية السلام إلى الأمام وتحريك حلفائهم الإسرائيليين، سيكون من الطبيعي أن يحتل واجهة المسرح (المتشدّدون) في العالم العربي. وحتى إذا برهن حافظ الأسد مرات عدّة عن قدرته على تغيير مواقفه والتزاوج مع الحالات الأكثر تناقضاً، سيصعب عليه جداً بلا شك تبرير الثقة التي وضعها في واشنطن.

بعد أكثر من عشرين سنة على وصوله للسلطة، التغيرات -في المواقف-، إذا أردنا حقاً بذل الجهد المتعب لمراقبتها عن قرب، هي كبيرة. ومهما كانت براعته ومهما بدا أحياناً أيضاً بعض ملامح عبقرية في الإدارة الآنية للأوضاع المعقدة لم يبق في الرجل الستّيني عام 1991 الشيء الكثير ممّا كان فيه -ربّما- كضابط بعثي في عقد الستينات. ففي تلك الفترة وحتى خلال السنوات الأولى من رئاسته كان للرجل مطامح إقليمية. ولكن منذ زمن طويل لم يدّع أبداً لَعِبَ دور على المستوى الإيديولوجي. فخطابه تطوّر بأسلوب ذي مغزى: فسورية ليست بعد الآن "قلب العالم العربي النابض"، وفي خطاباته الأخيرة. يتوجه الأسد إلى مواطنيه بكلمة "أيها السوريون" وليس أيّها الشعب العربي. وفي أحدث خطاب له في الثامن من آذار 1991 بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين للانقلاب الذي قاد البعث إلى السلطة، تكلّم عبدالحليم خدّام باسم الرئيس ولم يذكر ولا مرّة واحدة تعبير "الإمبريالية". والحقيقة أنّ عملية الكسر جرت عام 1976 مع دخول القوات السورية للبنان. لم يفهم السوريون -وكلمة (يفهم) ضعيفة هنا- كيف يستطيع جيشهم نجدة اليمين

اللبناني المسيحي وقِتال المقاومة الفلسطينية. وعمليات قمع الإخوان المسلمين ومذابح حماه عام 1982، أنهيا كلّ ما بقي لنظام أسد من شعبية، حتّى لا نقول من "شرعية"، فحتّى ذلك التاريخ كان من الممكن أن يصفّق له البعض دون أن يكون الأمر بالضرورة من حشد أجهزة المخابرات لمصفقين مأجورين! وقبلاً عند استلامه السلطة لم يعرف كيف يستغلّ فترة السماح التي مُنحت له، ذلك بعدم استجابته لما كان الشعب ينتظر منه. فحذره المَرَضيّ والذي تغذّى على مراقبته للعديد من الانقلابات، حثّه منذ مدّة طويلة على تبنّي المثل العربي الذي يقول: "يجب كسر البيضة قبل أن تفرّخ" لأنّنا لا نعلم أبداً كيف سيكون عليه الفرخ... وهكذا منذ استلامه السلطة وقانون الطوارئ مفروض دائماً حتى هذا العام 1991، رغم أن كل سنة يطلب منه العديد من الشخصيات رفع قانون الطوارئ.

ولكن الأسد فهم أيضاً أنّه إذا وصل للسلطة وهو لا يزال فيها فليس ذلك بسبب شعبيّته ولكن بسبب الجيش. وهذا الأخير على كلّ حال كان دائماً مدلّلاً —مدلّعاً– من قبل النظام الذي لم يسمح لنفسه باختيار حكم مدني حتى لا تتأثّر امتيازات العسكريين. ولأنّه السبب أيضاً في عناد الأسد في الحفاظ على نوع من الاقتصاد المختلط على حساب القطاع الخاص. ورغم أنّ السوريين كانوا تقليدياً تجّاراً ممتازين وأنّ البلاد استفادتْ بلا أدنى شك من معرفتهم بالتجارة، إلا أنّ الأسد رفض دائماً لأنّه ما أراد أن يحسب حساباً —أو تهدّده– قوّة اقتصادية مستقلة وصلبة. وفي سورية رجال الأعمال الناجحون كانوا دائماً تقريباً ومنذ عشرين سنة (شركاء) لضباط في الجيش. ولقد رأينا

النتائج في مستوى الفساد.

وهكذا إذن، وقبل عام 1970 كان هناك قيادة سياسية جماعية، اشتراكية الدولة، والتي كان حزب البعث يلعب فيها الدور الطليعي، أصبح النظام مع أسد رئاسياً (ديكتاتورية الفرد تحلّ محلّ ديكتاتورية الحزب)، وحلّ الاقتصاد المختلط محلّ الاشتراكية الجماعية ولعب الجيش دوراً مسيطراً وبتحديد أدق أزاح العسكريون في الحزب بصورة نهائية المدنيين الحزبيين. وفيما كان الرفاق السابقون لأسد يعتبرون العالم العربي منقسماً إلى (تقدّميين) و(رجعيين)، اختار أسد (التضامن) وهي لفظة مريحة لا تزعج أحداً وتسمح بالتأقلم (والتماشي) مع كلّ الحالات. ومع ذلك يجب الاعتراف بأنّه عندما أبعد صلاح جديد افتتح حافظ الأسد فترةً متميزة جداً بالاستقرار لبلاده، وفتح كذلك عدّة نوافذ على العالم الخارجي وانتهت العزلة البديعة وكانت أولى مبادرات الرئيس الجديد هي انضمامه لاتّحاد الجمهوريات العربية الذي ضمّ مصر والسودان وليبيا.

العديد من المعلّقين الغربيين، لا زالوا مأخوذين بشخصية رئيس النظام السوري لأنّهم لم يعيشوا داخل سورية ولم يعرفوا العنف الشرس لهذا النظام، إنّهم ينسون -عن عمد أو عن غفلة- أنّه من السهل جداً الحكم عندما يسمح النظام لنفسه بالسحق الدموي لكلّ ميل للمعارضة أو بترتيب الاغتيالات لأعدائه، سواء كانوا غربيين أم لا، بالمؤامرات أو بالعمليات الإرهابية الواسعة النطاق. ولكن رغم امتلاكه كلّ الوسائل الممكنة للردع كان على الأسد، مرات متعدّدة، أن يحاول كبح الفساد العام المنتشر من أجل تهدئة الشعب

السوري الذي بدأ يتململ للتحرك. هذه (النوايا الطيبة) اصطدمت دائماً بالعنف الشرس الذي طبّقه بمهارة مَنْ حوله من الحاشية دون أن يقول أو يغيّرَ، هو أيّ شيء فيه لأنّ بضعَ عشرات من الرجال الذين يمتلكون جزءاً من السلطة يُحيّدونَ بعضهم البعض، ويسمحون هكذا للرئيس بمتابعة طريقه بهدوء نسبي. ولكن الحوار القصير التالي —وهو حقيقي- يظهر جيداً محدودية المعركة التي تقودها السلطات ضدّ الفساد. بعد إطلاقه من السجن الذي قضى فيه عدّة سنوات لأسباب سياسيّة، روى المحامي الحوار (السوريالي) الذي أجراه مع أحد رفاق السجن المعتقل بتهمة تهريب العملة:

سأله زميل السجْن:

لماذا أنت هنا؟

سياسة!... وأنت؟

دولارات! مسكين أنت: أنا سأخرج خلال ستة أشهر، فلست مثلك. وبعد أسابيع قليلة أُطلق سراح (مهرّب العملة).

مما سبق، ولإفلات (وجهاء النظام) من أيّة عقوبات —على جرائمهم- يمكن الاستنتاج أن مراكز النفوذ تضاعفت في سورية منذ عدّة أعوام، كما لو أنّ داخل الدولة البوليسية قامت دويلات بوليسية صغيرة لا حصر لها، حيث يتمتع المسؤولون فيها باستقلال ذاتي كبير. ويُتَسَامح بكلّ تأكيد، مع هذه الحالة طالما أنّ السلطة العليا، سلطة رئيس الدولة، لا تتعرض لأيّ مساءله ولكن الحذر والانتباه لهذه الأخيرة لا يُمارسان حقيقة إلا على العسكريين، الذين هم وحدهم القادرون على تشكيل خطر على الرئيس. ربما يجب

الإشارة هنا لهذا الأمر في ضوء أنّ الأسد، كما رأينا، لا يملك القدرة على الاعتراض على الامتيازات المفرطة للكوادر العليا في النظام السوري (النُومانْكْلاتُورا) وليس لهذا النظام من البعث إلا الاسم. ومنذ زمن طويل لا ينتسب أحد إلى هذا الحزب عن اقتناع بل لأنّ بطاقة العضوية هي (سمسم) التي تفتح كل الأبواب.

بعدما وضع النظام الفلاحين والعمّال في أوعية مضبوطة، ركّز هجومه المباشر منذ أوّل عام 1978 على الأنتليجنسيا (المفكرين والمثقفين) والجامعيين والأساتذة الليبراليين. ففي كانون الثاني 1978 خلق رسمياً حُرّاساً للجامعات هدفهم ضمان الأمن داخل حرم الجامعات. ولأوّل مرّة في تاريخ سورية انْتُهِكت حرمة الجامعات ودخل الجيش رسمياً الحرم الجامعي ليبقى فيه. وتسلّمت إدارة التدريب العسكري المهمّة تحت سلطة رئيس الجامعة ومسؤوليته. والواقع انّ السلطة لم تجد أفضل من إدخال عملائها ذي الزيّ الرسمي الخاص، كذلك هناك شرطة بالثياب المدنية، لعزل وإرهاب الجسم الطلابي. ويبدو أنّ النظام نجح نجاحاً كاملاً في هذا التدبير لأنّ الكليات بقيت هادئة بعد ذلك.

وفي بداية الثمانينات حلّ النظام نقابات الأطباء والمحامين والمهندسين بعدما قامت بالإضراب، وشكّل مكانها نقابات خاضعة (لجزمة) النظام. وهكذا أُنجز تأطير المجتمع السوري لأنّ النظام أُدخل إلى المساجد وكانت الفسحة الأخيرة للحريّة، في سياق ضبْط المجتمع، وعيّن المشايخ (الأئمة والخطباء) الموالين له. وفي هذه الأثناء ذُبح آلاف المواطنين في حلب وحماه وتدمر وغيرها. ووصل

عدد السجناء السياسين إلى الآلاف. "في منطقتي، حوران ليس هناك قرية واحدة مسيحية أو مسلمة لم يُعتقل منها واحد أو اثنان أو خمسة أو عشرة سجناء سياسيين"، هكذا أكّد -لي- أستاذ مسيحي في جامعة دمشق، والذي استنكر بناء سجن ضخم جديد خارج مدينة دمشق على طريق حلب. وما جرى في حوران جرى أيضاً في جبل الدروز والجبل العلوي والغاب ومنطقة الفرات وكذلك، بكلّ تأكيد في كلّ المدن الكبيرة.

ومن المفارقة والتناقض أنّ الحريّة الوحيدة الباقية للفرد هي حريّة السرقة من هذه الدولة الفاسدة ليغتني على حسابها. كذلك يُلاحظ -في حزيران 1991- أنّ هواجس النظام باقية، فآلة الفاكس وآلات الاستتنساخ غير موجودة تقريباً في سورية. ولقد اشتكى ممثلو البرجوازية التجارية في ربيع عام 1991 للرئيس مصرحين أنّهم ليسوا في وارد المنافسة مع أضرابهم اللبنانيين والأردنيين. ويبدو في الواقع أنّ أعضاء (النومنكلاتورا السورية) الحزبيون قد استفادو حقيقة من عواقب أزمة الخليج. ولكن هؤلاء الطفيليين يدمّرون الدولة وإذا أرادت هذه الأخيرة تحاشي الإفلاس عليها أن تقرر تحرير الاقتصاد.

وأمام قوّة الجهاز العسكري ووسائله الهائلة للقمع، لا معنى كبيراً الآن للحديث عن إنجازات النظام. ما هي مصداقية سلطة لا تحتمل المعارضة وتضعها في سجونها، وهذا ما يقلق منظمة العفو الدولية،[230] «آلاف السجناء السياسين المعتقلين بدون محاكمة لم يحفظ أيّ اتهام ضدهم؟».

لذا فمهما كان التقدّم الحاصل على مستوى البنية التحتية -طرق وكهرباء- كما على مستوى التعليم أو بكل بساطة، على مستوى المعيشة،

كلّ هذه المكتسبات التي لا تنكر، وهي على كلّ حال مسائل طبيعية، تنمحي أمام الحالة المرعبة لحقوق الإنسان "للحكومة ذراع طويلة وذراع قصيرة، الطويلة هي للأخذ وللوصول إلى كلّ مكان، أمّا الذراع القصيرة فهي من أجل العطاء إلاّ أنّها تصل فقط إلى القريبين جداً"، هذا ما كتبه (إغناسيو سيلون).[231] ومن الصعوبة بمكان تلخيص حُكْم حافظ الأسد منذ خمسة عشر عاماً بأفضل من هذا القول؛ فريق مقتصر نسبياً عل المحاسيب والانذال يمارس ديكتاتورية حقيقية على البلاد ويجمع فوائد هائلة. ففي عهد البَقَرَاتِ السمان لا يستفيد الشعب إلا من فتات (قطعة الحلوى أو الكاتو) ولكن ما أن يبدو القحط والنقص والحاجة ليس للشعب خيار آخر غير السكوت خوفاً من اصطدامه بأجهزة القمع.

وإذا كان هناك غموض في حياة أسد فهو هنا بالذات: كيف لهذا الرجل الذكي المهموم إلى أقصى حد بشأن صورته، والذي ليس له أيّة خصوصية من أعراض مرض الشخصية (السَايكوبَاثيّة) التي نلقاها عند الكثيرين من الطغاة والديكتاتوريين، نقول كيف وصل إلى حدّ التعايش مع مثل هذه الحالة؟. والمؤكّد أنّ الحرب هي شيء جدي للغاية، حتّى نعهد بها إلى العسكر، وانتصار الجيش على الحزب وهو الواقع الذي طبع وصول أسد إلى السلطة افتتح التنبؤ السّيئ للمستقبل. ومن المؤكد أنّ دخوله سلك الضباط وأصوله - الريفية... وهو من الأقليات- لم تحضِّرْه أبداً لتنظيم إجماع من حوله في بلد يحذر دائماً فيه كل مواطن من الدولة المركزية. ولكن كلّ هذه العوامل لا تكفي لوحدها فقط لتفسير ما آلت إليه دولة البعث. ففي بلاد مثل سورية

حيث مفهوم المال العام والخدمات التي تقدّمها الدولة لم يكن بعد معروفاً تقريباً قبل أربعين عاماً، يُفترض برجال السلطة، أكثر من أي مكان آخر، أن يكونوا موجَّهين بقناعات قويّة خوفاً من فقدان الشعب الثقة بهم سريعاً. وبإمكان الدول العربية أن تسمح لنفسها بقيام زعامة سياسية متوسطة المستوى، ففي هذه الدول جيوش من الموظفين على كلّ المستويات قادرة على ضمان استمرارية الدولة والخدمات العامّة.

ويبدو أنّ هذا الأمر قد غفل عنه حافظ الأسد، والذي أسْهم في هذا الميدان في تقهقر الحالة بصورة بيّنة، بينما كلّ أفعال من سبقوه من البعْثيّين، بالرغم عن دوغمائيّتهم وقسوتهم الوحشية ورعونتهم حاولوا تحجيم النظام العشائري والولاءات، هادفين أن يجعلوا من كلّ فرد مواطناً عصرياً، أمّا الأسد فمن أجل تثبيتٍ أفضل لسلطته وليس لميوله لمجتمعه الأصلي، لم يجد أفضل من إحياء ماضٍ لا يريده أغلب السوريين لأنّهم تعذّبوا كثيراً منه. قبل ثلاثين سنة، الغالبية العظمى من السوريين واللبنانيين طالبوا بكلّ فخر بعروبتهم، اليوم كلّ واحد يتخندق وراء طائفته الأصلية وليس هناك حديث إلا عن مسيحيين ودروز وشيعة وسنّة وعلويين ويهود. وإسرائيل التي لها بوضوح مصلحة في بروز عدد من الدول الطائفية في المنطقة، أسهمت بالتأكيد في صبّ الزيت على النار، ولكن بمصادرة الدولة السورية لمصلحة طائفة علوية أقليّة، وبإضعاف وإذلال الدولة اللبنانية وصل النظام السوري إلى النتيجة المحزنة نفسها.

والأسوأ والأكثر إقلاقاً هو أنّ الجنرال أسد غير واعٍ، ربّما، للحالة المزرية

التي يجد المجتمع المدني السوري نفسه فيها؛ يكفي أن نتذكّر بأيّ حِدَّةٍ برّر ذبْح الآلاف في حماه من أجل أمن الدولة عام 1982، فما أن تهدّدت سلطته حتى صار كلّ شيء مسموح به. ومع ذلك، ربما لم يكن عند الرجل أيّ ميل للعنف المجّاني. وربما كان الأمر على العكس في هذا الحاكم الذي يعي الفترة التاريخية التي يعيشها، الرجل الموزون والمتوازن والذي يحسب حساب كلّ شيء ولا مجال عنده، تقريباً، لأيّ عمل مُرْتَجل.

ما بعد أسد

ولكن إذا فكّر، ويفكر، بكلّ شيء، فحافظ الأسد، على ما يبدو، لم يحلّ المشكلة الأكثر دقة، مشكلة خلافته. بالتأكيد، كما أشار (ألَسْتِير دْرِسْديلْ) وليس دون بعض السخرية: "إنّ لم يكن هناك شخص قوي لدرجة تهدده، فليس هناك، منطقياً أيّ شخصٍ قوي يستطيع معها خلافته".[232] ولقد سئل عن الموضوع مع ذلك، بعد عدّة أشهر من مرضه، سأله صحفي هل هو مهتم بمن سيخلفه، لم يردّ الأسد على السؤال مباشرة: "لا لم أشعر أبداً أنّي مهتم بذلك لسبب بسيط هو أنّ الدستور السوري هو الذي يجيب على هذا السؤال. الأعضاء (الواحد والعشرون) للقيادة القطرية للحزب ومجلس الشعب الذي هو السلطة العليا الشرعية في البلاد وأعضاؤه المنتخبون سيختارون مباشرة الشخص الذي يرغبونه ويتبع ذلك الاستفتاء عليه، فإذا نال مرشحهم الأغلبية سيكون الرابح وإلا سيختارون شخصاً آخر".[233] ولكن إذا كان الأسد، الذي لا يفكر للحظة بأنّه قد يترك منصبه ما دام حياً، يسخر في الغالب من الطريقة التي سينتخب فيها خليفته فإنّه بالتأكيد مهتم لمعرفة من

سيكون هذا المنتخَب السعيد؛ ومثل كلّ رجل دولة يتمنّى لجهوده، إن كان هناك مجهود، أن تستمر وهو مقتنع أنّ أحد المقرّبين أو أحد الأمناء فقط يستطيع القيام بهذه المهمة على الوجه المناسب.

ولمدة طويلة كان أخوه رفعت هو الصورة لوليّ العهد، ولكن سلوكه أثناء مرض الرئيس أفقده إلى الأبد كلّ أمل في خلافة أخيه الأكبر منه سنّاً، لأنّ المؤسسة العسكرية تعارض ذلك كليّاً. وبعد ابتعاده عن الأمور العامة منذ العام 1984، أصبح رفعت مجليّاً لحافظ، فشخصيّة هذا الأخير على كلّ حال هي أقل سوءاً في تقبّلها من الذي أصبح بلا شك بطل كل أنواع الابتزاز المالي بالعنف والتهديد في سورية.

ومع أن الرئيس كعادته، لم يفتح قلبه للموثوقين من حوله عمّا يحفظ لأخيه من خاتمة، وهو الذي يقضي اليوم حياته بين جنيف وماربيّا (في إسبانيا)، يمكن ملاحظة أنّه خلال المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث في كانون أول 1985، لم يُنتخب لعضوية القيادة القطرية ثلاثة من أتباع رفعت، الذين كانوا في القيادة، وهم أحمد دياب وناصر الناصر والياس اللاطي، وهي القيادة التي تشترك في اختيار المرشح لرئاسة الدولة. وفي آخر صيف 1987 عرض رفعت –وهو الشقي في منفاه الذهبي في أوروبا الغربية– على علي حيدر قائد القوات الخاصة، وأحد أقوى الرجال في سورية، مبلغ مليارين من الفرنكات الفرنسية لكي يحبّذ عودته –عودة رفعت– إلى سورية، فرفض حيدر بجفاء، وقال لأحد أصدقائه اللبنانيين الذي تعجّب كيف قطع حيدر الطريق عن أكبر صفقة مالية في حياته،: "ما أن يعود حتى يسرق مني المبلغ

كلّه، ويسجن كلّ أتباعي.."، وسواء كان هذا الحديث حقيقياً أم لا، فهذه الحادثة تكشف عن الأفكار المتداولة في الأوساط القويّة الاطّلاع في النومانكلاتورا السورية (عصبة الحزبيين النافذين في مراكز النفوذ). وهناك أخ آخر للأسد، جميل، الذي ذُكر اسمه في سياق الطامحين للعرش، ولكن العارفين بالنظام يستبعدون تماماً هذه النظرية لمحدودية أفق هذه الشخصية. وفي السنوات الأخيرة كانت أهم نشاطاته هي ضبط عمليات الترانزيت في مرفأ اللاذقية لأخذ (عمولة السمْسَرَة) إلى حد أنّ العديد من مخلّصي البضائع الجمركية لم يفكّروا إلا بترك مهنتهم! جميل على ما يبدو كانت عيونه أكبر من معدته، وربما كان عليه أن يستلهم من سلوك أخيه البكر إسماعيل المشهور بأبي توفيق، ودون أن يكون المزارع المتواضع الذي اختار الطريق التي كان يشعر أنّه يميل إليها: الأرض كما يحلو لـــ(لوسيان بترلين) أن يصفه؛[234] أبو توفيق لم يكن قطّ طويل الباع في شطط إخوته الأصغر منه، ولقد كان متضلّعاً في قبض الثمرة المتواضعة من تدخّلاته الكثيرة في الإدارات الحكومية السورية، لمن لا يريد أداء خدمة العلم، ولمن يريد دخول الجامعة أو لمن يريد نوال بعثة... الخ.

الواقع، أنّ الحالة الأكثر اهتماماً في العائلة كلّها، والحديث عنها قليل جداً، هي حالة باسل المولود عام 1962، وهو البكر لأولاد الرئيس الخمسة فبالإضافة للوسام الذهبي في الفروسية في دورة الألعاب المتوسطية باللاذقية في أيلول 1987، باسل هو مهندس مدني وكابتن –نقيب– في الجيش، فيبدو أن والده أراد له تربية مثل التي يحظى بها أولاد العائلات المالكة، دراسة

جيّدة، لغات أجنبية، رياضة كاملة. فباسل متسلّح بكل ما يلزم لمواجهة حياته المستقبلية، ومنذ العام 1985 يشاهد باطّراد في القصر الجمهوري محاطاً بالعديد من المستشارين المدنيين والعسكريين أعضاء حزب البعث أو أخصّائيين في الأسلحة الثلاث.

وخلال استعراضات عدّة قال الشهود إنّهم صُدموا برؤية المكان الذي احتلّه الكابتن باسل الأسد، والذي يشبه بشكل مثير مكان (الوصيّ). ورغم أنّ عدنان مخلوف قريب زوجة الرئيس يحمل لقب رئيس الحرس الرئاسي، فالسيد الحقيقي هو باسل المرتبط جيداً بأكثر ضبّاط الحرس، وهذا الأخير يضمّ آلاف الرجال الذين جاء الكثير منهم من سرايا الدفاع القديمة لرفعت الأسد، (وأيلول عام 1990 شهد زيادة في تعداده). وباسل هو الثاني بعد والده في كثير من المجالات، وبخاصّة في كلّ ما يمتّ إلى الحكم المحلي. وأبوه يحوّل له المراسلات، وهو الذي يجيب عليها خالقاً بذلك سلسلة من الأمناء المخلصين في كلّ البلد.

ولباسل عدّة ميّزات؛ أولاً لم يدخل الحياة السياسية عن طريق المنازعات، وليس له إذن أعداء حقيقيون، ثم إنّه لم يشترك بأي نوع من الابتزاز بالتهديد والعنف، وليس متّهماً في أيّة قصص مالية قذرة غير مشروعة، والتي لطّخت إلى الأبد صورة جزء كبير من عائلة الأسد. فبين كلّ أفراد (العائلة) بالمعنى العشائري للتعبير، هو إذن، مع إخوته الثلاثة الأصغر منه، الأكثر لياقة للعرض، ويمكنه أن يشكّل حلاً تغييرياً.

هذا النوع من السيناريو يجعل أعداء النظام يتسممون. فبالنسبة لهؤلاء ليس هناك شكّ أنّ ا(المؤسسة)، تلك المؤلّفة من أربعين عسكرياً من الرتب العالية،

يقودها بعض الضباط الكبار، وبالأخصّ عصابة (علي)[335] ليس لها أيّ نيّة أن ترى نظاماً ملكياً يقوم تحت سمعها وبصرها، وإنّها ستكنس بساعات عدّة هذا الطائش الحقير وتضع مكان حافظ أسد رجلاً موثوقاً لا يعترض على مكتسبات (المؤسسة)!

الواقع كلّ شيء يعتمد على ما تقرّه القوّة التي عرف باسل أسد إقامتها بمساعدة والده، من الآن حتى يأتي الوقت المناسب. إذا كان له ذكاء والده التكتيكي وبراعته، من ناحية أخرى إذا كان لديه الشجاعة ليخاطر بمواجهة حلفاء والده المؤتمنين فكلّ الآمال مسموح بها له.

مع ذلك لا باسل الأسد ولا رجال النظام الحالي سيشكّلون أيّ حلّ مُرْضٍ للشعب السوري، الذي يذكر طواعية هذه القصة القديمة: كان هناك من قديم الزمان ملك طاغية حقيقي نشر الرعب على أراضي مملكته، وكان يقطع رأس أتباعه عقاباً على أيّة هفوة بسيطة. وعند موته، كما يُتَصَوّر، استقبل الناس النبأ بالسرور العارم، ولمّا تسلّم ابنه المُلْك وجد أنّ أباه كان ضعيفاً خلال عهده فلم يعمد هو إلى قطع الرؤوس الكثيرة فقط، بل أراد أن يعطي لكلّ عمليّة إعدام أمثولة خاصّة، لذا بعد قطع الرؤوس أمر بتعليقها على الخازوق وعرضها في وسط المدن. فبدأ الناس المرعوبون يدعون لله القوي القادر بالرحمة على والده!

لا أحد يستطيع اليوم أن يتنبأ بما سيحدث للنظام السوري إذا غاب الرئيس الأسد. لقد أعيد انتخابه عام 1985 لسبع سنوات فالمسألة ليست واردة الآن. ولكن يجب استحضار المشهد لأنّ رئيس الدولة صفّى كلّ معارضة محتملة من أبناء جيله أو من الأكبر منه. والباقون يشكّلون أحد أجمل

خلجان الشرق الأوسط حيث التنافس لا يعرف الرحمة، فإذا تسلّم أحدهم أو حتى ابنه الذي تربّى في مدرسة قاسية واستطاع أن يفرض نفسه، عندها ربما سيأسف السوريون بالفعل على حافظ الأسد، ويترحّمون... على الطاغية الأول.

ملاحق

اللجنة العسكرية

لعبت اللجنة العسكرية دوراً هاماً في الحياة السياسية السورية المعاصرة. أصولها، وبخاصة دورها الأساسي في سنوات الستينات، دُرِست بتفصيل من قبل الباحث الإسرائيلي إيتامار رابينوفتش الذي عمل بدءاً من نصوص حزب البعث، وبخاصة تآليف العديد من البعثيين السوريين أو الأردنيين مثل منيف الرزاز.

رغم عدم وجود أيّة معلومات موثوقة تماماً عن جذور المجموعة وأهدافها الأصلية، مع ذلك من المتعارف عليه بصورة عملية أنّها تشكّلت في مصر عام 1960 بصورة سرية؛ ثلاثة عشر ضابطاً سورياً نصفهم من العلويين، انـــزعجوا من الوجهة التي اتّخذتها الوحدة السورية المصرية، ولم يقبلوا حلّ الحزب لنفسه، فجهدوا لإحياء (المنظمة العسكرية) القديمة لحزب البعث التي كانت موجودة في سنوات الخمسينات، ولم يخفوا معارضتهم للزعماء القدامى للحزب وللضباط القريبين منهم. والرجال الثلاثة الذين لعبوا على ما يبدو الدور المسيطر في خلقْ اللجنة العسكرية هم صلاح جديد، محمد عمران وحافظ الأسد، وكان عمره ثلاثين سنة، وطيلة حياة الوحدة في مصر كان دور اللجنة في الواقع صفراً؛ وما كان باستطاعة أحدٍ الاعتقاد أنّها ستلعب دوراً أساسياً بعدَ الانفصال. فمنذ حدوث الانفصال لعًب أعضاء اللجنة سراً ورقة الضباط المناوئين لعبدالناصر وكان هدفهم القدرة على العودة للانضمام

إلى الجيش، وكانت أغلبيتهم قد استُبعِدت منه. وفي 13 آذار 1963 وخلال انتخاب قيادة قطرية جديدة اعتُرف رسمياً بوجود لجنة عسكرية، وأوكل إليها الإدارة المستقلّة والتامّة القطاع العسكري للحزب، وكان لها تمثيل قوي في القيادة القطرية. وحسب وثيقة حزبية داخلية في تلك الفترة كانت وظيفة اللجنة العسكرية "إقامة تنظيم عسكري سري يؤمن بمبادئ الحزب".

والواقع أنّه في تلك الفترة كان اللعب بأقدار سورية التي وقعت تدريجياً تحت سلطة العسكريين، وتبعاً لذلك كان العسكريون، حتّى ولو أنّ صلاح جديد ترك اللباس العسكري عام 1966 بعد الانقلاب، يسيطرون على أجهزة الدولة الحيوية. وما تبع ليس إلا تكراراً لتصفية الحسابات بين مجموعات عسكرية متنافسة سواء داخل الجيش أو في الأحداث المختلفة للحزب. وفي هذه اللعبة تميز حافظ الأسد وخلال أربع سنوات فرض نفسه القائد الحقيقي للجيش والبلد.

التعذيب في سورية

خروقات حقوق الإنسان هي في عصرنا هذا العملة الرائجة، ومن أجل مكافحة السلوك الكيفي التعسّفي للكثير من الدول؛ تقود منظمة العفو الدولية منذ سنوات طويلة معركة مستمرة للدفاع عن حقوق الإنسان. وتنشر كلّ عام تقريراً ثمرة أبحاثها الدقيقة والمعلومات الموثّقة دائماً بشهادات، وقليلة هي الدول التي تنجو من كلّ نقد، ومع ذلك عندما تأخذ أوضاع "معتقلي الرأي" أبعاداً لا تطاق تنشر هذه المنظمة المشهورة ملفّات خاصة. الاتحاد السوفييتي، رومانيا، كمبوديا، إيران، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية (عقوبة الإعدام

في الولايات المتحدة هي يانصيب مرعب)، كلّ هذه الدول كان لها الامتياز المحزن بجلب انتباه مسؤولي منظمة العفو الدولية. وفي شهر تشرين أول — أكتوبر– عام 1987، أصدرت منظمة العفو الدولية تقريراً من خمس وخمسين صفحة عن سورية، "سورية — التعذيب الذي تمارسه أجهزة الأمن". وفي قمّة مباريات الرعب التحق النظام السوري باللائحة الصغيرة لأبطال التعذيب في العالم.

وما بين البيانات الرسميّة والواقع الحزين، سنرى في الصفحات التالية عمق الطلاق بين الإثنين.

"لن يتعرض أحد للتعذيب الجسدي أو النفسي أو لمعاملات مهينة، والتشريعات تحدد العقوبات التي تُطبق على مثل تلك الحالات". (البند 28 من الدستور السوري لعام 1973).

"أي واحد يُخضع شخصاً آخر لكل أنواع العنف الممنوع قانوناً، من أجل الحصول على اعترافات أو معلومات تتعلق بأي جرم، يعاقب بالسجن من 6 أشهر إلى ثلاث سنوات. وإذا أدّى هذا العمل المرفوق بالعنف إلى جروح أو مرض يفرض القانون عقوبة السجن لسنة واحدة على الأقل (البند 391 من قانون العقوبات الصادر في المرسوم الاشتراعي رقم 148 في 22 حـــــــزيران 1949. ولقد وقعت سورية في 21 نيسان 1969 على الميثاق العالمي المتعلق بالحقوق المدنية والسياسية.

الوقائع –على الأرض–

درست منظمة العفو الدولية أنواع التعذيب وسوء المعاملة المطبّقة في سورية وعددها (38) طريقة للتعذيب.

وأساليب التعذيب وسوء المعاملة هذه التي ضمتها اللائحة على أساس شهادة المعتقلين السابقين التي وَصَلَتْ للمنظمة منذ عدة سنوات، ليست منتشرة في كلّ أنحاء سورية، فالكثير منها استعمل فقط في بعض السجون أو مراكز الاعتقال أو التحقيق.

1- الضرب: باليد أو الركل بالرجل على جميع أنحاء الجسم؛ فالمعتقلون يصفعون ويضربون بحزام من الجلد، وبالعصي وبالسياط وبالمطارق وبالأسلاك النحاسية؛ أو بأسلاك أطرافها على شكل خيوط.

2- الدولاب: تعليق الضحية بدولاب معلق ويضرب السجين بالعصي والمطْرقة والأسلاك أو السياط.

3- الفلقة: الضربات تركّز على أسفل القدمين.

4- بساط الريح: تُربط الضحية لقطعة من الخشب لها شكل جسم الإنسان ثم يضرب المعتقل أو يعذب بشحنات كهربائية على كلّ أنحاء الجسم.

5- الشبح: تُربط اليدان خلف ظهر المعذّب، ثم يعلّق من ذراعيه أو قدميه ويُطبق عليه نفس الأسلوب السابق الذكر من ضرب أو شحنات كهربائية.

6- العبد الأسود: يعلّق الضحية إلى آلة مكهربة وعندما يصلها التيار

تدخل الأسفين الساخنة في الدبر.

7- الكرسي الألماني: تُربط الأيدي والأرجل بكرسي معدني يضم أجزاء متحركة ويمال المسند إلى الخلف مسبباً تمدّداً شديداً في العمود الفقري، وضغطاً قوياً على العنق والذراعين والفخذين. ويؤدي هذا الوضع إلى صعوبات في التنفس قد تصل حدّ الاختناق، وفقدان الوعي وفي بعض الحالات إلى كسور في الفقرات، وفي بعض التنويعات على هذه الطريقة ما يسمى بالكرسي السوري، ألواح معدنية تثبّت على قائمتي الكرسي الأماميتين في مكان ربط رجلي الضحية مُسبّبة نزيفاً شديداً من الكعبين عندما يمارس الضغط عليها. والطريقتان السالفتان يصاحبهما الضرب باليد أو بالسوط.

8- الغسّالة: على المعتقل أن يضع ذراعيه في طنبور فارغ يشبه داخل الغسالة حيث توضع الثياب وتسحق ذراعاه أو أصابعه.

9- استعمال آلات المطبخ لحرق بعض أجزاء جسم المعتقل كالقفص الصدري أو الظهر أو الأعضاء التناسلية أو القدمين أو القفا. والآلات المستعملة هي التالية: سخّانة كهربيائية (بالون ماء ساخن) يدفع المعذّب ليستند إليه. سخانة على الكازولين مغطاة بلوحة معدنية حيث يُجبر المعذّب على الجلوس فوقها، مكواة، آلة اللحام الكهربائية.

10-وضع قطعة قطن مغموسة بالكحول أو البنـــزين على أجزاء مختلفة من الجسم، ثم إشعالها بعد ذلك أو يُسكب البنـــزين على القدمين ثم تشعل النار فيها.

11-خرق ظهر أو بطن المعذّب بسيخ معدني مدبب ومحمي على النار.

12- إطفاء لفافات التبغ – السجائر المشتعلة في الأجزاء الحساسة من الجسم، استعمال (القداحات) لحرق شعر الجسم أو شعر اللحية أو الشارب.

13- وصل تيار كهربائي بأجزاء الجسم الحساسة كالأذنين والأنف واللسان والرقبة وأصابع اليدين والأعضاء الجنسية والدُبر والقدمين.

14- وضْع ملح أو مواد حارقة (أحماض أو قلويات) على الجروح والحروق في جسم المعذّب.

15- شطْب وجه المعذّب، أو الشفاه، الأذنين، الأنف، بشفرة حلاقة أو بآلة حلاقة يدوية، أو بالشفرة.

16- إجبار المعذّب على الوقوف عاري القدمين مستنداً إلى الحائط ويداه مربوطتان فوق رأسه، وتسحق أصابع رجليه وقدميه بواسطة كعب (بسطار) بحركةٍ دائرية.

17- ضرْب لمدة طويلة على جزء واحد من الجسم (بخاصة الرأس) بعصا طويلة ورفيعة وفي طرفها كرة معدنية.

18- تعليق المعذّب من يديه أو من رجليه إلى جسم السرير أو من رجليه إلى سلّم وضربه باليد أو بالسياط.

19- الفرُّوج: تعليق المعذّب على عمود خشبي يدار ويشبه سيخ شواء الفروج وضربه بالعصا.

20- تعليق المعتقل من عنقه لمدة طويلة ولكن بطريقة تتحاشى كسْر عنقه.

21- تعليق المعتقل على مروحة كهربائية مثبتة في السقف وضرْبه عندما تدور المروحة.

22- إجبار المعذّب التمدد بلباسه الكامل في مغطس مملوء بالماء لمدة طويلة أحياناً كلّ الليل وأحياناً يرش عليه الماء وهو في المغطس.

23- صبّ الماء المغلي والبارد بصورة دورية متناوبة أو رشّه بها.

24- نـــزع الشعر أو الجلد بملاقط كمّاشات محمّاة.

25- نـــزع أظافر اليدين والرجلين.

26- اعتداءات جنسية و(خدمات جنسية) على المعتقلين.

27- إجبار المعتقل على الجلوس على عنق الزجاجة أو إدخال زجاجة أو عصا في دبره.

28- إجبار السجين على الوقوف على رجل واحدة لمدة طويلة مع تحميله أوزاناً ثقيلة.

29- وضع السجين منفرداً في زنـــزانةصغيرة معتمة بدون أي احتكاك إنساني به لعدّة أيام.

30- ترْك الإضاءة خلال نوم السجين أو لمدة طويلة أو قصيرة ليلاً نهاراً وفي بعض الحالات لعدّة أيام.

31- إسماع المعتقلين عبر مكبرات الصوت موسيقى عالية الصوت أو صرخات أشخاص يتألمون تحت التعذيب.

32- إخضاع السجين إلى محاولات إعدامه، بتغطيس رأسه في الماء إلى حدّ الإختناق.

33- المقصلة: إجبار المعذّب بالتمدد على ظهره بمواجهة مقصلة ويوضع عليها جهاز يوقف المقصلة قبل لحة من وصولها لعنق المعذّب.

34- تهديد المعتقل بقولهم له أن أقرباءه أو أصدقاءه سيعذبون أو يُغتصبون أو يُعتدى عليهم أو يخطفون أو تُقطع أطرافهم أو يعدمون.

35- تعذيب معتقلين آخرين بحضور المعذَّب.

36- تعذيب أقرباء المعتقل أمامه أو حتى اغتصابهم أو تعريضهم للعنف الجنسي.

37- إذلال المعتقل باستعمال الشتائم القذرة أو الفاضحة أو بإجباره على التعري أمام حراس من جنس آخر.

38- حرمان المعتقل من النوم والأكل والماء والهواء النقي. ومنعه من الذهاب إلى المرحاض ومن الاغتسال، ورفض السماح بزيارة أقربائه له، وحرمانه من العناية الطبية.

حزب البعث

يحتل حزب البعث في هذا الكتاب مكاناً أساسياً، وجوده وعمره يختلطان عملياً بوجود وعمر حافظ أسد الذي كان صبياً عندما بدأ مؤسسو الحزب حلمهم في خلقه. ورئيس الدولة السورية الحالي انتسب للحزب منذ مؤتمره الأول عندما كان عمره خمسة عشر عاماً، وعاش بعد ذلك كلّ مراحل نموه وكل أزماته قبل أن يصبح أحد اللاعبين الرئيسيين ثم أصبح المسؤول الأول. منذ عام 1971 كان الأمين العام للحزب، ومن أجل هذه الخصائص الرئيسية، الجذور، التاريخ، الإيديولوجيا، التنظيم،...الخ، استندنا أساساً على أعمال (فيليب روندو) وبخاصة على (إليزابيت بيكار)، في فرنسا، وهي التي لديها بالتأكيد أفضل دراسة عن آلية عمل —الحزب– وبعض المقتطفات التالية هي من كتاب فيليب روندو 1978 (La Syrie que sais-je) (سورية ماذا أعرف عنها).

(ماذا أعرف عن سورية؟)

عقيدة البعث هي من إنتاج ميشيل عفلق بصورة رئيسية، ولكنها تحمل في نفْس الوقت طابع الأرسوزي والبيطار وكذلك الحوراني. وهي مختصرة في الشعار: وحدة، اشتراكية، حرية، وممارسة الاعتقاد بـــ"أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة". والمبادئ محددة في دستور يُرجع إليه باستمرار. وتسيطر فكرتان أساسيتان على الدستور: "يشكل العرب أمّة واحدة، والوطن (العربي) هو وحدة سياسية واقتصادية لا يمكن تجزئتها، والأمة العربية تشكل وحدة ثقافية، والوطن العربي هو ملك للعرب".

والفكرة الكبيرة الثانية تُعنَى بشخصية الأمة العربية "وتختص بفضائل ناتجة عن انبعاثات متتالية، كذلك يعتبر البعث أنّ الاستعمار وكلّ ما يتعلق به يشكل مؤسسة مجرمة، والإنسانية مجموعة واحدة ومصالحها متضامنة وقيمها وحضارتها مشتركة. ويَغْتَني العرب بالحضارة العالمية ويُغنوها بدورهم. ثم تأتي بعد ذلك المبادئ العامّة التي يمكن تلخيصها في بعض التصريحات.

- حزب البعث العربي هو حزب شامل. له فروعه في كل البلاد العربية ولا يقرب السياسة القطرية إلا من الزاوية العليا للقضية العربية.

- حزب البعث العربي هو حزب عربي قومي. ويؤمن أن القومية واقع حي وخالد. والفكرة القومية التي يدعو لها الحزب هي إرادة الشعب العربي في التحرر والوحدة.

- حزب البعث العربي هو حزب اشتراكي. إنه يؤمن بأن الاشتراكية هي ضرورة نابعة من أعماق القومية العربية.

- حزب البعث العربي هو حزب شعبي. يؤمن أن السيادة هي ملك الشعب الذي هو وحده منبع كل سلطة. ويعتقد أن قيمة الدولة تنتج من إرادة الجماهير...

- الوطن العربي هو ذلك الجزء من العالم حيث تعيش الأمة العربية، ويمتد ما بين قمة جبل طوروس وجبال Pocht-Ikouh، وخليج البصرة وبحر العرب وجبال الحبشة والصحراء الأفريقية والمحيط الأطلسي والبحر المتوسط.

أخيراً: صوت الحزب أو النداء يعطي التوجيهات لكل قطاعات الحياة.

– السياسة الداخلية: « نظام الدولة العربية هو نظام برلماني دستوري... والرابطة القومية هي الوحيدة السائدة، والجهاز الإداري هو جهاز لا مركزي وسلطة القضاء مستقلّة، وحقوق المواطن مؤمنة بكاملها... »

– السياسة الخارجية – « السياسة الخارجية مستوحاة من مصلحة القومية العربية... يناضل العرب بكل قواهم لإزالة كل نفوذ سياسي أو اقتصادي أجنبي في بلادهم... »

– السياسة الاقتصادية – الثروة الاقتصادية هي ملك الأمة... واستغلال جهود الآخرين أمر ممنوع والملكية الزراعية محدودة... تحت إشراف الدولة ومتطابقة مع الخطّة الاقتصادية للمجموع... العمال يشتركون في إدارة المشاريع... ولهم بالإضافة لراتبهم جزء من الأرباح.

– الملكية والوراثة هما حقّان طبيعيان اثنان... هناك تخطيط عام

– السياسة الاجتماعية: العائلة هي الخلية الأساس. والعمل هو فريضة... نقابات حرّة للعمال والمهنيين. وهي مشكّلة من مجالس قضاة في محاكم العمال. ولقد أنشئت ثقافة قومية عامة عربية ليبرالية، تقدمية، إنسانية وسيجري تحريكها وتطويرها. والعمل الفكري هو من أقدس الأعمال وفي حدود فكرة القومية العربية ستُعطى كل الإمكانات والحريات لتأسيس جمعيات وأحزاب... التمييز والانفصال الطبقي أمور ملغاة. والبدو الرحل هي حالة اجتماعية بدائية... »

– التربية والتعليم: الطابع القومي العربي هو رمز كل أوجه الحياة الفكرية والاقتصادية والسياسية والهندسية والفنية. والتعليم هو شأن خاص بالدولة فقط وهو مجاني»

الهوامش

(*) ويقصد الكاتب هنا النظام في سورية وليس شعب سورية. (المترجم).

Prologue

(1) Dont l'organisation, le Fatah-Conseil révolutionnaire, est esponsable en janvier 1991 des assassinats d'Abou Iyad et d'Aboul Hol. Reste à savoir pour qui travaillait Abou Nidal. La Syrie avait certainement de bonnes raisons de vouloir déstabiliser l'OLP de même qu'Israël à la veille du début de la guerre des Alliés contre l'Irak. Mais l'Irak n'aimait pas Abou Iyad qui n'avait pas caché son hostilité à l'invasion du Koweït...

(2) Friedman (Thomas), From Beirut to Jerusalem, Douglas (U.K), Fontana-Collins, 1990, p. 144.

(3) Durant toutes les années soixante-dix, une livre syrienne équivalait à environ un franc français. Après l'effondrement de la livre libanaise en 1982, la livre syrienne commença à chuter. En 1991, il faut de huit à dix livres syriennes au marché noir pour un franc français.

Quelques points de repère

(1) Hureau (Jean), La Syrie aujourd'hui, Paris, Editions Jeune Afrique, 1984, p. 35.

(2) Bureau central syrien des Statistiques, 1989.

(3) Reclus (Elysée), L'Asie antérieure in Géographie Universelle T.9, Paris, 1885, p. 786.

(4) Le SMIC était en 1990 de 640 LS (80 FF au marché noir, 160 FF au taux officiel).

(5) Bureau central syrien des Statistiques (projections pour 1990).

(6) Samir enseigne aujourd'hui la physique en banlieue parisienne. Entre-tien avec l'auteur.

(7) Discours devant le Parlement. Mars 1989.

(8) Assad (Hafez al), Kadhalika qâla al Assad (Ainsi parlait Assad): Morceaux choisis des discours et interviews d'Assad pieusement recueil-lis par son vieux compagnon Mustafa Tlass, ministre de la Défense depuis 1970 et editeur à ses heures perdues. Un modèle de langue de bois mais dont on ne peut éviter la lecture si l'on veut pénétrer au cœur de l'univers assadien...

(9) On notera au passage que ces militants intègres et dévoués ont tous disparu de la scène politique. Quand ils ne sont pas morts comme Wahib

Ghanem (qui fit entrer Assad au parti Ba'ath), ils se trouvent en exil (Akram Haurani, près de Paris), en prison (Ichaoui) ou ont passé de longues années en prison (Youssef Oudat). Tout ceci explique peut-être pourquoi depuis quelques années les paysans, meilleurs soutiens du régime, ont commencé à le lâcher et que, en 1990, Assad et son Premier ministre Mahmoud al Zohbi, ingénieur agronome et sunnite originaire de la province, ont voulu faire un gros effort en faveur du monde rural.

(10) Devlin (John), Domestic factors of positive support for the Assad regime, Swarthmore Pennsylvania, Communication présentée en 1985 à Boston lors d'un colloque tenu à l'initiative de la MESA (Middle East Studies Association), pp. 9 et sqq.

(11) Ibidem.

(12) Ses membres aimaient à dire: "Nous les sovkhoziens..."

(13) Metral (Françoise), La Syrie aujourd'hui, ouvrage collectif publié par le CNRS en 1980, p. 304.

(14) Ibidem.

(15) Hannoyer (Jean), Les grands projets hydrauliques en Syrie ou la tentation orientale, Paris, été 1985, in Maghreb-Machreq, p. 24.

(16) Ibidem.

(17) Mustafa Kemal Atatürk. Fondateur de la Turquie moderne. La construction du barrage Atatürk a entraîné une vive polémique au début de l'année 1990 quand les autorités turques ont interrompu durant plusieurs semaines l'écoulement de l'Euphrate pour la plus grande inquiétude des Syriens et des Irakiens.

(18) Hannoyer (Jean), op. cit., p. 41.

(19) Assad (Hafez al), op. cit., pp. 365 et sqq.

(20) Déclaration du ministre syrien de l'Education reprise par la presse syrienne, le 3 octobre 1988.

(21) Bureau central syrien des Statistiques: 1971 et 1983.

(22) Annuaire économique et géopolitique mondial, p. 404.

(23) Chatelus (Michel), La Syrie d'aujourd'hui, op. cit., p. 250.

(24) Ibidem.

(25) Entretien d'un des étudiants avec l'auteur. Avec le recul, cela fera sourire tous ceux qui dénoncèrent l'appui de Damas à Téhéran durant la guerre irako-iranienne. Les liens entre la Syrie et les Emirats arabes unis sont d'ailleurs si ténus à l'époque qu'une "noukta" (bon mot) circule à Damas: le ministre des Affaires étrangères Abdel Halim Khaddam envoie son fils chez un des princes qui dirigent les Emirats. Celui-ci lui ayant offert de

l'argent, le petit Khaddam téléphone à papa: "Dis, je prends?" "Oui, bien sûr, c'est ton oncle."

(26) "La Syrie ne se laissera dicter ni le lieu ni la date de la bataille avec l'ennemi sioniste"; répètent depuis la nuit des temps les médias syriens.

(27) Ce type de contributions n'est jamais intégré dans les comptes de l'Etat. On imagine facilement leur destination finale, du moins pour l'essentiel.

(28) Inutile de dire que le trafic continue de plus belle. James Paul, dans un mémorandum sur les violations des droits de l'homme en Syrie en cours de publication et dont nous avons pu avoir accès à une copie originale, consacre un chapitre édifiant sur les avantages retirés par la Syrie dans le trafic de drogue. Le 1[er] mars 1991, le président George Bush a d'ailleurs maintenu la Syrie, en compagnie de l'Iran et de l'Afghanistan, sur la liste des pays privés d'aide américaine parce qu'ils ne luttent pas contre la drogue. Au Liban lui-même, l'argent n'a pas d'odeur et depuis le debut de la guerre civile en 1975 le haschisch a franchi sans problemes tous les barrages érigés par les miliciens de toutes les confessions et par les soldats syriens.

(29) Les militants purs et durs du Hezbollah avec l'accord de leurs "parrains" iraniens ont aussi touché à l'argent de ia drogue. Il est vrai que pour les chiites de la Bekaa le haschisch constitue pratiquement l'unique ressource.

(30) Ce que Michel Chatelus appelle "les revenus transférés" par opposi tion aux "revenus d'activités productives".

(31) Seurat (Michel), Etat et industrialisation dans l'Orient arabe: les fondements socio-historiques, in Industrialisation et changements sociaux dans l'Orient arabe (Centre d'études et de recherches sur le Moyen-Orient contemporain, CERMOC, Beyrouth, 1982), p. 82.

(32) Khader (Bichara) L 'industrialisation arabe in Les Cahiers de l'Orient, n°6, second trimestre 1987, p. 80.

(33) Entretien avec l'auteur. Vieil homme politique syrien, Akram Haurani vit en exil près de Paris. Fut très influent dans les-années cinquante.

(34) Face à tant de corruption et d'excès, le petit peuple syrien se refugie dans le rire. Pendant l'été 1987, tout le pays se racontait l'histoire suivante: incapable de payer les taxes exorbitantes réclamées par les douanes syriennes et dont le produit, jugeait-il, allait dans les poches de fonctionnaires corrompus, un importateur de chaussures commande en Italie trente mille souliers droits qui sont débarqués au port de Lattaquieh. Venu prendre livraison, le commerçant refuse avec force cris d'embarquer la marchandise et de payer naturellement les droits. Les

douanes mettent alors en vente le stock à un prix dérisoire qui est racheté par un comparse du commerçant. Quelques semaines plus tard, le même scénario se reproduit au port de Baniyas avec trente mille souliers gauches...

(35) Longuenesse (Elizabeth), Syrie, secteur public industriel: les enjeux d'une crise, in Maghreb/Machreq n° 109, ete 1985, p. 16.

(36) Interview a l'AFP, le 12 mars 1990.

Minoritaire, militant et militaire

(1) Weulersse (Jacques) de l'Institut français de Damas, Le pays des Alaouites, Tours, Arrault et Cie, 1940, p. 53.

(2) Pareja F.M., Islamologie, Imprimerie catholique de Beyrouth, 1963, p. 844. Il s'agit d'une bonne introduction au chiisme, même si les données chiffrées de cet ouvrage datent un peu

(3) On lira avec intérêt les quatre premiers volumes du Roman de Baïbars publiés aux Editions Sindbad, Paris. En réalité, Baïbars, qui contribuera largement à l'expulsion des croisés qui tenaient encore une partie importante de la côte syrienne, devint rapidement pour les sunnites de l'époque le modèle du bon souverain, dèfenseur de l'Islam contre les infidèles, croisés, alaouites et autres ismaéliens...

(4) Ibn Taymiyyah (Takieddine), Fatwa fil Nusayriya (Décret sur les Nosayrites). Cité par Stanislas Guyard, Un grand maûtre des Assassins au temps de Saladin, Paris, Journal asiatique, 1787.

(5) Manna (Haytham), Intaj al Insan al Charqi al Moutaouasset (production du Méditerranéen oriental), Beyrouth, 1986, pp. 107 et 108.

(6) Ibn Battuta, Voyages, t. 1, p. 177. Cité par Dussaud (René) in Histoire et religion des Nosayrites, Paris, 1900.

(7) Ibidem, p. 178.

(8) Weulersse (Jacques), op. cit., p. 118.

(9) Lockroy (Eugène), Mission d'Ernest Renan en Phénicie, Paris, Tour du Monde, 1863

(10) Roche (Jean de La), Notes sur notre occupation du territoire alaouite, Paris, Archives françaises, 1931.

(11) Jabbouri (Abdel Jabbar al), Al Ahzab oual Jamma'iyyate as siyasiyya fi Souriya (Les partis et les groupes politiques en Syrie), Bagdad, 1980.

[12] Mécontent de son patronyme "al Ouasch" (la bête sauvage), c'est ce même grand-père qui a changé son nom en Assad (lion).
[13] Les extraits de ce mémorandum qui sont repris ici sont traduits de l'arabe et ne constituent pas le texte officiel français.
[14] Rabinovich (Itamar), Syria under the Ba'ath 1963/1966 The Army/Party symbiosis, Jérusalem, Israel University Press, 1972.
[15] Jabbouri (Abdel Jabbar al), op. cit., p. 87.
[16] Rabinovich (Itamar), op. cit., p. 25.
[17] Voir annexe sur le parti Ba'ath à la fin du livre.
[18] Toutes les cartes officielles de la Syrie incluent l'ex-sandjak d'Alexan drette.
[19] Weulersse (Jacques), Le pays des Alaouites, op. cit., p. 340.
[20] Ibidem, p. 244 et sqq.
[21] Dussaud (René), op. cit., p. 30.
[22] Massignon (Louis), Encyclopédie de l'Islam, article sur les Nosayrites.
[23] D'une manière générale, tribu se traduit plutôt par qabila.
[24] Manna (Haytham), Middle Eastern Studies, tome 23, avril 1987, p. 221. Manna qui a enquêté sur place pendant plusieurs mois est le premier à avoir corrigé le tir. On ne saurait trop recommander la lecture de ses diverses communications qui apportent souvent un éclairage aussi original que rigoureux sur la Syrie contemporaine.
[25] Faksh (Mahmud A.), The Alawi community of Syria: a new dominant political force, in Middle Eastern Studies, 1983, p. 137.
[26] Batatu (Hanna), "Some observations on the social roots of Syria's ruling military groups and the causes for its dominance" in Middle East Journal, été 1981, p. 331.
[27] Entretien avec l'auteur.
[28] "La nomenklatura syrienne: le who's who du pouvoir en Syrie" in Les Cahiers de l'Orient, Paris, n° 4, 4e trimestre 1986. En dehors de quelques erreurs, ce document constitue une bonne référence.
[29] Weulersse (Jacques), op. cit., p. 72.
[30] Hijar (Rachid al), "Quelques remarques à propos de la destruction de la société syrienne", in Soual, n° 3, hiver 82-83, p. 43.

[31] Bitterlin (Lucien), Hafez al Assad, le parcours d'un combattant, Paris, Editions du Jaguar, 1986. Destinée à mieux faire connaître le président syrien et sa politique, cette hagiographie a été moquée et violemment critiquée dans de nombreux milieux. Reconnaissons-lui cependant le mérite d'apporter un certain nombre d'informations inédites sur la jeunesse de Hafez al Assad ainsi qu'un éclairage officiel sur certains événements de l'histoire moderne de la Syrie.

[32] Bitterlin (Lucien), op. cit., p. 18. Cette affirmation laisse perplexe dans la mesure où c'est à partir de huit ans que les écoliers syriens ont toujours commencé à apprendre le Coran.

[33] Ibidem,p. 15.

[34] Kissinger (Henry), Les Années orageuses, t. 1,0 Paris, Fayard, 1982‹ p. 960.

[35] Petran (Tabitha), Syria, nation of the modern World, London‹ Ernest Benn Ltd, 1972, p111 .

[36] Mot arabe d'origine turque signifiant colonel.

[37] Love (Kenneth), Suez the twice-fought war, New York, 1969, p. 653.

[38] Bitterlin (Lucien), Op. Cit., p.44.

[39] Pour plus de précisions sur le Comité militaire, voir en annexes.

[40] Bitterlin (Lucien), op. cit., p. 54.

[41] Rabinovich (Itamar), op. cit., p. 26 et sqq.

[42] Zahreddine (Abdel Kerim), Moudhakirati 'an fatrat al infisâl fi Souriya (Mes Mémoires sur la période de la séparation en Syrie), Beyrouth, 1968, pp. 216 et 372.

[43] Rabinovich (Itamar), op. cit., p. 72. Pour les réponses des dirigeants ba'athistes à Sallal et Nasser, voir Nidal al Ba'ath, t. 6, pp. 186 a 194.

[44] Essentiellement Mounif Razzaz, Georges Tarabeschi et Yassine Hafez qui seront bien mal récompensés de leurs efforts puisque leur mentor Salah Jadid les poussera à l'exil ou les fera incarcérer.

[45] Bitterlin (Lucien), op. cit., pp. 64 et 65

[46] Ibidem, p. 64.

[47] Ibidem, p. 65

[48] Ouathâeq 'arabiyya (Documents arabes), Beyrouth, 1970. Cité par le journal libanais ar Raya du 17/11/1970.

[49] Assad en fait n'oublie rien. Il est convaincu d'expérience que celui qui parvient à survivre à tous ses adversaires finit obligatoirement par avoir raison! On retrouve une fois encore le gestionnaire avisé du temps...

[50]Interview à la télévision française citée par le quotidien officiel syrien alThawra, le 27/1 1/1970. A la question "La presse mondiale parle d'un coup d'Etat qui vient de se produire en Syrie, quelle est votre opinion?" Assad répond: "Nous ne pouvons etre d'accord avec ce qu'affirme la presse mondiale. Ce qui vient de se passer en Syrie est un changement naturel qui est intervenu dans notre parti et qui aurait pu arriver dans n'importe quel parti ou mouvement révolutionnaire dans le monde. Comme vous pouvez le constater, il n'y a aucun signe de coup d'Etat, vous n'entendez et on n'entend aucun coup de feu et il n'y a ni mouvements militaires, ni soldats hors de leurs casernes"

Protrait, projet et dérives

[1] 1,84 m selon Lucien Bitterlin.

[2] Entretien avec l'auteur.

[3] Anecdote rapportée à l'auteur par le fils d'un de ces écrivains.

[4] Un autre exemple célèbre est celui de Mohammed Omrane, également officier alaouite et membre du fameux Comité militaire. Omrane fut assassiné à Tripoli (Liban) en 1972 car, en liberté, il représentait un rival potentiellement dangereux.

[5] II faudra un jour écrire l'histoire des relations syro-irakiennes qui, au moins jusque 1991, se confond largement avec celle des destinées de Hafez al Assad et Saddam Hussein: "Il reste à souligner combien les caractéristiques des dirigeants de Syrie et d'Irak sont étonnamment proches. (...) Tous deux refletent a l'evidence le même niveau de développement social dans les deux pays et les memes luttes socials passées entre les campagnes et les principales villes du pays ou, pour être plus concret, entre, d'une part, les ruraux défavorisés et les forces partiellement urbanisées et, d'autres part, les groupes citadins privilégiés", écrit Batatu, spécialiste des deux régimes, dans une allusion directe à ce problème in Middle East Journal, été 1981, p. 332 et sqq.

(6) Pakradouni (Karim), La Paix manquée, Beyrouth, Editions FMA (Fiches du monde arabe), 1983, p. 72. Le dernier livre de Karim Pakradouni, publié en 1991, apporté un éclairage tres intéressant sur le rôle des Etats-Unis "inconditionnellement pro-israéliens" et "indifférents au sort du Liban". Il montre aussi le parti pris pro-syrien de Washington au détriment du malheureux Liban. Il souligne enfin l'entêtement et les innombrables fautes commises par Amine Gemayel.

(7) Entretien avec l'auteur de ce fontionnaire qui à tenu ~ garder l'anony- mat.

(8) Assad, selon tous ceux qui l'ont approché, adore entrer dans les détails. Il raffole notamment de tout ce qui a trait aux luttes de clans dans les montagnes libanaises et syriennes et se montre alors d'une insatiable curiosité.

(9) Ambassadeur de France à Damas, à la fin des années soixante-dix. Ses collaborateurs et la petite colonie française de Damas l'appelaient "l'ambassadeur ba'athiste" tant il etait fasciné par le président syrien.

(10) Les ennemis les plus irreductibles du président syrien verront une nouvelle fois dans cela une marque de son "esprit confessionnel". Les choses, répétons-le, sont plus complexes. de même qu'une personnalité auvergnate ou corse installée à Paris recevra plus facilement "un pays", surtout s'il est recommandé, de même Hafez al Assad-est-il tenu à se montrer accueillant à l'égard des membres de sa communauté qu'il connaît mieux. Mais Assad, et nous le montrons à plusieurs reprises, n'est pas à proprement parler "un esprit confessionnel".

(11) Assad (Hafez al), Kadhalika qâla al Assad, op. cit., pp. 78 et sqq.

(12) lbidem, pp. 319 et sqq.

(13) Ibidem, pp. 371 et sqq.

(14) Kissinger (Henry), op. cit., pp. 960 et 1325.

(15) Ibidem, p. 1131. A propos de repas, Kissinger se félicite à plusieurs reprises de ses hôtes syriens et de leur générosité. Il n'en déplore pas moins que "souper léger" soit intraduisible en arabe...

(16) Ibidem, p. 1150.

(17) Ibidem, p. 1312.

(18) Ibidem, p. 1167.

(19) Ibidem, p p. 1 163 et sqq.

(20) Ibidem, p. 1369.

(21) Ibidem, p. 1374.

(22) Ibidem, p. 960.

(23) Ibidem, p.959 et sqq.

(24) Ibidem, p. 960.

(25) Ibidem, p. 959.

(26) Les slogans étalient a l'epoque visibles partout à Damas.

(27) Carré (Olivier) et Michaud (Gérard), Les Frères musulmans, Paris, Gallimard, Coll. Archives, pp. 140 et 141.

(28) Entretien avec l'auteur.

(29) Le ministère des Waqfs gère les mosquées et leurs personnels.

(30) Entretien avec l'auteur. Comme beaucoup de ses compatriotes, ce médecin syrien en exil a souhaité conserver l'anonymat, ce qui illustre d'une certaine maniere la nature du régime.

(31) Entretien avec l'auteur

(32) Picard (Elizabeth), "Le parti Ba'ath au service des régimes militaries de Syrie et d'Irak. Discours du pouvoir et réponse des sociétés", in Les appareils de la dictature, communication faite a Paris au cours d'un colloque sur ce thème les 5 et 6 décembre 1985 à Paris I, p. 12. Excellente analyse.

(33) A l'époque, des rumeurs entretenues notamment par l'entourage de Rifa'at al Assad circulent avec insistance sur la mise à l'écart d'Ali Douba. Si cela s'était confirmé - ou si cela se produisait un jour- ce serait un épisode très important dans la vie politique syrienne. Car, en tant que chef des renseignements militaires, Douba a "un homme à lui" au plus haut niveau dans chaque division syrienne, ce qui lui permet d'être constamment très bien renseigné.

(34) Seale(Patrick),Assad, the struggle for the Middle East, London, I.B. Tauris and Co Ltd, 1986.

(35) Entretien avec l'auteur d'un ex-proche d'Ali Douba.

(36) Entretien avec l'auteur d'une personnalité du parti communiste syrien très liée aux diplomates soviétiques jusqu'au milieu des années 80, qui la tenaient alors régulièrement informée.

(37) Harakat at Tashihiyya (mouvement de redressement) lancé par Assad quelques mois après son arrivèe au pouvoir.

(38) Kasm renonça effectivement.

(39) Entretien avec des proches de Ryad Turk.

(40) Picard (Elizabeth), "Syrian politics: internal structure and process", in communication faite à la Conférence annuelle de la MESA, novembre 1986, p. 7.

(41) Mort à Bagdad en 1989. Cofondateur du Ba'ath avec Salah Bitar assassiné en 1980 à Paris.

(42) Picard (Elizabeth), Syrian politics..., op. cit., p. 21.

(43) Picard (Elizabeth), Le parti Ba'ath..., op. cit., p. 22.

(44) Il n'y a pas de hiérarchie religieuse dans le sunnisme syrien qui est "decentralize". Ce facteur jouera d'ailleurs plus tard contre les Frères musulmans.

(45) Manna (Haytham), Middel Eastern Studies, April 1987, p. 212.

(46) Ibidem,p. 213.

(47) Bitterlin (Lucien), op. cit., pp. 216 et 217.

(48) Manchourat al Mo'arada al wataniyya al dimokratiyya al souriyya (publications de l'opposition nationale et démocratique syrienne). Opuscule publié en février 1985 à l'occasion du troisième anniversaire du massacre de Hama.

(49) Bitterlin (Lucien), op. cit., pp. 214 et sqq.

(50) Ibidem.

(51) Paul (James), Rapport sur les violations des droits de l'homme en Syrie pour le compte de l'organisation Middle East Watch. Il s'agissait d'un manuscrit non encore pagine que l'auteur a pu consulter.

(52) Ibidem.

(53) Ibidem.

(54) Picard (Elizabeth), Syrian politics: internal structure and process, 25 years of the ba'athist regime-The role of the Army revisited, Conférence annuelle de la MESA, novembre 1986 aux Etats-Unis.

Quinze ans au Liban

(1) Sur les idées et positions de Hafez al Assad juste après le coup d'Etat de novembre 1970, on se référera utilement au discours du 5 décembre1970

prononcé devant les corps constitués et publié par al Ba'ath le 6 décembre 1970.

(2) "Le Liban était un jardin sans clôture", devait joliment reconnaître en 1983 Chafiq al Hout, ancien représentant de l'OLP dans la capitale libanaise.

(3) Au moment de l'assaut syrien contre le réduit chrétien de Michel Aoun, il fallait plus de mille livres libanaises pour un dollar. Après la chute d'Aoun, le cours remonta légèrement à 750-800 livres avant de chuter à nouveau en raison de la guerre du Golfe. Début mars 1991, il fallait 1035 livres pour un dollar.

(4) Comme on peut l'imaginer, il n'y a pas de statistiques officielles sur les disponibilités financières des uns et des autres. Les "experts" éva- luaient cependant à 250 millions de dollars l'aide que recevait chaque année le mouvement al Fatah de Yasser Arafat de la seule Arabie Saoudite, entre 1973 et 1982. De même, de 1988 a 1990, le général Michel Aoun aurait reçu plus d'un milliard de dollars d'aide, essentiellement en armes et munitions, de la part de l'Irak

(5) Cet assassinat provoqua le massacre d'une centaine de chrétiens habitant le Chouf par des Druzes fous de douleur. L'enquête n'a évidemment donné aucun résultat.

(6) Pakradouni (Karim), op. cit., pp. 126 a 129. Selon l'auteur, Assad a raconté un jour que son entourage lui avait suggéré d'abattre l'avion dans lequel Anouar el Sadate était venu mais qu'il s'y était opposé.

(7) Seale (Patrick), op. cit., p. 304. Assad a souvent confié à ses interlocuteurs qu'il était excédé par l'impatience de Sadate: "Pressé de cesser les combats en octobre 1973, pressé d'aller à Jérusalem sans même chercher a négocier ce voyage..." note ainsi Seale en sortant d'un entretien avec le président syrien.

(8) Le directeur d'une agence de presse internationale est expulsé du Liban pour avoir fustigé le laisser-aller des responsables libanais dans un article intitulé "Devine qui vient diner ce soir?".

(9) Association internationale des juristes démocrates et des juristes palestiniens, Les accords de Camp David, un défi au droit internatio nal, Paris, Sycomore, 1980. La structure de ces accords est remarquablement démontée ainsi que leur contradiction tant avec les principes généraux du droit qu'à l'égard des autres engagements internationaux.

(10) Les accords de Camp David ainsi baptisés par la plupart des médias arabes.

(11) Plus d'un millier d'Américains dotés d'un équipement de surveillance très sophistiqué sont en effet présents dans la partie orientale du Sinaï.

(12) Après le sommet arabe d'Amman, en novembre 1987, la normalisation s'est encore accélérée à cause de la guerre irako-iranienne et de l'aide considérable que Le Caire apportait alors à Bagdad.

(13) Le quorum exigé étant que deux tiers des parlementaires se prononcent en sa faveur, on peut imaginer les pressions auxquelles furent soumis certains députés hésitants...

(14) Tuéni (Ghassan), Une guerre pour les autres, Paris, J.-C. Lattès, ،1985p. 248.

(15) Ibidem, p. 249.

(16) Libéré en octobre 1990 au moment de la chute du général Aoun. Chartouni, selon toute vraisemblance, n'a pas agi pour le compte des Syriens mais pour celui de Nabil al Alam, membre du bureau politique national social syrien (PNSS, pro-syrien) qui organisa l'attentat sans prévenir la direction de son parti. Al Alam, maronite de Jbeil, détestait B. Gemayel.

(17) En octobre 1983, deux camions piégés se jettent contre les QG américain et français à Beyrouth. Il y a plus de 300 morts dont quatre cinquiëmes de marines.

(18) Le petit peuple de Damas disait cela de son président.

(19) Un certain nombre d'Iraniens, pour éviter d'aller sur le front avec l'Irak, ont préféré se rendre au Liban en se faisant passer pour de bons propagandistes du régime.

(20) Le plus vieil otage occidental du Liban. Etait toujours détenu en juin 1991

(21) Carton, Fontaine et Kauffmann ont été libérés trois ans plus tard et ont raconté les circonstances tragiques dans lesquelles Ptait mort Michel Seurat sept mois environ après son enlèvement. Si James Paul semble considerer la Syrie responsable de l'enlevement de Seurat, cette opinion n'est pas partagée par ses proches qui avouent n'avoir aucune certitude en dépit du peu de sympathie que Seurat pouvait nourrir à l'endroit du régime de Damas et de ses méthodes

(22) Loin de nous l'idée de présenter Ghazi Kanaan, sorte de proconsul syrien au Liban, comme un modèle d'officier de carrière. Le rôle qu'il a joué dans la répression à l'intérieur de la Syrie a fait de lui un des hommes de confiance d'Assad, ce qui veut tout dire. Disons simplement qu'il a davantage le sens des relations publiques et qu'il a réussi, dans une certaine mesure, à séduire quelques journalistes occidentaux.

(23) Assad (Hafez al), Kadhalika qâla atAssad, op. cit., p. 387.

(24) Ibidem, p. 389.

(25) Georges (Lucien), Le Monde, 27/9/1988.

(26) Ce sont les chefs chrétiens qui ont appelé au secours la Syrie, même a s'ils n'aiment pas qu'on le leur rappelle. En avril 1977, Pierre Gemayel affirmait encore: "La Syrie est le seul pays qui ait su discerner entre arabisme et confessionnalisme et qui ait bien compris le problème libanais" (Bitterlin L., op. cit., p. 174)

(27) Entretien avec l'auteur.

(28) Battu militairement par les Israéliens, il réussit cependant, avec l'aide de Kissinger, à récupérer Kuneitra prise en 1967.

(29) Estimations avancées par les organisations caritatives comme la Croix-Rouge, Medecins du Monde, etc

(30) Peut-être mieux placés que personne, les officiers de la FINUL (Force intérimaire des Nations unies pour le Liban) dépêchée par l'ONU en 1978 après la première invasion israélienne du Liban pourraient témoigner de l'incroyable infiltration des mouvements libanais et palestiniens par Israël. A tout moment, selon des officiers français de la FINUL,
les Israéliens peuvent provoquer des troubles en "réveillant" leurs agents au Liban. En faisant par exemple tirer une roquette Katioucha sur le nord d'Israël, ils ont le prétexte tout trouvé pour bombarder le sud du Liban pendant une journée (en admettant qu'ils aient encore besoin de prétexte...). Les Israéliens ont également contribué a dresser
les druzes contre les chrétiens dans le Chouf en 1983 en tirant sur les uns et les autres.

(31) Assad (Hafez al), op. cit., p. 323.

(32) Friedman (Thomas), op. cit., p. 144.

(33) Picaudou (Nadine), La Déchirure libanaise, Paris/ Bruxelles, Editions Complexe, p. 223

L'entourage arabo-musulman

[1] Anecdote racontée à l'auteur par un témoin palestinien qui assista à cet échange en marge d'un sommet arabe.

[2] Haurani Akram. Entretien avec l'auteur>

[3] Ibidem.

[4] Ibidem.

[5]Assad (Hafez al), Kadhalika qâla al Assad, op. cit., p. 388.

[6] Entrevue d'une dizaine d'heures préparée par le roi Hussein de Jordanie et qui sera confirmée quelques mois plus tard par les deux côtés. Elle n'a donné aucun résultat tangible pas plus que deux autres entretiens au sommet d'Amman en novembre 1987.

[7] Discours du roi Hussein le 12/7/1986.

[8] Interview au Charq al awsat le 12/7/1986.

[9] Interview au quotidien koweïtien "al Siyassa", le 25/6/1986.

[10] Plusieurs dizaines de milliers d'Irakiens, souvent d'orgine persane ou kurde, vivent en Syrie dans la crainte permanente de faire les frais d'une réconciliation entre Damas et Bagdad.

[11] The Guardian, 12 oct. 1988.

[12] Assad (Hafez al), op. cit., p. 399.

[13] Ibidem, p. 400.

[14] Ibidem, p. 402.

[15]Et également, selon la légende, la tête de Hussein, fils d'Ali. Il y a d'ailleurs dans la mosquée des Omayyades un coin réservé aux ehiites.

[16] C'est là que se sont installés la plupart des Irakiens d'origine persane.

[17] Les chiffres donnés ici sont tirés d'un reportage de l'AFP.

[18] Furieux d'être obligés sous la pression américaine de rendre Kuneitra, les Israéliens rasèrent au bulldozer cette ville qui était d'ailleurs inhabïtée depuis 1967.

[19] Front regroupant un certain nombre de pays arabes comme la Syrie, la Libye, le Sud-Yémen et l'Algérie

[20] Assad (Hafez al), op. cit., p. 387.

[21] Ibidem, p. 389.

[22] L'Arabie Saoudite et l'Iran avec lesquels Assad essaie d'entretenir de bonnes relations pour contrebalancer le poids de l'Irak. Tous y trouvent leur intérét.

[23] Carré O. et Michaud G., op. cit., p. 139.

[24] Ibidem, p. 145.

[25] Ibidem, p. 145; en fait, dans les milieux religieux alaouites, on affirme qu'une telle réunion n'a jamais eu lieu. On reconnaît toutefois que plusieurs dizaines de jeunes Alaouites sont allés se former en Iran.

[26] et des Syriens chez qui Aoun est extrêmement populaire!

[27] Cf. presse officielle syrienne: 13 août 1990 et 6 septembre 1990.

[28] Quelques jours après l'invasion du Koweït, des rumeurs circulèrent avec insistance sur de graves troubles dans l'est du pays notamment à Deir ez Zor ainsi que des mouvements d'humeur au sein de l'armee de l'air.

[29] Le Monde, 15 mars 1991.

[30] Ibidem.

[31] Entretien de l'auteur avec un de ces ecrivains.

Damas, Moscou, Washington et Paris

[1] Assad (Hafez al), Kadhalika qâla al Assad, op. cit., p. 107.

[2] Seale (Patrick), op. cit., p. 398.

[3] Ibidem.

[4] Presse syrienne du 26/4/1990.

[5] AFP 5/4/1990.

[6] Entretien avec l'auteur d'un des participants.

[7] Hormis les trois Tupolev dont nous avons parlé.

[8] Assad (Hafez al), op. cit., pp. 243 et sqq.

[9] Ibidem.

[10] Ibidem.

[11] Ibidem;

[12] Seale (Patrick, op.; pp. 475-482.

(13) Ibidem.

(14) Le 9 avril 1990, quelque temps après que le Congrès américain eut approuvé à une large majorité une résolution selon laquelle Jérusalem etait la capitale réunifiée d'Israël, Robert Dole reconnut que ses collègues et lui-même n'avaient pas suffisamment d'éléments pour avoir une opinion convenable sur ce sujet et qu'un voyage au Proche-Orient lui avait permis d'y voir plus clair.

(15) Discours radio-télévisé le 6 mars 1990.

(16) Interview à la télévision française le 28/11/1970.

(17) "Est-ce que tenter de remettre les pieds chez soi constitue forcément une agression?" avait notamment déclaré Michel Jobert en commentant le début de la guerre d'octobre 1973.

(18) est significatif que le chef de l'Etat français repugne à parler de "territoires occupés", expression à laquelle il préfère celle de "territoires disputés". D'une manière générale, même si François Mitterrand a beaucoup évolué depuis 1981 et défend une politique équilibrée, il n'a jamais donné l'impression d'être à l'aise avec la majorité de ses homolo- gues arabes.

(19) Berque (Jacques) dans une Libre Opinion parue dans Libération le 22/10/1990.

(20) Interview au Monde, le 28/4/1989.

(21) Berque (Jacques), même article de Libération cité plus haut.

(22) L'asile politique accordé à cette époque au général Michel Aoun avait créé une nouvelle fois une certaine tension entre Damas et Paris.

Le réime syrien, l'OLP et "l'entilé sioniste"

(1) Entretien avec l'auteur.

(2) Kaminsky C. et Kruk S., La Syrie politique et stratégies de 1966 à nos jours, Paris, PUF, 1987, p. 48.

(3) Baron Xavier, Les Palestiniens, un peuple, Paris, Sycomore, 2e édition, 1984, p. 220.

(4) Ibidem, p. 224.

(5) Quand on songe à ce qu'était la haine des miliciens chrétiens libanais pour les Palestiniens, on ne peut que rester songeur devant le spectacle de ces fedayine regagnant leurs bases via le port chrétien de Jounieh.

(6) Sondage effectué par une télévision australienne, ABC, le magazine américain Newsday et le quotidien de Jérusalem al Fajr.

(7) Les massacres de Palestiniens à Koweït, en mars 1991, laissent malheureusement bien mal augurer de leur avenir dans l'emirat.

(8) Communiqué parvenu au bureau de l'AFP à Nicosie.

(9) Assad (Hafez al), op. cit., pp. 57 et sqq.

(10) Ibidem.

(11) Kissinger (Henry), op. cit., p. 921.

(12) Interview à une chaîne de télévision américaine cité dans Kadhalika qâla al Assad, pp. 121 et sqq.

(13) Les Syriens impliqués dans ces très rares incidents ont été arrêtés et n'ont Jamais été liberes. L'opposition syrienne fait remarquer à cet égard que le seul traite qu'Assad a toujours scrupuleusement respecté est l'accord de désengagement avec Israël conclu en 1974... Israel d'ailleurs n'a jamais caché ses craintes de voir Assad remplacé par un "dur" ou un "aventurier".

(14) Cité par Le Monde le 5/9/1988.

(15) Tuéni (Ghassan), op. cit., p. 398.

(16) Dirigé par Omar Karamé, l'actuel gouvernement libanais reçoit, le mardi soir des mains d'un officier syrien des services de renseignement, l'ordre du jour du Conseil des ministres de mercredi. Quand le sujet est important, le président Hraoui est "convoqué" à Damas. Gouvernement de mafiosi en grande partie, le cabinet libanais inspire le mépris a de nombreux Libanais qui ne le supportent que par lassitude - Ô combien incomprehensible - après seize ans d'anarchie.

Epilogue

(1) Voir Cahiers d'Orient n° 5.

(2) Ibidem.

(3) La jahiliyya ou période de "l'ignorance" correspond à la periode antéislamique.

(4) Rapports annuels d'Amnesty International depuis une quinzaine d'années. En l'occurrence celui de 1986, p. 356 et sqq.

(5) Silone (Ignazio), Pain et vin, Calmann-Lévy, 1937.

(6) Drysdale (Alasdair), The Assad regime and its troubles, MERIP reports, nov./dec. 1982.

(7) Foreign Broadcast Middle East and Africa, BBC, mars 1984.

(8) Bitterlin (Lucien), op. cit., p. 16.

(9) Douba (Ali), Aslan (Ali), Haydar (Ali), respectivement chef des renseignements militaires, chef d'état-major adjoint, commandant de la troisième division blindée.

الفهرس

Daniel Le Gac

LA SYRIE DU GENERAL ASSAD



QUESTIONS AU XX^{e}S

EDITIONS COMPLEXE

Texte inédit